

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَا وَالْهُدُودُ

رواية للأولاد والبنات

تأليف: عُمَرُ الصَّاوِي

لوحات: فيجيليو سلفادور

ح عمر الصاوي ١٤٢٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصاوي عمر

أنا والهدهد / عمر الصاوي - الرياض ١٤٢٩ هـ.

٢٠٠ ص: ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٢-١٣٥٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - مصر - أ- العنوان

١٤٢٩/٥٥٣٧

ديوي ٠٣٩٦٢.٨١٢

رقم الإيداع، ١٤٢٩/٥٥٣٧

ردمك، ٢-١٣٥٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للناشر

التوزيع: مكتبة العبيكان
Obekon

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف: ٤٦٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناشر: مكتبة العبيكان
Obekon

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف: ٩٢٠٠١١٦٤٤ - ٩٢٠٠٢١٦٨٩٠٠ فاكس: ٩٢٠٠٢١٦٨٩١٠

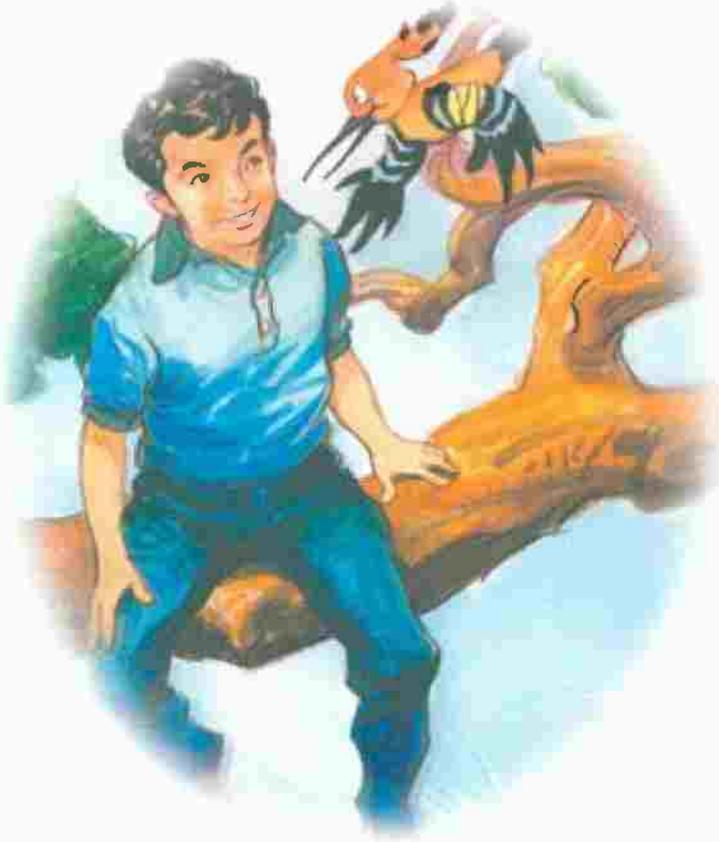
ص.ب. ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥٧١

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية.
بما في ذلك التصوير بالنسخ، فوتوكوبي، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

أَنَا وَالْهُدُودُ

رواية للأولاد والبنات

(عائين ١١-١٦ سنة)



Obékan
Obékan





أنا والعهد

رواية للأولاد والبنات

عُمر الصّاوي

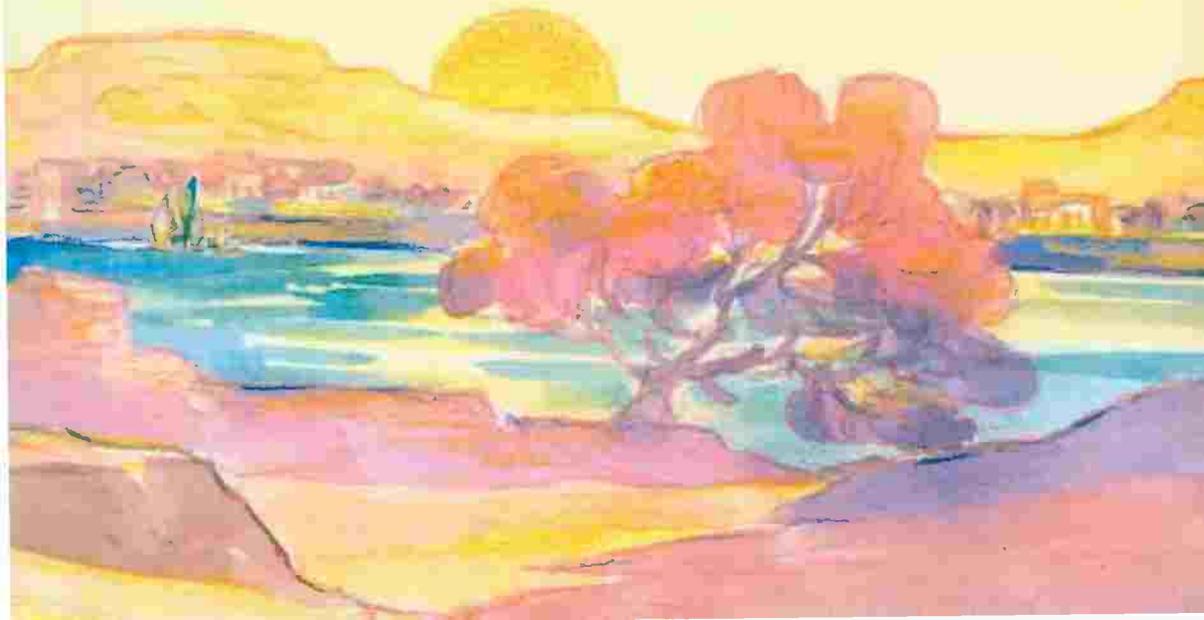
العش الأخضر

كُنْتُ صَغِيرًا فِي مِثْلِ سِنِّكُمْ ، عِنْدَمَا حَدَّثْتُ لِي هَذِهِ الْحِكَايَةَ الْأَعْرَبُ مِنَ

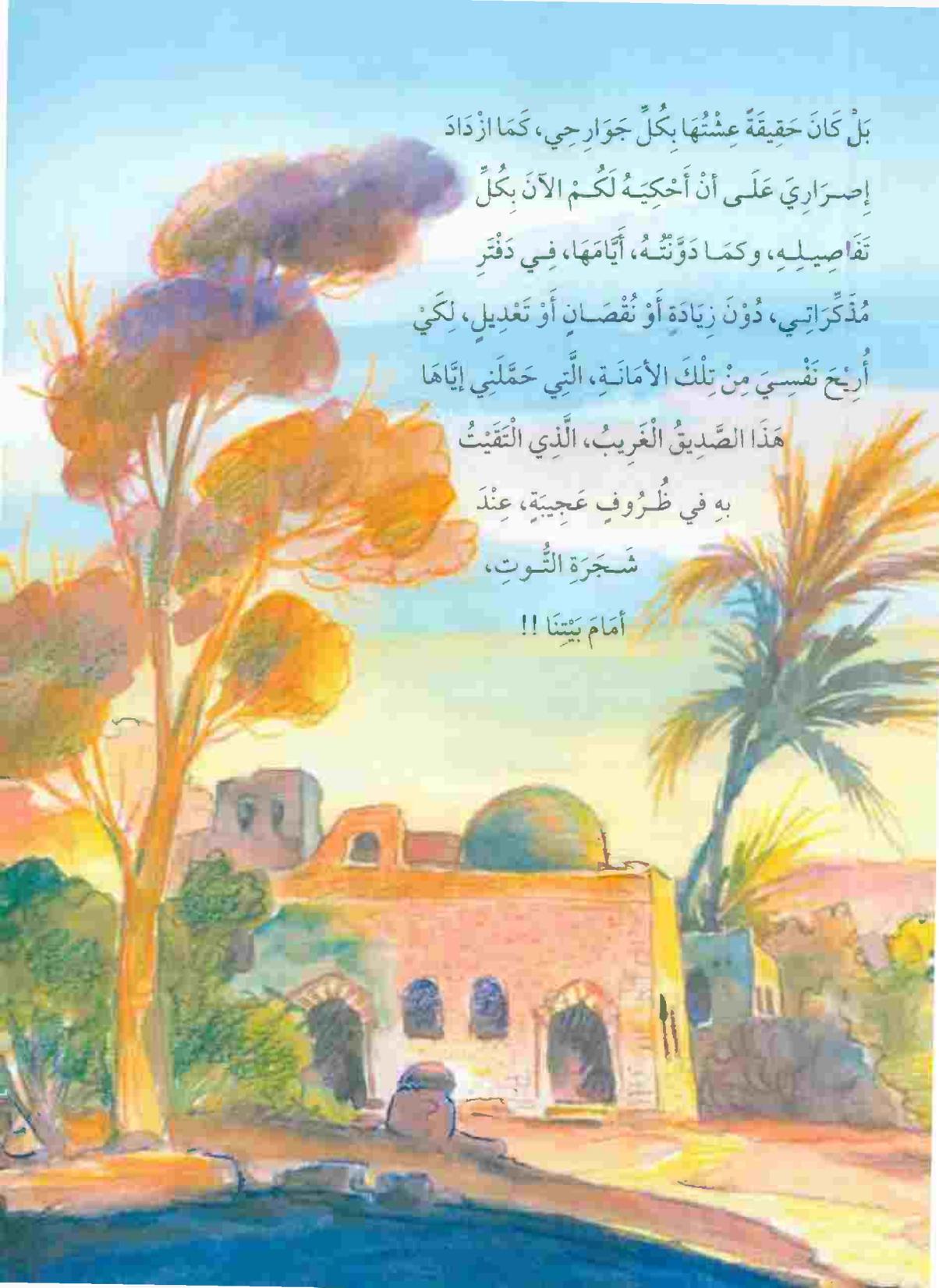
الْحَيَالِ !!

لَمْ يُصَدِّقْنِي الْكِبَارُ عِنْدَمَا حَكَيْتُهَا لَهُمْ ، حَاوَلْتُ أَنْ أُفْنِعَهُمْ ، وَأَكَّدْتُ لَهُمْ
صِدْقَ مَا أَقُولُ ، وَلَكِنَّهُمْ سَخَرُوا مِنِّي ، وَاتَّهَمُونِي بِالْكَذِبِ ، وَأَنَا أَكْرَهُ الْكَذِبَ أَكْثَرَ
مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ فِي الدُّنْيَا ، وَلِذَلِكَ حَزِنْتُ حُزْنًا شَدِيدًا ، وَقَرَّرْتُ مِنْ يَوْمِهَا لَأَ
أَحَدْتُ أَحَدًا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَأَنْ أَخْتِطَّ بِه لِتَنْفُسِي ، سِرًّا دَفِينًا فِي قَلْبِي ، وَبِ
دَفْتَرِ مُذَكِّرَاتِي ، الَّذِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ .

وَمَرَّتْ سِنَوَاتٌ وَسِنَوَاتٌ وَسِنَوَاتٌ ، صِرْتُ خِلَالَهَا شَابًّا ، ثُمَّ أَبًا ، ثُمَّ جَدًّا ،
وَلَكِنِّي لَمْ أَنْسَ مَا حَدَّثْتُ ، وَازْدَادَ مَعَ الْأَيَّامِ اقْتِنَاعِي بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَهْمًا مِنَ الْأَوْهَامِ ،



بَلْ كَانَ حَقِيقَةً عِشْتُهَا بِكُلِّ جَوَارِحِي، كَمَا ازْدَادَ
إِصْرَارِي عَلَيَّ أَنْ أَحْكِيَهُ لَكُمْ الْآنَ بِكُلِّ
تَفَاصِيلِهِ، وَكَمَا دَوَّنْتُهُ، أَيَّامَهَا، فِي دَفْتَرِ
مُذَكِّرَاتِي، دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ أَوْ تَعْدِيلٍ، لِكُنِّي
أُرِيحَ نَفْسِي مِنْ تِلْكَ الْأَمَانَةِ، الَّتِي حَمَلَنِي إِيَّاهَا
هَذَا الصَّدِيقُ الْعَرِيبُ، الَّذِي التَّفَقَّيْتُ
بِهِ فِي ظُرُوفٍ عَجِيبَةٍ، عِنْدَ
شَجَرَةِ الثُّوتِ،
أَمَامَ بَيْتِنَا !!



فِي تِلْكَ الْآيَامِ الْبَعِيدَةِ، كُنْتُ أَعِيشُ مَعَ أُسْرَتِي وَعَائِلَتِي الْكَبِيرَةِ، فِي قَرْيَةٍ هَاجَتِ
 خَضْرَاءَ، كُلَّهَا زَرْعٌ وَشَجَرٌ وَطَيْرٌ وَمَاءٌ، تُطَلُّ عَلَى نَيْلٍ مِصْرَ الْعَظِيمِ، الَّذِي كَانُوا
 يُسَمُّونَهُ (الْبَحْرَ) لِأَنَّهُ كَانَ وَاسِعًا جَدًّا، وَعَمِيقًا جَدًّا مِثْلَ الْبَحْرِ.

حِكَايَةُ الشَّجَرَةِ

قَرِيبًا مِنَ النَّهْرِ كَانَ بَيْتُنَا، وَأَمَامَهُ كَانَتْ شَجَرَةُ التُّوتِ، تَقِفُ عَلَى حَافَةِ الْمَاءِ،
 كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَغْسِلَ قَدَمَيْهَا، تَمَامًا مِثْلَمَا كُنَّا نَفْعَلُ، نَحْنُ الصِّغَارَ، عِنْدَمَا نَقِفُ
 هَكَذَا، انْتِظَارًا لِمَوْجَةٍ تَرْتَفِعُ، وَتَخْرُجُ عَنِ النَّهْرِ، فَتَجْرِي إِلَيْنَا، وَتَبْلُ أَقْدَامَنَا، وَلَحْنُ
 الشَّجَرَةِ لَمْ تَكُنْ تَلْعَبُ مِثْلَنَا، وَتَجْرِي هَرَبًا مِنْ تِلْكَ الْمَوْجَةِ الرَّقِيقَةِ، الَّتِي يُرْسِمُهَا
 إِلَيْنَا الْقَارِبُ الْبُخَارِيُّ الْكَبِيرُ، وَهُوَ يَعْجُرُ سَرِيعًا فِي النَّيْلِ.

كُنْتُ أَحِبُّ شَجَرَةَ التُّوتِ، وَأَشْعُرُ وَكَأَنَّهَا أُخْتُ جَدَّتِي، فَهِيَ تَقِفُ مُنْحَنِيَةً
 بِجِذْعِهَا انْحِنَاءً شَدِيدًا، مَائِلَةً بِأَغْصَانِهَا عَلَى النَّهْرِ، تَمَامًا مِثْلَ جَدَّتِي الَّتِي تَسِيرُ
 مُنْحَنِيَةً الظَّهْرَ. وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ لَمْ تَكُنْ عَجُوزًا مِثْلَ جَدَّتِي، كَمَا كُنْتُ أَظُنُّ!!

هَذَا مَا قَالَتْهُ لِي جَدَّتِي، عِنْدَمَا حَكَتْ لِي، وَقَالَتْ :

(انْحَنَتْ شَجَرَةُ التُّوتِ، هَكَذَا، مِنْذُ كَانَتْ شَجَرَةً صَغِيرَةً طِفْلَةً. حَدَّثَ لَهَا هَذَا
 بَعْدَ عَاصِفَةٍ هَوَّجَاءَ، قُلْنَا وَقْتَهَا: إِنَّهَا انْحَنَتْ هَكَذَا لِكَيْ تَتَوَضَّأَ وَتَصَلِّيَ، وَتَدْعُو
 اللَّهُ أَنْ يُوقِفَ الْعَاصِفَةَ، الَّتِي أَطَاحَتْ بِكَثِيرٍ مِنْ أَخْوَاتِهَا الشَّجَرَاتِ الصَّغِيرَاتِ

وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِدُعَائِهَا، فَتَوَقَّفَتْ

الْعَاصِفَةُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْتَدِلْ!!

فَقُلْنَا: إِنَّهَا تُحِبُّ النَّظَرَ إِلَى

صُورَتِهَا الْمُنْعَكِسَةِ عَلَى

صَفْحَةِ الْمَاءِ اللَّامِعَةِ

الْبَرَّاقَةِ، مِثْلَ فِتَاةٍ

جَمِيلَةٍ تُسْرِّحُ

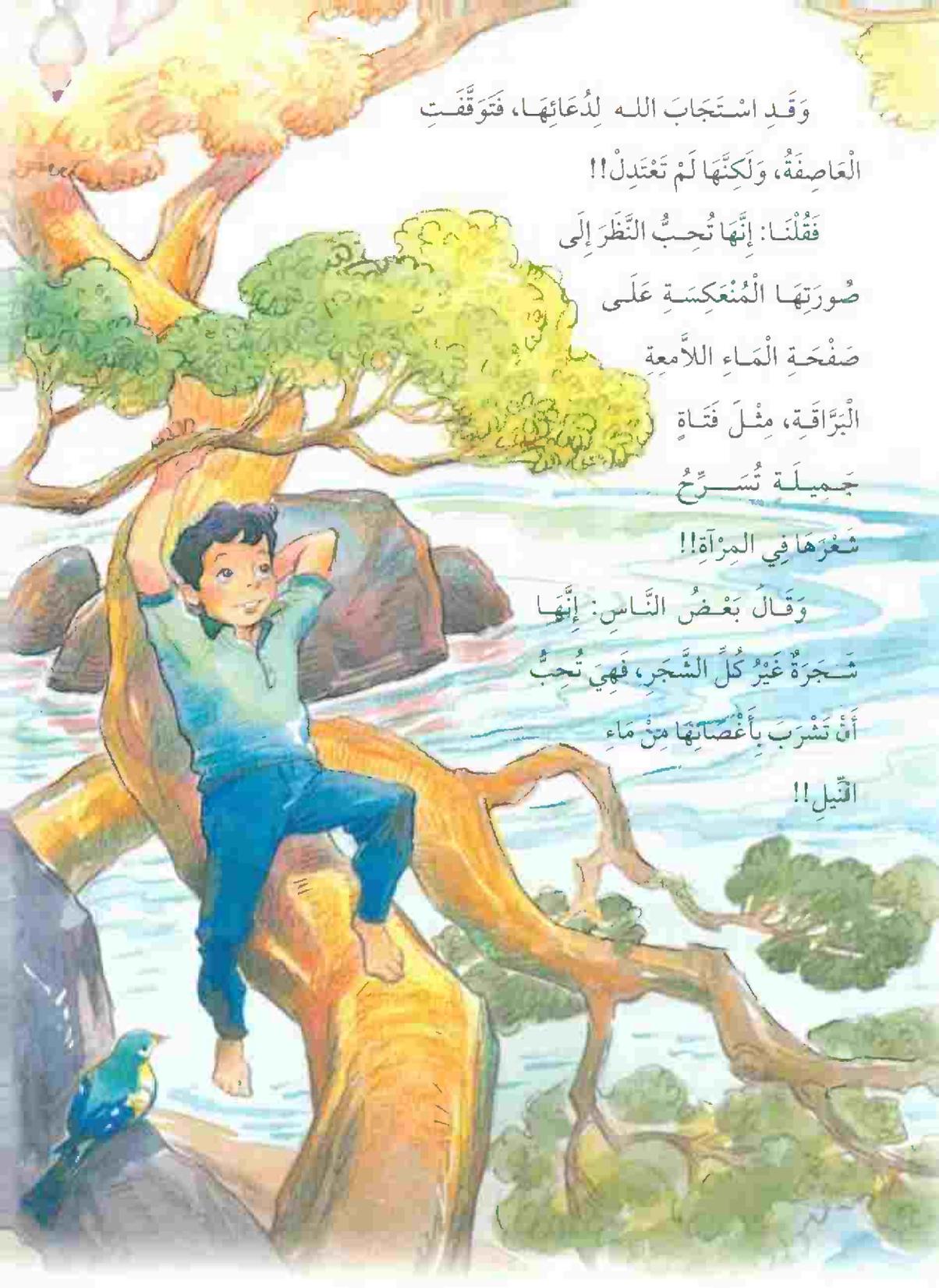
شَعْرَهَا فِي الْمِرْآةِ!!

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّهَا

شَجَرَةٌ غَيْرُ كُلِّ الشَّجَرِ، فَهِيَ تُحِبُّ

أَنْ تَشْرَبَ بِأَغْصَانِهَا مِنْ مَاءِ

النَّيْلِ!!



وَمَرَّتْ أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ وَأَيَّامٌ، وَظَلَّتِ الشَّجَرَةُ تَكْبُرُ وَتَكْبُرُ، وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ،
 تَمُدُّ أَعْصَانَهَا، وَتَفْرِشُ ظِلَّهَا الْأَخْضَرَ عَلَى الْأَرْضِ، وَعَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ !!
 فَقُلْنَا: إِنَّهَا شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ، تُحِبُّ أَنْ تَحْتَضِنَ الْأَطْفَالَ الصَّغَارَ، الَّذِينَ يَجْلِسُونَ
 تَحْتَهَا، وَتَحْمِيهِمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ وَغُبَارِ الْعَوَاصِفِ، كَمَا تَحْتَضِنُ بَيْنَ فُرُوعِهَا
 أَعْشَاشَ الْعَصَافِيرِ وَالْيَمَامِ).

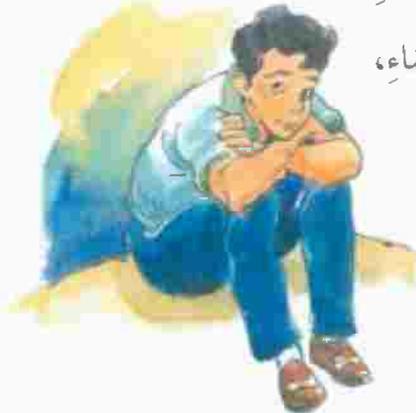
هَذَا مَا قَالَتْهُ الْجِدَّةُ لِحَفِيدِهَا الصَّغِيرِ

وَكُنْتُ أَنَا هَذَا الْحَفِيدَ الصَّغِيرَ، أَسْتَيْقِظُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، لِأَجْلِسَ فِي
 حِضْنِ الشَّجَرَةِ، بَيْنَ أَعْصَانِهَا الْقَرِيبَةِ مِنَ الْأَرْضِ، مِثْلَ عُصْفُورٍ صَغِيرٍ، فِي عُشِّ
 أَخْضَرَ، يَحْلُمُ بِالطَّيْرَانِ.

حُلْمُ الطَّيْرَانِ

كُنْتُ دَائِمًا أَحْلُمُ بِالطَّيْرَانِ، وَأَنَا أَرَا قُبُ أَسْرَابِ الْحَمَامِ الْبَيْضَاءِ، تُرْفِرِفُ
 فَوْقَ أَشْرَعَةِ الْمَرَائِبِ الْبَيْضَاءِ، الَّتِي تَمُرُّ فِي النَّيْلِ، حَامِلَةً
 أَهْرَامَاتِ الْبَطِيخِ، وَأَجْوَلَةَ الْبَطَاطِسِ، وَأَزْيَارَ الْمَاءِ،
 وَجِرَارَ الْعَسَلِ الْأَسْوَدِ.

أَمَّا فِي الصَّيْفِ، فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ، فَكَانَتْ ثَمَارُ
 التُّوتِ الْحُمْرَاءِ أَحْلَى مِنْ هَذَا الْعَسَلِ.



وَلَمْ أَكُنْ أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أَقْطِفَهَا بِيَدِي، بَلْ كَانَ يَكْفِي أَنْ أُمُدَّ فَمِي لِكَيْ تُقَرَّبَ
الشَّجْرَةُ مِنِّي غُضْنَهَا بِحَبَّةِ الثُّوتِ.

وَأَجْمَلُ الْمَرَاتِ الَّتِي أَكَلْتُ فِيهَا الثُّوتَ بِفَمِي كَانَتْ عِنْدَمَا يَصْحَبُنَا مَعَهُ
أَحَدُ إِخْوَتِنَا الْكِبَارِ، فِي قَارِبِ صَغِيرِ ذِي مِجْدَافَيْنِ، نَمْشِي بِهِ فِي الْمَاءِ، وَنَدْخُلُ
بَيْنَ الْأَغْصَانِ الْمُتَدَلِّيَةِ الْمُمْتَلِئَةِ، لِتَسَابِقِ فِي أَكْلِ الثُّوتِ بِأَفْوَاهِنَا، كَانَتْ بَعْضُ
الْحَبَّاتِ تُفَلِّتُ مِنْ بَيْنِ شِفَاهِنَا عِنْدَمَا يُحْرِّكُ السَّيْمُ غُضْنَهَا، أَوْ عِنْدَمَا يَتَرَجَّرُ
مَاءُ النَّهْرِ، فَيَمَّا يَلُ بِنَا الْقَارِبُ مُبَاعِدًا بَيْنَ شِفَاهِنَا وَبَيْنَ الثَّمَرَةِ، الَّتِي كَادَتْ تَدْخُلُ
بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ، فَنُضْحِكُ، وَتَضْحَكُ الشَّجْرَةُ بِحَفِيفِ أَغْصَانِهَا - بَيْنَمَا تَتَقَافَرُ فَوْقَ
الْمَاءِ حَوْلَنَا - سَمَكَاتٍ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فَضِيَّةٌ تَلْمَعُ، وَكَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَشُّبَ، وَتَطَالَ
الْأَغْصَانَ، لِتَسَابِقَ مَعَنَا فِي أَكْلِ الثُّوتِ بِأَفْوَاهِنَا، مَعَ أَنَّ نَصِيحَهَا كَانَ كَبِيرًا مِنْ هَذَا
الثُّوتِ، الَّذِي تُسْقِطُهُ لَهَا الشَّجْرَةُ فِي الْمَاءِ، كُلَّمَا هَبَّ الْهَوَاءُ، وَهَزَّ أَغْصَانَهَا !!
وَكَانَ أَحَبَّ شَيْءٍ لَدَيَّ أَنْ أَجْلِسَ مِثْلَ الطُّيُورِ، عَلَى غُضْنِهَا الْمَائِلِ عَلَى النَّهْرِ،
مُدْلِيًا قَدَمِي فِي تَيَّارِ الْمَاءِ، الَّذِي يَجْرِي مِنْ تَحْتِي.

فِي الْبِدَايَةِ، كَانَتْ الْعَصَافِيرُ تَطِيرُ مُبْتَعِدَةً خَائِفَةً مِنِّي، كُنْتُ أَتَعَجَّبُ مِنْهَا: لِمَاذَا
تَخَافُ مِنِّي وَأَنَا أُحِبُّهَا، وَلَا أُرِيدُ إِذْدَاءَهَا!! أَنَا لَا أَفْعَلُ سِوَى الْجُلُوسِ قَرِيبًا مِنْ
أَعْشَاشِهَا، لِأَرَأِبَهَا وَهِيَ تُطْعِمُ صِغَارَهَا، أَوْ وَهِيَ تَبْنِي أَعْشَاشَهَا، كُنْتُ مُعْجَبًا
بِنَشَاطَتِهَا، فَهِيَ لَا تَتَوَقَّفُ عَنِ الطَّيْرَانِ طَوَالَ النَّهَارِ، بَحْثًا عَنِ الْقَشَّةِ الْمُنَاسِبَةِ،
لِكَيْ تَحْمِلَهَا بِمِنْقَارِهَا، وَتَعُودُ بِهَا، لِتَضَعَهَا مَعَ الْقَشِّ، الَّذِي جَمَعْتُهُ، وَتَجِدُّهُ مَعًا،

لِيَكُونَ مَتِينًا، وَتَرْبُطُهُ جَيِّدًا فِي غُضَنِ الشَّجَرَةِ، لِيَكُونَ ثَابِتًا. وَكُنْتُ
أَشْفِقُ عَلَيْهَا، عِنْدَمَا تَقَعُ مِنْ فَمِهَا قَشَّةٌ، فَتَعُودُ لِتَحْمِلَهَا بِمِنْقَارِهَا. وَقَدْ
تَقَعُ مَرَّةً أُخْرَى، فَتَعُودُ لِتَحْمِلَهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَسَاعِدَهَا، وَلَكِنَّهَا
لَمْ تَكُنْ تَقْبَلُ مِنِّي الْمُسَاعَدَةَ، وَفِي الْمَرَّةِ الَّتِي حَاوَلْتُ فِيهَا، وَأَسْرَعْتُ لِأَنَاوِلَهَا
القَشَّةَ، زَقَزَقَتْ بِصَوْتٍ غَاضِبٍ، وَطَارَتْ مُبْتَعِدَةً !!

بَعْدَ أَيَّامٍ، كُنْتُ أَجِدُ بَيْضَتَيْنِ فِي الْعُشِّ، أَفْرَحُ بِهِمَا. وَبَعْدَ أَيَّامٍ أُخْرَى، أَجِدُ
عُضْفُورَيْنِ صَغِيرَيْنِ، أَفْرَحُ بِهِمَا أَكْثَرَ؛ بِالزَقَزَقَةِ الضَّعِيفَةِ النَّحِيلَةِ، وَبِالصِّيَاحِ
الْمُتَلَهِّفِ كُلَّمَا عَادَتِ الْأُمُّ، وَفِي فَمِهَا دُودَةٌ أَوْ حَشْرَةٌ أَوْ حَبَّةٌ قَمْحٍ، يَتَسَابَقُ عَلَيْهَا
الصَّغِيرَانِ، وَيَعُودُ بِهَا مَنْ يَسْبِقُ أَخَاهُ، فَيَلْتَقِطُهَا مِنْ فَمِ أُمِّهِ، وَالْأُمُّ تَطِيرُ مِنْ فَوْرِهَا،
لِلْحَضِرِ لِيَكُنَا الْمَزِيدَ مِنَ الطَّعَامِ.

كُنْتُ أَرَأِبُ كُلَّ ذَلِكَ وَأَنَا جَالِسٌ عَلَى الْغُضَنِ
الْمَائِلِ، مُسْتَمْتِعًا



بِأَمَاءِ الَّذِي يَجْرِي، وَيَتَخَلَّلُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي، لَا أَتَحَرَّكُ، وَلَا أَتَكَلَّمُ، وَلَا أَقْتَرِبُ
كَثِيرًا مِنَ الْعُشِّ، حَتَّى لَا تَخَافَ الْعُصْفُورَةَ، وَتَطِيرَ.

فَحَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةَ، لَمْ تَكُنِ الطُّيُورُ تَطْمَئِنُّ لَوْجُودِي، وَلَا تَشْعُرُ مَعِيَ بِالْأَمَانِ،
وَلَا تُحِبُّ أَنْ أَقْتَرِبَ مِنْهَا، أَوْ مِنْ عُشِّهَا، أَوْ مِنْ صِغَارِهَا.

حَتَّى جَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْغَرِيبُ، وَوَقَعَ هَذَا الْحَدِثُ الْعَجِيبُ، الَّذِي تَغَيَّرَ بَعْدَهُ

كُلُّ شَيْءٍ!!

اللقاء العجيب

كَانَ يَوْمًا جَمِيلًا مِنْ أَيَّامِ الرَّبِيعِ، فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، النَّسِيمُ بَارِدٌ مُعَطَّرٌ بِرَائِحَةِ
أَزْهَارِ الْبُرْسِيمِ وَالْبُرْتُقَالِ وَأُورَاقِ شَجَرِ الْكَافُورِ، وَالضَّبَابُ يُغَطِّي كُلَّ شَيْءٍ، وَيَلْفُئِي
بِبُؤْدَتِهِ الْمُنْعِشَةَ، أَتَنَفَّسُهُ سَعِيدًا، وَأَنَا أَرَاهُ يَخْرُجُ مِنْ فَمِي مِثْلَ سَحَابَةٍ صَغِيرَةٍ.
كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي يَتَنَفَّسُ، النَّيْلُ أَيْضًا يَتَنَفَّسُ، وَهُوَ الَّذِي



يُخْرِجُ مِنْ صَدْرِهِ الْعَرِيضِ كُلَّ هَذَا الضَّبَابِ، لِكَيْ

يُعْطِي بِهِ الْحُقُولَ وَالشَّجَرَ

وَأَشْرِعَةَ الْمَرَائِبِ

وَالْبُيُوتَ الْبَعِيدَةَ عَلَى

الشَّاطِئِ الْآخَرِ، وَلِكَيْ يَلْفُئِي

بِهِ، كَمَا يَفْعَلُ جَدِّي عِنْدَمَا يَلْفُئِي بَعْبَاءَتِهِ.

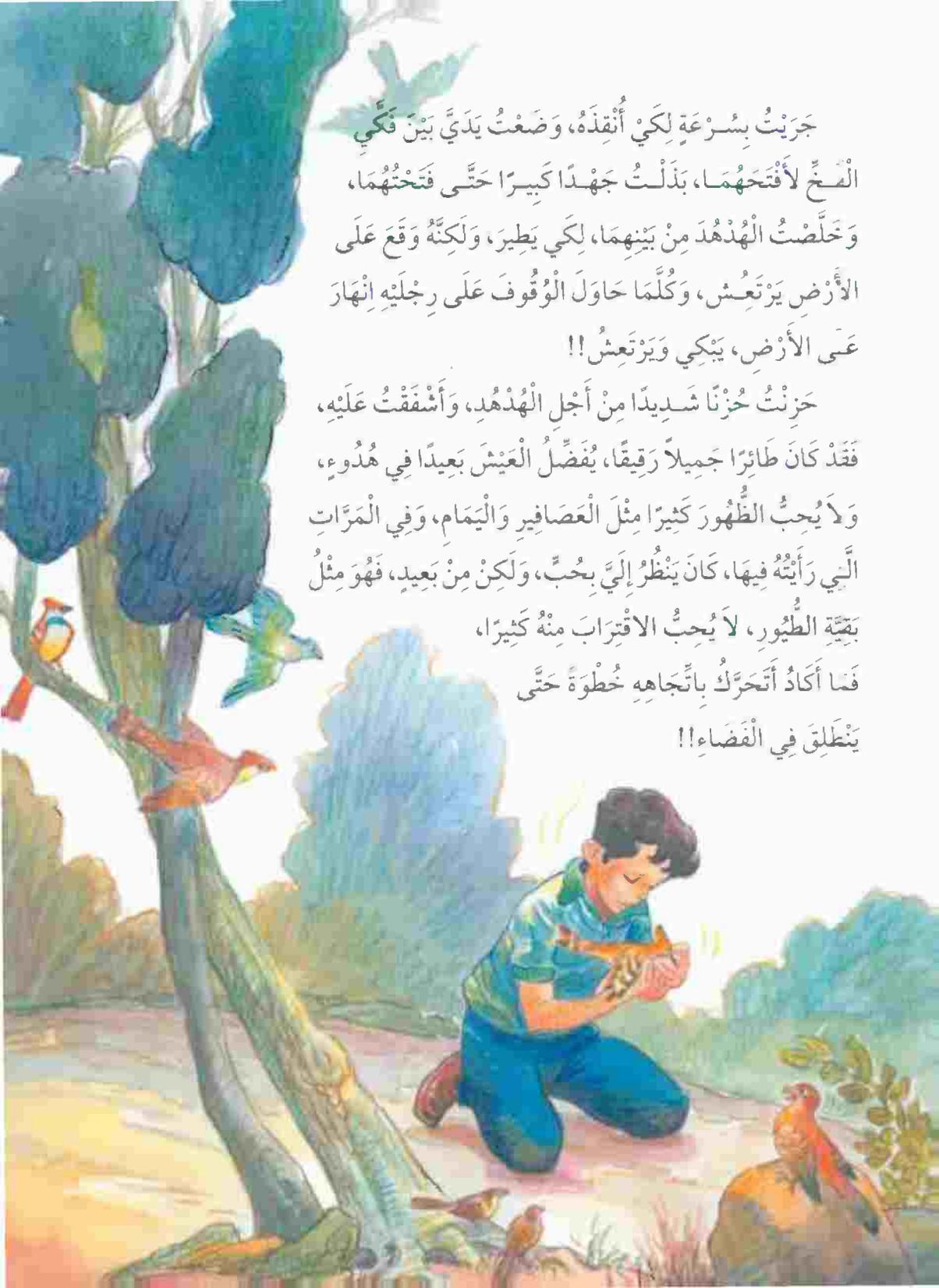
كُنْتُ أَشْعُرُ دَائِمًا أَنَّ النَّيْلَ جَدِّي الْأَكْبَرُ، الَّذِي يُحِبُّنِي، وَيَفْرَحُ بِجُلُوسِي إِلَى
جِوَارِهِ، وَكُنْتُ مُتَاكِّدًا أَنَّهُ لَنْ يُعْرِقَنِي فِي مِيَاهِهِ، كَمَا تَقُولُ لِي أُمِّي، وَهِيَ تُحَذِّرُنِي
مِنَ النَّزُولِ وَالْعَوْمِ فِيهِ مِثْلَ بَقِيَّةِ الْأَوْلَادِ، بَلْ كُنْتُ وَاثِقًا أَنَّنِي إِذَا رَمَيْتُ بِنَفْسِي فِيهِ،
فَسَوْفَ يَحْمِلُنِي عَلَى صَدْرِهِ، كَمَا يَحْمِلُ الْقَارِبَ الصَّغِيرَ ذَا الْمَجْدَافَيْنِ !!

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَجِيبِ كُنْتُ جَالِسًا، كَعَادَتِي، بَيْنَ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ، وَأَنَا هَامِمٌ
فِي أَحْلَامِي مَعَ سِرْبِ الْحَمَامِ الْأَبْيَضِ، الَّذِي يَدُورُ وَيَتَقَلَّبُ فِي الْفَضَاءِ، وَيَحُومُ
بَيْنَ صَفَّتِي النَّيْلِ، كُنْتُ أَحْلُمُ أَنَّنِي أَطِيرُ مَعَهُ، أَفْرِدُ جَنَاحِي، وَأَسْبَحُ فِي الْأَعَالِي،
أَرَى الْأَرْضَ تَحْتِي بِسَاطَا أَخْضَرَ، وَأَرَى بَيْنَنَا صَغِيرًا، يُلْقُهُ الشَّجَرُ، وَفَوْقَ سَطْحِهِ
تَعْرِيشَةُ الْعَنْبِ، وَمِنَ الْأَعَالِي أَدْفُقُ النَّظَرَ، فَأَرَى أُمِّي تَحْتَ التَّعْرِيشَةِ، وَهِيَ تُطْعِمُ
الْكَتَاكَيْتَ !!

وَفَجْأَةً!! سَمِعْتُ صَوْتَ ارْتِطَامِ قَوِيٍّ، أَعْقَبْتُهُ صَرْخَةً مُدَوِّيَّةً، أَخْرَجْتَنِي مِنَ
الْحُلْمِ الْجَمِيلِ، وَأَفْزَعْتَنِي، وَجَعَلْتَنِي أَنْتَفِضُ وَاقِفًا فِي مَكَانِي، وَجَعَلَتِ الْعَصَافِرُ
تَنْطَلِقُ مَدْعُورَةً مِنْ فَوْقِ الْأَغْصَانِ!! تَلَفَّتُ حَوْلِي فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا، وَبَعْدَ لِحَظَاتٍ
مِنَ الْخَوْفِ وَالتَّرْقُبِ، سَمِعْتُ صَوْتًا ضَعِيفًا بَاكِيًا يَسْتَعِيثُ: أَنْقِدُونِي.. أَنْقِدُونِي !
نَظَرْتُ نَاحِيَةَ الصَّوْتِ، وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ: الْهُدْهُدُ وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ
انْطَبَقَ عَلَيْهِ الْفَجْحُ، مِثْلَ أَتْيَابِ ذَنْبِ مُفْتَرِسٍ !!

جَرَيْتُ بِسُرْعَةٍ لِكَيْ أُنْقِذَهُ، وَضَعْتُ يَدَيَّ بَيْنَ فُكَيْ
الْمَخِّ لِأَفْتَحَهُمَا، بَدَلْتُ جَهْدًا كَبِيرًا حَتَّى فَتَحْتُهُمَا،
وَخَلَصْتُ الْهُدْهُدَ مِنْ بَيْنَهُمَا، لِكَيْ يَطِيرَ، وَلَكِنَّهُ وَقَعَ عَلَى
الْأَرْضِ يَزْتَعِشُ، وَكَلَّمَا حَاوَلَ الْوُقُوفَ عَلَى رِجْلَيْهِ انْهَارَ
عَنِ الْأَرْضِ، يَبْكِي وَيَزْتَعِشُ !!

حَزِنْتُ حُزْنًا شَدِيدًا مِنْ أَجْلِ الْهُدْهُدِ، وَأَشْفَقْتُ عَلَيْهِ،
فَقَدْ كَانَ طَائِرًا جَمِيلًا رَقِيقًا، يُفَضِّلُ الْعَيْشَ بَعِيدًا فِي هُدُوءٍ،
وَلَا يُحِبُّ الظُّهُورَ كَثِيرًا مِثْلَ الْعَصَافِيرِ وَالْيَمَامِ، وَفِي الْمَرَّاتِ
الَّتِي رَأَيْتُهُ فِيهَا، كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِحُبٍّ، وَلَكِنْ مِنْ بَعِيدٍ، فَهُوَ مِثْلُ
بَقِيَّةِ الطُّيُورِ، لَا يُحِبُّ الاقْتِرَابَ مِنْهُ كَثِيرًا،
فَمَا أَكَادُ أَنْتَحِرَكَ بِاتِّجَاهِهِ خُطْوَةً حَتَّى
يَنْطَلِقَ فِي الْفَضَاءِ !!



انْحَنَيْتُ عَلَيْهِ، وَحَمَلْتُهُ بِرَفْقٍ بَيْنَ يَدَيَّ، وَأَسْنَدْتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَأَنَا أَشْعُرُ
بِالْإشْفَاقِ وَالْحُزْنَ الشَّدِيدِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنَيْهِ الْبَاكِئَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ
الْمُرْتَعِشِ: «أَرْجُوكَ، لَا تَتْرُكْنِي وَحِيدًا، لَا أُرِيدُ أَنْ أَمُوتَ الْآنَ».

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمْ أَمَّا لِكَ نَفْسِي، فَبَكَيْتُ بِشِدَّةٍ، وَجَلَسْتُ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ،
وَأَنْحَنَيْتُ عَلَيْهِ بِوَجْهِ الَّذِي تَسْأَقُطُ مِنْهُ الدُّمُوعُ، وَقُلْتُ لَهُ: «لَا تَخَفْ، سَأَحْمِلُكَ
مَعِيَ إِلَى بَيْتِي، أَنْتَ طَيِّبٌ، وَأُمِّي تَقُولُ: اللَّهُ يُحِبُّ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارَ»
وَعِنْدَمَا رَفَعْتُ رَأْسِي، لَكِنِّي أَعْتَدَلُ وَأَقُومُ، كَانَتْ كُلُّ الطُّيُورِ تُرْفَرِفُ حَوْلَنَا،
وَتُصَفِّقُ بِأَجْنِحَتَيْهَا!!

أَمَّا الْعُصْفُورَةُ، الَّتِي كَانَتْ تَفْرَعُ مِنِّي وَتَهْرُبُ، فَقَدْ فَعَلَتْ مَا جَعَلَنِي أَبْتَسِمُ،
رَغَمَ الْحُزَنِ وَالْبُكَاءِ، فَقَدْ فُوجِئْتُ بِهَا تَقِفُ عَلَيَّ كَتِفِي، وَظَلَّتْ تَتَأَرَّجُحُ، وَتُوزِنُ
نَفْسَهَا، كَيْ لَا تَقَعَ، وَأَنَا أَمْشِي بِهَا، حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنْ بَابِ الْبَيْتِ. وَقَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ،
زَقَزَقْتُ بِطَرِيقَتِهَا الْعَصَبِيَّةِ، وَطَارَتْ فَحَطَّتْ عَلَيَّ شَبَاكَ غُرْفَتِي، وَأَخَذَتْ تَنْفُرُ
الزُّجَاجَ!!

خَطَوْتُ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ، وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ فَقَطُ، أَدْرَكْتُ غَرَابَةَ الْمَوْقِفِ،
فَأَفْقَتُ مِنْ حُزْنِي الشَّدِيدِ، وَقَدْ تَمَلَّكَنِي دَهْشَةٌ أَشَدُّ: يَا إِلَهِي، الْهُدْهُدُ يُكَلِّمُنِي،
وَأَنَا أَفْهَمُ كَلَامَهُ!!

الْهُدُودُ فِي بَيْتِي

أَشْفَقْتُ أُمَّي عَلَى الْهُدُودِ، وَتَأَثَّرْتُ لِحُزْنِي عَلَيْهِ، وَعِنْدَمَا قُلْتُ لَهَا: إِنَّهُ كَلَّمَنِي
وَطَلَبَ مِنِّي الْمُسَاعَدَةَ، ابْتَسَمَتْ لِي بِحُبٍّ وَحَنَانٍ، وَمَسَحَتْ بِكَفِّهَا عَلَى رَأْسِي، وَقَالَتْ:
«لَا مَانِعَ مِنْ بَقَائِهِ مَعَكَ فِي غُرْفَتِكَ؛ لِتَعْتَنِي بِهِ حَتَّى يُشْفَى، فَهُوَ ضَيْفٌ رَقِيقٌ،
شَيْئٌ مُرْعَجٌ».



وَوَافَقَتْهَا جَدَّتِي، وَكَذَلِكَ أَبِي وَجَدِّي. أَمَّا إِخْوَتِي الْأَكْبَرُ مِنِّي، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا
 الْإِعْتِرَاضَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفُوا عَنِ السُّخْرِيَةِ وَالِدِّعَابَةِ، وَسَمَّوْنِي (أَبُو هَذْهُود)!!
 سَاعَدْتَنِي أُمِّي فِي رِبْطِ جَبِيْرَةَ عَلَى الْجَنَاحِ الْمُصَابِ، وَأَحْضَرْتَ لِي قَفْصًا مِنْ
 أَقْفَاصِ الْكِتَاكِيتِ، وَضَعْتَ بِهِ طَبَقًا صَغِيرًا فِيهِ بَعْضُ الْحُجُوبِ وَقِطْعُ الْخُبْزِ الْمُبَلَّلِ،
 وَطَبَقًا آخَرَ بِهِ مَاءٌ، وَقَالَتْ:

«هَذِهِ غُرْفَةُ صَدِيقِكَ، سَيَنَامُ هُنَا حَتَّى يُشْفَى جَنَاحُهُ وَيَطِيرَ، أَغْلِقِ عَلَيْهِ الْبَابَ
 جَيِّدًا، وَلَا تَغْفَلْ عَنْهُ وَهُوَ خَارِجُ الْقَفْصِ، وَإِلَّا أَكَلْتَهُ الْعِرْسَةَ»!!
 بَعْدَ وَقْتٍ، شَعَرَ الْهُدْهُدُ بِالْأَمَانِ فِي الْقَفْصِ، وَتَمَالَكَ نَفْسُهُ بَعْضَ الشَّيْءِ،
 وَأَخَذَ تَنْفُسُهُ يَهْدًا، وَتَوَقَّفَ جِسْمُهُ عَنِ الْارْتِعَاشِ، فَاعْتَدَلَ قَلِيلًا، وَمَدَّ مِنْقَارَهُ فِي
 طَبَقِ الْمَاءِ، وَشَرِبَ قَلِيلًا مِنْهُ، وَعَادَ لِيَجْلِسَ سَاكِنًا حَزِينًا، وَجَلَسْتُ أَنَا أَيْضًا أَمَامَهُ
 أُرَاقِبُهُ فِي سُكُونٍ وَحُزْنٍ. فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِابْتِسَامَةٍ شَاحِبَةٍ، وَبَادَرَنِي بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ،
 وَقَالَ: لَا تَحْزَنْ يَا صَدِيقِي؛ فَهَذَا مَا كُنْتُ أَتَمَنَّاؤُهُ.

لَمْ أَفْهَمْ مَا يَقْصِدُهُ فَسَأَلْتُهُ مُنْدهِشًا: كُنْتُ تَتَمَنَّى أَنْ تَقَعَ فِي الْفَحِّ!!؟
 فَاتَّسَعَتْ ابْتِسَامَتُهُ قَلِيلًا، وَقَالَ: لَا، لَيْسَ هَذَا قَصْدِي، بَلْ قَصْدِي أَنْ اللَّهُ قَدْ
 اسْتَجَابَ لِذِعَابِي.

قُلْتُ: وَمَاذَا كَانَ دُعَاؤُكَ!؟

أَغْمَضَ الْهُدْهُدُ عَيْنَيْهِ، وَتَنَهَّدَ بِعُمُقٍ وَقَالَ:



مُنذُ نَزَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَأَنَا أُصَلِّي،
وَأَدْعُو اللَّهَ لَيْلَ نَهَارَ، أَنْ يَجْعَلَ لِي صَدِيقًا
مِنَ الْبَشَرِ أَكْشِفُ لَهُ أَسْرَارِي، وَيَحْمِلُ
عَنِّي أَمَانَتِي، وَيَعْوِضُنِي عَن وِلْدِي!!
قُلْتُ مُنْذِهِشَا: آيَةُ أَسْرَارِ!! وَآيَةُ
أَمَانَةٍ!! وَمَاذَا حَدَّثَ لِرِوَالِدِكَ؟!

قَالَ: هَذِهِ حِكَايَةُ طَوِيلَةٌ، لَا
تَتَعَجَّلْ، سَأُحْكِيهَا لَكَ عِنْدَمَا أُسْتَرِدُّ
بَعْضَ عَافِيَتِي، وَلَكِنِّي الْآنَ لَا أَقْوَى
عَلَى الْكَلَامِ، وَأَشْعُرُ أَنَّ الْمَوْتَ
يَقْتَرِبُ مِنِّي، لَا بَدَّ أَنْ أَنَامَ الْآنَ، لَسْتُ أَدْرِي، سَأَنَامُ أَمْ سَأَمُوتُ، أَنْتَ طِفْلٌ طَيِّبٌ
صَاهِرٌ، أَدْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يُطِيلَ فِي عُمُرِي، وَلَوْ لِيَوْمَيْنِ، حَتَّى أَنْقُلَ لَكَ مَا عِنْدِي،
وَأَحْمَلَكَ أَمَانَتِي وَأَمَانَةَ أَجْدَادِي!!

قَالَ الْهُدْهُدُ ذَلِكَ ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَكَمَسَ رَقَبَتَهُ، فَغَارَتْ رَأْسُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ،
وَأَنْهَارَ عَلَى الْأَرْضِ بِلا حَرَكَ، وَأَنَا كَالْمَجْنُونِ أَنْظَرُ إِلَيْهِ، لَا أَدْرِي إِنْ كَانَ قَدْ نَامَ،
أَمْ أَنَّهُ مَاتَ وَرَاحَ إِلَى الْأَبَدِ!!

وَبَقِيَتْ مَذْهُولًا، وَالذُّمُوعُ تَجْرِي عَلَى وَجْهِهِ، لَمْ أَعْرِفْ كَمْ مَضَى مِنَ الْوَقْتِ،
 وَلَمْ أَفْقُ مِنْ ذُهُولِي إِلَّا عَلَى صَوْتِ نَقْرِ شَدِيدٍ عَلَى زُجَاجِ شُبَّاكِي!! الْتَفْتُ فَإِنَّا
 بِالْعُصْفُورَةِ خَلْفَ الزُّجَاجِ، تَضْرِبُ بِمِقَارِهَا، وَخَلْفَهَا فِي الْبَعِيدِ، شَجَرَةُ التُّوتِ
 مُنْحَنِيَّةٌ عَلَى النَّيْلِ، وَخَلْفَهَا فِي الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ، شَمْسُ الْغُرُوبِ حَمْرَاءَ تَقْتَرِبُ مِنَ
 الْأَرْضِ.

فَتَحْتُ الشُّبَّاكَ فَاِنْطَلَقَتِ الْعُصْفُورَةُ إِلَى الْقَفْصِ، وَمَدَّتْ رَأْسَهَا تَدَقُّ نَظْرًا
 فِي الْهُدْهُدِ الْغَائِبِ عَنِ الْوُجُودِ، ثُمَّ طَارَتْ فَحَطَّتْ عَلَى كَنَفِي، وَفِي هُدُوءٍ، أَخَذَتْ
 تَمُدُّ مِقَارَهَا إِلَيَّ وَجَنَّتِي، وَتَشْرَبُ مِنْ قَطْرَاتِ الذُّمُوعِ!!

أَوَّلُ حُلْمٍ

لَسْتُ أَدْرِي، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، مَتَى نِمْتُ، وَلَا كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ وَحَلُمْتُ .
 وَرَأَيْتُ نَفْسِي فِي الْحُلْمِ طَائِرًا أَسْبَحُ فِي الْفِضَاءِ، وَبِجَانِبِي الْهُدْهُدُ يُرْفَرُ
 بِجَنَاحَيْهِ، عَلَى رَأْسِهِ التَّاجُ، وَعَلَى كَنَفَيْهِ عِبَاءٌ بَيْضَاءٌ تَهْفَهُفُ مَعَ النَّسِيمِ، كَانَ يُشِبُّهُ
 جَدِّي وَهُوَ خَارِجٌ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، يُتَمَتِّمُ وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَقَطْرَاتُ مَاءِ الْوَضُوءِ عَلَى
 وَجْهِهِ تَلْمَعُ تَحْتَ نُورِ الْقَمَرِ.

لَمْ يَكُنِ الْهُدْهُدُ يَفْتَحُ فَمَهُ وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ، وَرَعْمَ ذَلِكَ كُنْتُ أَفْهَمُ كُلَّ مَا يَقُولُ،
 لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ، وَلَكِنَّ هَذَا مَا حَدَّثْتُ!!

قَالَ لِي: انْظُرْ.

فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِنَا نَطِيرُ فَوْقَ مُدُنٍ عَجِيبَةٍ، ذَاتِ أَعْمِدَةٍ عَالِيَةٍ، وَقِلَاعٍ مَهِيْبَةٍ،
وَأُصُورٍ شَاهِقَةٍ ذَاتِ قِبَابٍ وَأَبْرَاجٍ.
ثُمَّ قَالَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ: انْظُرْ.

فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِنَارٍ عَظِيمَةٍ تَلْتَهُمْ كُلُّ مَا رَأَيْتُ، وَتَشُبُّ أَلْسِنَتُهَا فِي الْفَضَاءِ،
فَرَفَرَفَتْ بِكُلِّ قُوْتِي لِأَرْتَفِعَ فِي السَّمَاءِ، وَظَلَلْتُ مَدْعُورًا أَرْفِرُ وَأَرْفِرُ، وَصَوْتُ
الْهُدْهِدِ يَأْتِينِي دُونَ كَلَامٍ، وَهُوَ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ:

«اللَّهُ أَحَدٌ... هَذَا مَا زَرَعَ الْإِنْسَانُ، وَهَذَا مَا حَصَدَ»

فَلَحِقْتُ بِهِ وَأَنَا أَلْهْتُ، وَقُلْتُ: لَا أَفْهَمُ !!

قَالَ: تَعَلَّمْ وَسَتَفْهَمُ.

وَأَخَذَنِي تَحْتَ جَنَاحِهِ فَهَبَطْنَا مِنْ

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِذَا بِنَا فِي صَحْرَاءَ

جَرْدَاءَ، لَا شَيْءَ فِيهَا إِلَّا رِمَالٌ



صَفْرَاءَ، وَلَا شَيْءَ عَلَى الرَّمَالِ إِلَّا صُنْدُوقٌ كَبِيرٌ، مِثْلُ غُرْفَةٍ مِنْ زُجَاجٍ، تَضْرِبُهَا
السَّمْسُ الحَارِقَةُ بِالسِّنْتِهَا النَّارِيَّةِ، وَلَيْسَ فِيهَا نُقْبٌ يَدْخُلُ مِنْهُ الهَوَاءُ.
قَالَ لِلْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ: أَنْظُرْ.

فَنَظَرْتُ، فَإِذَا بِدَاخِلِ الصُّنْدُوقِ وَلَدٌ أَعْرَفُهُ، مِنْ جِيرَانِنَا، وَاحِدٌ مِنَ الأَوْلَادِ
الأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يَكْسِرُونَ جِرَارَ السَّبِيلِ، وَيَنْزِعُونَ وَرْدَ الحَدَائِقِ، وَيَنْصُبُونَ الفِخَاحَ
لِلطُّيُورِ، وَقَدْ نَبَتَ لَهُ ذَيْلٌ، وَصَارَتْ قَدَمَاهُ حَافِرَيْنِ، وَصَارَ فَمُهُ مَنقَارًا طَوِيلًا مُدْبِئًا
مِثْلَ مَنقَارِ الهُدْهِدِ، فَالْتَفَتْتُ إِلَى الهُدْهِدِ مُنْدهِشًا، فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَنقَارًا، بَلْ وَجَدْتُ لَهُ
وَجْهًا جَمِيلًا، يُشْبِهُ وَجْهَ جَدِّي، بِشَفَتَيْنِ مُبْتَسِمَتَيْنِ وَلِحْيَةٍ بَيْضَاءَ!!

كَانَ الوَلَدُ الشَّقِيَّ مَرْبُوطَ اليَدَيْنِ، يَتَقَافَزُ عَلَى حَافِرِيهِ، يَضْرُخُ وَلَا نَسْمَعُهُ،
وَيَضْرِبُ الرُّجَاجَ بِمَنقَارِهِ، وَيَظَلُّ يَضْرِبُ وَيَضْرِبُ، حَتَّى يَنْكَسِرَ المِنقَارُ، فَيَنعِ
مُنْهَارًا عَلَى الأَرْضِ، فَيَنْبُتُ لَهُ مَنقَارٌ جَدِيدٌ، فَيَعُودُ لِيَضْرِبَ الرُّجَاجَ مِنْ جَدِيدٍ،
وَهَكَذَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ، يَنْكَسِرُ المِنقَارُ، ثُمَّ يَنْبُتُ مِنْ جَدِيدٍ، فَيَعُودُ لِيَضْرِبَ وَيَضْرِبُ
وَيَضْرِبُ.

وَصَحَوْتُ مِنَ الحُلْمِ ..

صَحَوْتُ عَلَى صَوْتِ المِنقَارِ يَضْرِبُ الرُّجَاجَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَنقَارَ الوَلَدِ
الشَّقِيَّ، بَلْ كَانَ مَنقَارَ العُصْفُورَةِ عَلَى زُجَاجِ شُبَاكِي!!

أَوَّلُ صَبَاحٍ

فَتَحْتُ عَيْنِي فِي لَهْفَةٍ وَقَلِقٍ عَلَى الْهُدُودِ، فَإِذَا بِهِ جَالِسٌ فِي قَفْصِهِ يَبْتَسِمُ لِي فِي هُدُوءٍ، رَغْمَ مَا يَبْدُو عَلَيْهِ مِنَ التَّعَبِ الشَّدِيدِ، وَيَقُولُ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ:
أَسْعَدَ اللَّهُ صَبَاحَكَ يَا صَدِيقِي، أَنَا لَا زِلْتُ حَيًّا لَمْ أَمُتْ، لَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ
لِدُعَائِكَ.

نَهَضْتُ مِنْ سَرِيرِي، وَاقْتَرَبْتُ مِنَ الْهُدُودِ، وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ أَفْطَرْتَ؟
فَابْتَسَمَ وَقَالَ: لَا، لَمْ أَفْطِرْ؛ فَهَذَا الطَّعَامُ لَا يَنَاسِبُنِي، فَأَنَا لَا أَكُلُ الْحُبُوبَ وَلَا الْخُبْزَ.
قُلْتُ مُنْدَهَشًا: مَاذَا تَأْكُلُ إِذَا؟
قَالَ: أَكُلُ دُودَ الْأَرْضِ.
قُلْتُ: وَكَيْفَ أَحْضَرْتَهُ إِلَيْكَ؟!



قَالَ: لَا تُحْضِرُهُ إِلَيَّ، بَلْ خُذْنِي إِلَيْهِ، إِنَّهُ فِي الْأَرْضِ الرُّطْبَةِ، عِنْدَ شَاطِئِ النَّيْلِ،
تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةِ الثُّوتِ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَتَجْلِسُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ، تَحْلُمُ بِالطَّيْرَانِ.
انْدَهَشْتُ! وَسَأَلْتُهُ: كَيْفَ عَرَفْتَ؟

فَابْتَسَمَ، وَلَمْ يُجِبْنِي، وَقَالَ: هَيَّا يَا صَدِيقِي؛ فَأَنَا جَائِعٌ.

مَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي، فَأَخْرَجْتُهُ مِنَ الْقَفْصِ بِرَفْقٍ، وَحَمَلْتُهُ عَلَى صَدْرِي، كَمَا حَمَلْتُهُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَحْتَ شَجَرَةِ الثُّوتِ أَنْزَلْتُهُ عَلَى الْأَرْضِ الرُّطْبَةِ، حَاوَلَ الْوُقُوفَ، وَلَحِنَهُ
كَانَ ضَعِيفًا يَتَرَنَّحُ، يَضْرِبُ بِمِنْقَارِهِ فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَنْغْرِسُ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يَخْرُجُ
بِشَيْءٍ!!

فَكَّرْتُ بِسُرْعَةٍ، وَعَلَى الْفُورِ أَحْضَرْتُ غُضْنَا يَا بَسًا، وَأَخَذْتُ أَحْفَرُ بِهِ الْأَرْضَ،
وَأَقْلَبُ التُّرْبَةَ أَمَامَهُ، وَهُوَ يَنْقُرُ فِيهَا، وَيَأْكُلُ، حَتَّى شَبِعَ، فَحَمَلْتُهُ عَلَى كَفِّي، وَقَرَّتُهُ
مِنْ مَاءِ النَّيْلِ فَشَرِبَ، وَرَفَعْتُهُ فَأَجْلَسْتُهُ عَلَى غُضَنِ الشَّجَرَةِ الْمَائِلِ، الَّذِي يَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِ الْمَاءُ، وَجَلَسْتُ إِلَى جِوَارِهِ وَالْعُضْفُورَةُ فَوْقَنَا أَمَامَ عَشَّهَا، تُزْفِرُ وَتُصَفِّقُ

الْوَصِيَّةُ وَالْعَهْدُ

كُنْتُ فِي شَوْقٍ شَدِيدٍ لِسَمَاعِ حِكَايَةِ الْهُدُودِ، وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ
الانتظارَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَادَرْتُهُ بِالسُّؤَالِ: مَا حِكَايَتُكَ؟ وَلِمَاذَا تَحْتَاجُ إِلَيَّ صَلْبِي
مِنَ الْبَشَرِ وَأَنْتَ طَائِرٌ، لَكَ جَنَاحَانِ، وَتَسْتَطِيعُ الطَّيْرَانِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ؟!

التفت إليّ الّهذهد، بابتسامته الشاحبة وصوته الضعيف، وقال: يا صديقي الحبيب، أنتم البشر، أبناء وبنات آدم عليه السلام، أنعم الله عليكم بنعم كثيرة، ومن أعظم هذه النعم أنكم تقرؤون وتكتبون، فتحفظون تجاربكم وخبراتكم، ليستفيد منها من يأتي بعدكم، ويضيف إليها، فيزداد علمكم، وتنمو معارفكم. أما أنا فلا أقرأ ولا أكتب، وكل ما أعرفه، وما تعلمته من أبي، وما تعلمه أبي من جدي، وما تعلمه جدي من جد جدي، حتى جدنا الأكبر، كل ذلك تعلمته شفاهة، وصار أمانة في عُنُقِي، أحفظه في عقلي، وكان يجب أن أنقله إلى ولدي، ولكن أين ولدي !!؟



قَالَ الْهُدُودُ ذَلِكَ، وَتَحْشَرَجَ صَوْتُهُ، فَمَالَ بِرَأْسِهِ، وَأَخَذَ يَبْكِي. شَعَرْتُ
بِالْحُزْنِ وَالْإِشْفَاقِ عَلَيْهِ، وَلَمْ أَجِدْ كَلَامًا أَقُولُهُ، فَأَخَذْتُ أَمْسَحُ عَلَى رَأْسِهِ بِأَطْرَافِ
أَصَابِعِي، وَأُرَبِّتُ عَلَى ظَهْرِهِ بِرَفْقٍ، حَتَّى هَدَأَ بَعْضَ الشَّيْءِ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ، وَقَالَ
بِصَوْتٍ جَادٍّ حَزِينٍ:

إِذَا لَمْ تَحْمِلْ عَنِّي هَذِهِ الْأَمَانَةَ يَا وَلَدِي، فَسَوْفَ يَضِيعُ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ. هَلْ تَقْبَلُ
أَنْ تَحْمِلَهَا عَنِّي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ؟ وَهَلْ تَعَاهِدُنِي أَمَامَ اللَّهِ أَنْ تُؤَدِّيَهَا؟
شَعَرْتُ بِالْخَوْفِ وَالْإِرْتِبَاكِ الشَّدِيدِ، وَسَأَلْتُهُ: مَا تِلْكَ الْأَمَانَةُ؟ وَكَيْفَ أُؤَدِّيهَا؟
فَقَالَ: أَنْ تَكْتُبَ كُلَّ مَا أَحْكِيهِ لَكَ، لِكَيْ يَفْرَأَهُ كُلُّ النَّاسِ، وَيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ
الْحِكْمَةَ!!

قُلْتُ: وَمَا الْحِكْمَةُ؟

قَالَ: لَا تَتَعَجَّلْ، تَعَلَّمْ وَسَتَفْهَمُ!!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَذَكَّرْتُ الْحُلْمَ، وَتَذَكَّرْتُ أَنَّهُ فِي الْحُلْمِ كَانَ يَقُولُ لِي ذَلِكَ
، وَأَنَّهُ كَانَ يُشْبِهُ جَدِّي! تَرَى هَلْ مَا زِلْتُ أَحْلُمُ؟! شَعَرْتُ بِرَهْبَةٍ، وَسَرْتُ فَشَعْرِيَّةً
فِي بَدَنِي، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَقَدْ مَلَأَنِي الشُّعُورُ بِأَنَّي سَأَرَاهُ الْآنَ بِعِبَاءَتِهِ الْبَيْضَاءِ
الْهَفْهَفَةِ، وَشَفْتِيهِ الْمُبْتَسِمَتَيْنِ، وَلِحْيَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُهُ الْهُدُودَ الضَّعِيفَ
نَفْسُهُ، بِمِنْقَارِهِ الطَّوِيلِ الْمُدَبَّبِ، وَالضَّمَادَةَ عَلَى جَنَاحِهِ الْمُصَابِ، لَا زَالَ جَالِسًا
أَمَامِي عَلَى غُصْنِ شَجَرَةِ الثُّوتِ، حَزِينًا يَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ!!

رَفَعَ رَأْسَهُ، وَنَظَرَ إِلَى طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تُعَاهِدُنِي؟
 اسْتَجَمَعْتُ شَجَاعَتِي، وَغَلَبَنِي حُبُّ الاسْتِطْلَاعِ، وَرَغْبَتِي الشَّدِيدَةُ فِي سَمَاعِ
 حِكَايَتِهِ، فَقُلْتُ ذُونَ تَفْكِيرٍ: أَعَاهِدُكَ، يَا جَدِّي!!
 لَا أَعْرِفُ لِمَاذَا قُلْتُ لَهُ يَا جَدِّي، وَلَكِنَّهَا أَسْعَدَتُهُ، فَأَبْتَسَمَ لِي بِحُبٍّ، وَقَالَ:
 وَنَا، مِنَ الْآنِ، سَأَسْمِيكَ (الْأَمِينَ)

قُلْتُ مُنْذِهِشَا: الْأَمِينُ؟! وَلَكِنَّ اسْمِي (أَحْمَدُ)
 فَالْتَفَتَ نَاطِرًا إِلَى الْأَفْقِ الْبَعِيدِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ أَحْمَدًا، وَاجْعَلْهُ الْأَمِينَ.
 ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: سَأَبْدَأُ مَعَكَ كَمَا بَدَأَ
 مَعِي أَبِي، وَكَمَا بَدَأَ كُلُّ هَذِهِ مِنْ أَجْدَادِي مَعَ
 ابْنِهِ وَهُوَ يُوصِيهِ، عِنْدَمَا شَعَرَ بِاقْتِرَابِ أَجَلِهِ!!



الجَدُّ الْأَوَّلُ الهُدْهُدُ الْحَكِيمُ

كَانَ قَلْبِي يَدُقُّ بِقُوَّةٍ، مِنْ شِدَّةِ شَوْقِي وَلَهْفَتِي عَلَى سَمَاعِ الْهُدْهُدِ، وَهُوَ يَغْتَلِبُ
فِي جِلْسَتِهِ، وَبِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ الْهَادِي، يَقُولُ:
تَبْدَأُ حِكَايَتَنَا يَا وَلَدِي، بِجَدَّنَا الْأَوَّلِ (الْهُدْهُدِ الْحَكِيمِ)، الَّذِي كَانَ جُنْدِيًّا مِنْ
جُنُودِ نَبِيِّ اللَّهِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَكَمَا تَعْرِفُ يَا وَلَدِي، فَقَدْ كَانَ سَيِّدَنَا سُلَيْمَانُ مَلِكًا عَلَى الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ
وَالْحَشْرَاتِ، كَمَا كَانَ مَلِكًا عَلَى الْجِبَالِ وَالرِّيَّاحِ، وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ
وَالْعَفَارِيَّتِ، وَكَانَ لَهُ جُيُوشٌ مِنْ كُلِّ هَوْلَاءِ، وَكَانَتْ
هَذِهِ الْجُيُوشُ تَقِفُ صُفُوفًا مُنْتَظِمَةً فِي مَوَاعِدَ
مُحَدَّدَةٍ، مِثْلَ كُلِّ الْجُيُوشِ، لِكَيْ يَمُرَّ
عَلَيْهَا قَائِدُهَا الْعَظِيمُ، سَيِّدَنَا
سُلَيْمَانُ، يَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهَا،
وَيُلْقِي عَلَيْهَا أَوْامِرَهُ.

وَكَانَ جَدَّنَا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ جُنْدِيًّا



مُطِيعًا مُلتَزِمًا مِنْ جُنُودِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ فِي جَيْشِ الطُّيُورِ، إِلَّا أَنَّ حُبَّهُ لِلِاسْتِطْلَاعِ
وَلَمَعْرِفَةِ أَوْقَعَهُ فِي وَرْطَةٍ هَائِلَةٍ، كَادَتْ تُودِي بِحَيَاتِهِ!!

وَالَّذِي حَدَّثَ أَنَّ سَيِّدَنَا سُلَيْمَانَ كَانَ يَتَفَقَّدُ جَيْشَ الطُّيُورِ، وَالْكُلَّ وَاقِفٌ ثَابِتٌ
مَسْدُودٌ، لَا يَهْتَرُ أَقْلٌ اهْتِرَازَةً، وَلَا تَطْرَفُ عَيْنُهُ، مِنْ سِدَّةِ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ، مِنْ قَائِدِهِ
الْمُهَيْبِ الْحَازِمِ، الَّذِي يُعَذِّبُ أَيَّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ عَلَى أَقْلٍ إِهْمَالٍ
أَوْ تَهَاوُنٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، فَمَا بِالْكَ بِمَنْ كَانَ غَائِبًا عَنِ الْجَيْشِ !!؟
وَفِي هَذَا الْيَوْمِ، كَانَ جَدُّنَا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ غَائِبًا!!

لَا حَظَّ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانَ غِيَابَ الْهُدْهُدِ، فَعَضِبَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا سَأَلَ عَنْ سَبَبِ غِيَابِهِ،
لَمْ يَأْتِهِ جَوَابٌ مِنْ أَحَدٍ، فَازْدَادَ غَضَبُهُ، وَأَعْلَنَ قَرَارَهُ الرَّهِيْبَ بِأَنَّهُ سَيُعَذِّبُ الْهُدْهُدَ
عَذَابًا شَدِيدًا، بَلْ إِنَّهُ سَيَذْبَحُهُ إِذَا لَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ بِحُجَّةٍ قَوِيَّةٍ، وَعُذْرٍ قَهْرِيٍّ يُبْرِئُ هَذَا
الْعِيَابَ !!

أَيْنَ الْهُدْهُدُ؟! لِمَاذَا غَابَ وَهُوَ الْجُنْدِيُّ الْمُلْتَزِمُ الْمُطِيعُ؟! كَيْفَ يَغِيْبُ
وَيُعْرِضُ نَفْسَهُ لِهَذَا الْمَصِيرِ الرَّهِيْبِ، وَهُوَ الذَّكِيُّ الْحَكِيمُ!!؟
هَذَا مَا ظَلَّتِ الطُّيُورُ تُرَدِّدُهُ طَوَالَ اللَّيْلِ، وَهِيَ خَائِفَةٌ قَلِقَةٌ عَلَى الْهُدْهُدِ، دُونَ
أَنْ تَجِدَ إِجَابَةً!!

فَهِيَ، فِعْلًا، لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا!!

قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ بِقَلِيلٍ، وَصَلَ الْهُدُودُ إِلَى مَدِينَةِ سُلَيْمَانَ، لِيَجِدَ مَا كَانَ
يَتَقَعُهُ؛ الدُّنْيَا مَقْلُوبَةً رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ، وَكُلُّ زُمَلَائِهِ الْجُنُودِ مِنْ كُلِّ الْأَجْنَاسِ فِي
انْظَارِهِ، وَهُمْ فِي شِدَّةِ الْقَلْقِ وَالْخَوْفِ عَلَيْهِ، تَحَلَّقُوا حَوْلَهُ، وَحَاصَرُوهُ بِالْأَسْئَلَةِ:
كَيْفَ...؟ مَتَى...؟ أَيْنَ...؟ لِمَاذَا...؟ مَنْ...؟

وَلَكِنَّهُ ظَلَّ صَامِتًا، لَا يُجِيبُ عَنْ أَيِّ سُؤَالٍ. وَفِي النِّهَايَةِ، شَكَرَهُمْ جَمِيعًا
عَنِ اهْتِمَامِهِمْ بِهِ، وَاسْتَأْذَنَهُمْ لِكَيْ يَسْتَرِيحَ، وَمَضَى، وَتَرَكَهُمْ فِي قِمَّةِ الدَّهْشَةِ
وَالذُّهُولِ!!

ابْتَعَدَ الْهُدُودُ، وَجَلَسَ وَحِيدًا، وَرَغَمَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالتَّعَبِ لَمْ يُفَكِّرْ فِي
الطَّعَامِ أَوْ النَّوْمِ، وَاکْتَفَى بِشُرْبَةِ مَاءٍ، فَقَدْ كَانَ ذَاهِلًا عَنِ الدُّنْيَا، خَائِفًا مَرْعُوبًا، بَعْدَ
أَنْ أْبْلَغُوهُ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ، إِنَّهَا الْمَوْتُ أَوْ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ، إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ إِقْتِنَاعَ
الْمَلِكِ الْقَائِدِ بِجِدِّيَةِ الْمَهْمَةِ الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا، وَغَابَ مِنْ أَجْلِهَا!!

مَحَاكِمَةُ الْهُدُودِ

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لَمْ يُغْمِضِ الْهُدُودُ عَيْنَيْهِ لِحِظَةً وَاحِدَةً، وَرَغَمَ خَوْفِهِ الشَّدِيدِ،
لَمْ يَسْتَسْلِمِ لِلْيَأْسِ وَالْبُكَاءِ طَوِيلًا، بَلْ جَلَسَ يُفَكِّرُ فِيمَا سَيَقُولُهُ لِلْمَلِكِ، وَيُرْتَّبُ
كَلِمَاتَهُ لِكَيْ يَكُونَ مُقْنِعًا مُؤَثِّرًا، وَكَلَّمَ غَلْبَهُ الْخَوْفُ وَالْبُكَاءُ، قَامَ وَصَلَّى، وَتَوَجَّهَ
إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ، حَتَّى أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وَحَانَ مَوْعِدُ مَثْوَلِهِ أَمَامَ الْمَلِكِ.

كَانَ سَيِّدُنَا سَلِيمَانُ جَالِسًا عَلَى عَرْشِهِ، عَظِيمًا مَهِيًّا، وَحَوْلَهُ وَزَرَائُهُ وَجُنُودُهُ
مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَنَوْعٍ، وَالْكُلُّ صَامِتُونَ سَاكِنُونَ فِي أَمَاكِنِهِمْ، حَتَّى الرِّيَّاحُ وَالْحَشْرَاتُ
وَأَحْجَارُ الْجَبَلِ، الْكُلُّ فِي قَمَّةِ الرَّهْبَةِ وَالْقَلْقِ، يَتَرَقَّبُونَ مَا سَتُسْفِرُ عَنْهُ مُحَاكِمَةٌ
الْهُدْهُدِ، خَائِفِينَ مِنَ الْمَصِيرِ الْأَلِيمِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ!!

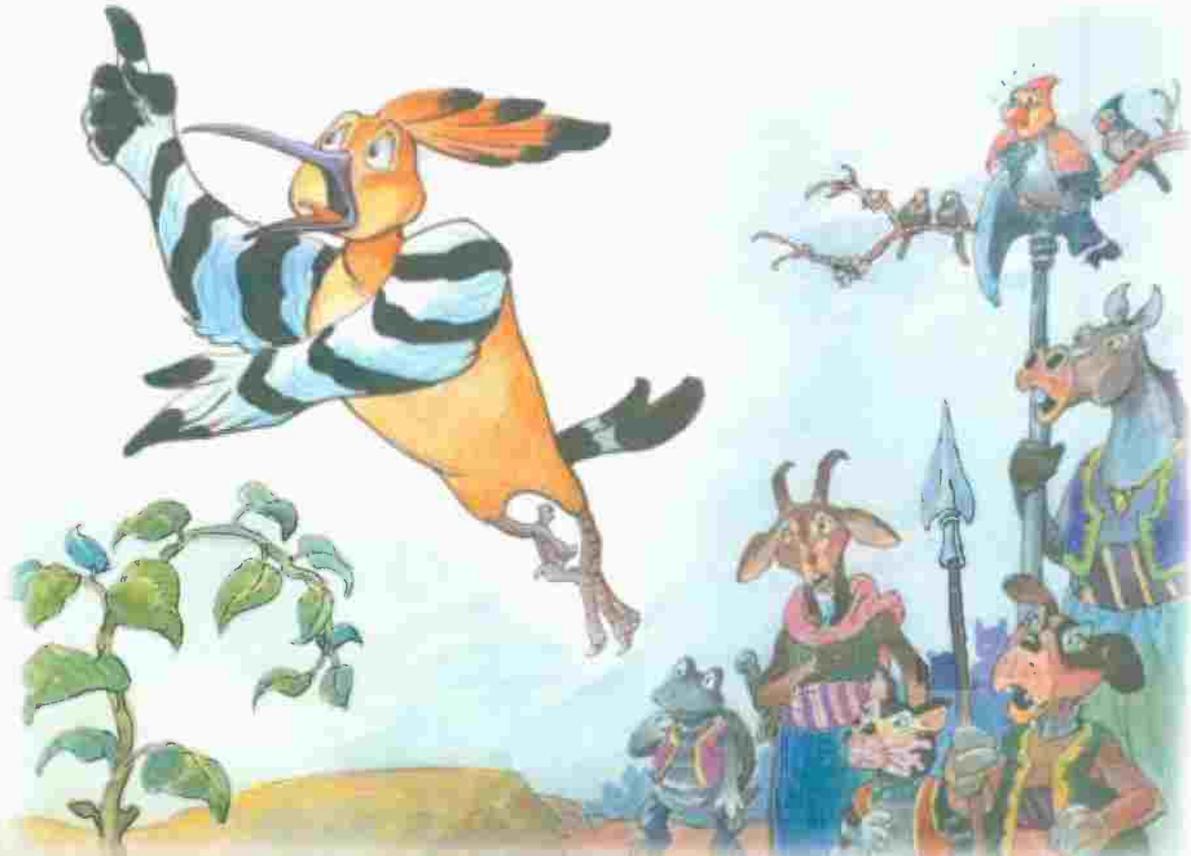
وَإِذَا بِالْهُدْهُدِ يَلُوحُ فِي السَّمَاءِ عَالِيًا، يَدُورُ دَوْرَتَيْنِ فِي الْفِضَاءِ، ثُمَّ يَهْبِطُ
سَرِيعًا مِثْلَ السَّهْمِ، لِيَحْطَّ عَلَى الْأَرْضِ فِي رَشَاقَةٍ، يَقِفُ ثَابِتًا لِحِظَّةٍ، مَشْدُودَ
الْقَامَةِ، مَرْفُوعَ الْهَامَةِ، مُعْتَدًّا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَمُرُّ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ، مُتَقَدِّمًا فِي اتِّجَاهِ
الْمَلِكِ، وَائْتِقًا، ثَابِتَ الْخُطُوبَاتِ، لِيَقِفَ أَمَامَهُ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ، وَيُؤَدِّي لَهُ
التَّحِيَّةَ الْوَاجِبَةَ، وَيُخَاطِبُهُ بِالثِّقَةِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا الْجُنْدِيُّ السَّرِيفُ الشُّجَاعُ، قَائِلًا:
« سَلَامٌ لِلَّهِ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ مَوْلَايَ الْمَلِكِ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ غِيَابِي عَنِ الْجَيْشِ جَرِيئَةٌ
أَسْحَقُ عَلَيْهَا عِقُوبَةَ الْعَذَابِ وَالْمَوْتِ، وَلَكِنِّي مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَّا تَلْبِيَّةً لِنِدَاءِ الْوَاجِبِ،
الَّذِي أَعْلَمُ أَنَّهُ يُرْضِي مَوْلَايَ، فَقَدْ

جِئْتُكَ مِنْ هُنَاكَ بِأَخْبَارٍ لَاعِمَةٍ
لَكَ بِهَا!!



فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ تَعَالَتْ هَمَسَاتُ كُلِّ الْحَاضِرِينَ دَهْشَةً وَتَعَجُّبًا مِنْ كَلَامِ
الْهُدْهُدِ، وَكَثُرَتْ التَّعْلِيقَاتُ:

« إِنَّهُ مُتَهَوِّرٌ... إِنَّهُ مَجْنُونٌ... لَقَدْ تَجَاوَزَ حَدَّهُ... كَيْفَ يَدَّعِي أَنَّهُ يَعْرِفُ شَيْئًا لَا
يَعْرِفُهُ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، مَلِكِ الْإِنْسِ وَالْجَانِّ؟!... لَقَدْ ضَيَّعَ نَفْسَهُ... يَا لَهُ مِنْ أَحْمَقٍ
مَسْكِينٍ... لَنْ يَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ أَبَدًا... سَيَقْتُلُهُ الْمَلِكُ لَا مَحَالَةَ!!»
وَمَا هِيَ إِلَّا التَّفَاتَةُ مِنَ الْمَلِكِ حَتَّى صَمَتَ الْجَمِيعُ، وَعَادَ الْهُدُوءُ يَسُودُ
الْمَكَانَ، وَعَادَ الْهُدْهُدُ يَقُولُ:



لَقَدْ سَمِعْتُ أَخْبَارًا غَرِيبَةً، تَتَنَاقَلُهَا الطُّيُورُ الْمُهَاجِرَةُ، عَنْ مَمْلَكَةٍ فِي الْبَيْمَنِ،
 جَنُوبِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، تُدْعَى مَمْلَكَةً «سَبَأً»، عَلَيْهَا مَلِكَةٌ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَرِأْسُ
 لَا حُدُودَ لَهُ، تُدْعَى «بَلْقِيسَ»، وَمَا سَمِعْتُهُ كَانَ أُمُورًا خَطِيرَةً، لَا تَحْتَمِلُ التَّاجِسَ،
 وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُبْلِغَكَ بِهَا قَبْلَ أَنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ صِحَّتِهَا بِنَفْسِي، فَهَذَا مَا تَعَلَّمْتُهُ
 مِنْكَ، وَهَذَا مَا يَلِيقُ بِجُنْدِي شَرِيفٍ تَجَاهَ قَائِدِهِ الْعَظِيمِ، فَانْطَلَقْتُ طَائِرًا إِلَى هُنَاكَ
 لِأَتَحَقَّقَ بِنَفْسِي مِمَّا يَقُولُونَ، حَتَّى أُبْلِغَكَ بِمَا أَرَاهُ بَعَيْنِي، وَأَسْمَعُهُ بِأُذُنِي. وَمَا رَأَيْتُهُ
 وَسَمِعْتُهُ شَيْءٌ رَهِيبٌ يَا مَوْلَايَ.

وَتَوَقَّفَ الْهُدْهُدُ بُرْهَةً، قَبْلَ أَنْ يُطْلِقَ صِيحَتَهُ الْمُدْوِيَّةَ: لَقَدْ وَجَدْتُ قَوْمًا
 يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ، وَيَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ !!
 فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، عَادَتِ الْهَمَسَاتُ تَتَعَالَى مِنْ جَدِيدٍ:
 مَاذَا يَقُولُ؟ ... هَلْ هَذَا مَعْقُولٌ؟ ... يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ؟ ... نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ
 اللَّهِ ... الْهُدْهُدُ لَا يَكْذِبُ ... هَذَا كَلَامٌ خَطِيرٌ ...

وَالْتَفَاتُهُ أُخْرَى مِنَ الْمَلِكِ أَخْرَسَتِ الْجَمِيعَ، لِيَعُودَ الصَّمْتُ وَالتَّرْقُبُ
 وَالدَّهْشَةُ، وَيَعُودَ الْهُدْهُدُ لِيَقُولَ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ، خَاشِعٍ:
 هَذَا مَا جَعَلَنِي أَتَعَيَّبُ عَنِ الْجَيْشِ يَا مَوْلَايَ، وَلَكِنِّي مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ، لَوْلَا
 خُطُورَةُ الْأَمْرِ، وَلَوْلَا ثِقَتِي فِي عَفْوِكَ وَكَرَمِكَ وَحِكْمَتِكَ. فَانظُرْ، وَاحْكُمْ بِمَا تَرَى،
 وَسَتَجِدُنِي مُطِيعًا، صَابِرًا، مُحْتَسِبًا أَجْرِي عَلَى اللَّهِ، الَّذِي مَا فَعَلْتُ كُلَّ هَذَا إِلَّا مِنْ
 أَجْلِ طَاعَتِهِ وَرِضَاهُ.

قَالَ الْهُدْهُدُ ذَلِكَ وَتَحْشَرَجَ صَوْتُهُ بِالْبُكَاءِ،

فَسَكَتَ عَنِ الْكَلَامِ!!

وَسَادَ صَمْتُ رَهِيْبٍ لَمْ يَقْطَعْهُ إِلَّا صَوْتُ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ،
وَهُوَ يُعْلِنُ أَنَّهُ سَيُؤَجِّلُ حُكْمَهُ، وَيَنْتَظِرُ، حَتَّى يَتَأَكَّدَ مِنْ كَلَامِ
الْهُدْهُدِ، وَيَرَى إِنْ كَانَ صَادِقًا أَمْ كَاذِبًا.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى كَاتِبِهِ، فَيَأْمُرُهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَيُمْلِي عَلَيْهِ خِطَابًا
مُوجَّهًا إِلَى بَلْقَيْسَ وَقَوْمِهَا، يَدْعُوهُمْ فِيهِ أَنْ يُسَلِّمُوا لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ، وَيُحَذِّرُهُمْ أَنْ يَتَكَبَّرُوا أَوْ يَتَعَالَوْا عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُهُمْ
أَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ طَائِعِينَ. ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى الْهُدْهُدِ فَيَأْمُرُهُ أَنْ يَحْمِلَ
الْخِطَابَ، وَيَطِيرَ بِهِ إِلَى بَلْقَيْسَ، فَيَسْحَرَنَّ فُرْصَةً
تُحَوِّنُ فِيهَا وَحَدَا فِي غُرْفَتِهَا، فَيُلْقِي إِلَيْهَا
بِالْخِطَابِ، وَيَتَّبِعَدَ، لِيُرَاقِبَهَا مِنْ بَعِيدٍ
وَيَرَى مَا تَفْعَلُ.



قَالَ الْهُدُودُ: سَمْعًا وَطَاعَةً يَا مَوْلَايَ.

وَتَقَدَّمَ خُطُوبَاتٍ ثَابِتَةً، فَحَمَلَ الْخِطَابَ بِمِثْقَالِهِ، ثُمَّ اعْتَدَلَ مَشْدُودَ الْقَامَةِ،
مُؤَدِّيًا التَّحِيَّةَ الْوَاجِبَةَ مِنْ جُنْدِيٍّ لِقَائِهِ، وَدَارَ عَلَى كَعْبِهِ إِلَى الْخَلْفِ لِيَفْرِدَ جَنَاحِيهِ
وَيَنْطَلِقَ مُرْفَرَفًا فِي الْفَضَاءِ، تَارِكًا الْجَمِيعَ فِي دَهْشَةٍ وَذُهُولٍ !!

فِي قَصْرِ بَلْقِيسَ

ظَلَّ الْهُدُودُ يُرْفِرُفُ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ، نَاسِيًا جُوعَهُ وَعَطْشَهُ وَتَعَبَهُ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ
عَنِ الطَّيْرَانِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَمْلَكَةِ سَبَأَ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا الشَّمْسُ تَمِيلُ
غَارِبَةً خَلْفَ الْجِبَالِ، فَحَطَّ عَلَى بُرْجِ قَصْرِ الْمَلِكَةِ بَلْقِيسَ، وَوَقَفَ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ،
وَيَنْتَظِرُ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهَا اللَّحْظَةُ الْمُنَاسِبَةُ الَّتِي تَدْخُلُ فِيهَا
الْمَلِكَةُ غُرْفَتَهَا وَحِيدَةً، وَتَبْقَى فِيهَا وَحِيدَةً حَتَّى الصَّبَاحِ !!

فِي لَحْظَةِ الْغُرُوبِ، رَفَرَفَ الْهُدُودُ، فَحَطَّ عَلَى سُبَّكَ عُزْفَةِ الْمَلِكَةِ، وَوَقَفَ
مُخْتَبِئًا خَلْفَ ضَلْفَةِ السُّبَّكَ حَتَّى لَا تَرَاهُ عِنْدَ دُخُولِهَا، وَظَلَّ مُنْتَظِرًا سَاكِنًا حَابِسًا
أَنْفَاسَهُ، حَتَّى دَخَلَتِ الْمَلِكَةُ، وَبَدَلَتْ مَلَاسِيَهَا، وَتَمَدَّدَتْ تَسْتَرِيحُ. فَانْسَلَّ بِجِسْمِهِ
وَبِخِطَابِهِ مِنْ بَيْنِ الْقُضْبَانِ، وَانْطَلَقَ مُرْفَرَفًا بِاتِّجَاهِ الْمَلِكَةِ، فَالْقَى إِلَيْهَا الْخِطَابَ،
وَعَادَ فَحَطَّ عَلَى السُّبَّكَ، وَالْمَلِكَةُ تَنْظُرُ فِي ذُهُولٍ !!

انْتَفَضَتِ الْمَلِكَةُ جَالِسَةً، فَبَسَطَتِ الْخِطَابَ، وَأَخَذَتْ تَقْرَأُهُ، وَقَدَّبانَ عَلَى وَجْهِهَا
الْخَوْفُ وَالْقَلَقُ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّى كَانَتْ قَدْ لَبِسَتْ مِنْ جَدِيدِ مَلَاسِيهَا الْمَلِكِيَّةِ،

وَوَضَعَتِ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهَا، لِتَأْمُرَ بِانْعِقَادِ مَجْلِسِ الْحُكْمِ، ثُمَّ جَلَسَتْ فِي قَاعَتِهَا الْمَلِكِيَّةِ، وَحَوْلَهَا الْوُزَرَاءُ وَالْأَعْيَانُ، تَحْكِي لَهُمْ مَا حَدَثَ، وَتَقْرَأُ عَلَيْهِمْ خِطَابَ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، بِمَا فِيهِ مِنْ دَعْوَةٍ وَنُصْحٍ وَتَهْدِيدٍ، وَتَطْلُبُ مِنْهُمْ الرَّأْيَ وَالْمَشُورَةَ. طَالَتِ الْمُنَاقَشَاتُ، وَكَثُرَتِ الْأَرَآءُ. وَفِي النَّهَائِيَةِ، تَكَلَّمَتِ الْمَلِكَةُ، وَقَالَتْ بِصَوْتِ حَزِينٍ: لَنْ نَسْتَطِيعَ مُوَاجَهَةَ جُيُوشِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، سَوْفَ يَهْزِمُنَا. وَلَوْ هَزَمْنَا، وَدَخَلَ مَمْلَكَتَنَا بِالْقُوَّةِ، فَسَوْفَ يَدُلُّنَا وَيُحَوِّلُنَا إِلَى خِدْمِ وَعَبِيدٍ. فَمَاذَا تَرَوْنَ؟!

فَتَحَيَّرَ الْحَاضِرُونَ مِنْ كَلَامِهَا، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقَالُوا: أَنْتِ الْمَلِكَةُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُكَ، وَنَحْنُ عَلَيْنَا الطَّاعَةُ، فِيمَاذَا تَأْمُرِينَ؟

صَمَّتِ الْمَلِكَةُ بَعْضَ الْوَقْتِ تَفَكَّرًا، ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتِ حَزِينٍ: سَأُرْسِلُ إِلَى سُلَيْمَانَ بِهَيِّئَةِ ثَمِينَةٍ، وَأَنْتَظِرُ عَوْدَةَ رُسُلِنَا مِنْ عِنْدِهِ؛ لِأَيِّ إِنْ كَانَ طَامِعًا فِي ثُرَوَاتِنَا، أَمْ أَنَّهُ مُخْلِصٌ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى دِينِ جَدِيدٍ، وَبَعْدَهَا سَتَتَّخِذُ قَرَارِي.

وَوَافَقَ الْجَمِيعُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَمَرَتْ بِتَجْهِيزِ الْهَدِيَّةِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ بِهَا فِي الصَّبَاحِ الْبَاقِرِ.
 كُلُّ هَذَا وَالْهُدْهُدُ وَقَفَّ عَلَى شُرْفَةِ الْقَاعَةِ الْعَالِيَةِ، مُتَوَارِيًا عَنِ الْأَنْظَارِ، يَسْتَعُ
 وَيَرَى، وَيَتَابِعُ بِكُلِّ يَقْظَةٍ وَتَرْكِيزٍ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ يَفْهَمُونَ لِعَنِي
 وَكَلَامِي، لَنَزَلْتُ إِلَيْهِمْ، وَقُلْتُ لَهُمْ: لَا تُضَيِّعُوا وَقْتَكُمْ، وَادْهَبُوا إِلَيَّ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ طَائِعِينَ
 مُسْلِمِينَ، فَلَيْسَ أَمَامَكُمْ خِيَارٌ آخَرَ، وَلَكِنَّهُمْ بِكُلِّ أَسْفٍ لَا يَفْهَمُونَ.

انْفَضَّ الْمَجْلِسُ، وَخَرَجَ الْجَمِيعُ مِنَ الْقَاعَةِ، وَسَادَ الظَّلَامُ، فَاعْتَدَلَ الْهُدْهُدُ
 لِكَيْ يَطِيرَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ، لَقَدْ وَصَلَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ إِلَى
 قِمَّةِ التَّعَبِ وَالْإِعْيَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ شَعَرَ أَنَّ الْمَوْتَ يَقْتَرِبُ مِنْهُ، فَانْهَارَ فِي مَكَانِهِ، وَغَوَى
 يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَمُدَّ فِي عُمُرِهِ حَتَّى يَرَى حُلْمَهُ يَتَحَقَّقُ، فَيَرَى هَؤُلَاءِ النَّاسَ قَدْ عَرَفُوا
 الْحَقِيقَةَ، ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَغَابَ عَنِ الدُّنْيَا.

رَجُلَانِ عِنْدَ السِّيَاحِ

قَبْلَ أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ، وَعَلَى شَفْشَقَاتِ الطُّيُورِ، فَتَحَ الْهُدْهُدُ عَيْنَيْهِ، فَوَحَدَ
 نَفْسَهُ فِي مَكَانِهِ ذَاتِهِ عَلَى شُرْفَةِ الْقَاعَةِ الْمَلَكِيَّةِ، حَيْثُ كَانَ مُخْتَبِئًا. حَمَدَ اللَّهَ الَّذِي
 أَمَدَّ فِي عُمُرِهِ، وَأَنْطَلَقَ مِنْ فُورِهِ حَتَّى لَا يَفُوتَهُ مُتَابَعَةُ شَيْءٍ مِمَّا يَجْرِي، وَلَكِنَّهُ مَا
 كَادَ يُرْفَرِفُ بِجَنَاحَيْهِ حَتَّى شَعَرَ بِالضَّعْفِ الشَّدِيدِ، وَبِالْجُوعِ الشَّدِيدِ، وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمْ
 يَأْكُلْ شَيْئًا مُنْذُ وَقْتِ طَوِيلٍ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ لَوْ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فَسَوْفَ يَمُوتُ

جُوعًا وَعَطْشًا، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، وَعَلَى الْفُورِ غَيْرِ اتِّجَاهِهِ
نَا لًا إِلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ.

اخْتَارَ الْهُدُودُ، بِخَبْرَتِهِ، أَنْ يَحْطَّ عَلَى النَّجِيلَةِ الْخَضِرَاءِ الْمَرْوِيَّةِ، بِجِوَارِ سِيَّاحٍ
مِنَ الْأَزْهَارِ، حَيْثُ يَكُونُ مُتَوَارِيًا عَنِ الْأَنْظَارِ، وَحَيْثُ يَسْهُلُ عَلَى مِنْقَارِهِ اخْتِرَاقُ
الْزُبَّةِ اللَّيْتَةِ وَالْوُصُولُ إِلَى دُودِ الْأَرْضِ الْمُسْتَهَيِّ. وَمَا كَادَ يَنْفُرُ الْأَرْضَ حَتَّى سَمِعَ
صَوْتَ رَجُلَيْنِ فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنَ السِّيَّاحِ يَتَنَاقَشَانِ، وَيَقُولَانِ:

- مَلِكْتَنَا غَيْبَةٌ وَعَيْنِدَةٌ، فَهِيَ تَنْظُرُ أَنَّ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ طَامِعٌ فِي ثُرَوَاتِهَا!! لَوْ كَانَ
مِثْلَنَا رَجُلًا لَمَا حَدَّثَ لَنَا هَذَا، وَلَكِنَّهَا امْرَأَةٌ!!

- الْمَشْكَلَةُ لَيْسَتْ فِي الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ، فَالْمَرْأَةُ
الصَّالِحَةُ الْحَكِيمَةُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ أَحْمَقٍ.

- مَعَكَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهَا امْرَأَةٌ حَمَقَاءُ.

- سَوْفَ نَرَى، وَلَكِنْ دَعْنِي أَسْأَلُكَ: هَلْ

تُصَدِّقُ حِكَايَةَ الْهُدُودِ هَذِهِ؟!

- نَعَمْ أَصَدِّقُهَا

- أَتُصَدِّقُ أَنَّ هُنَاكَ طَائِرًا عَاقِلًا يُفَكِّرُ، وَيَحْمِلُ رِسَالَةَ

بِحَنْقَارِهِ، وَيَطِيرُ بِهَا كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، وَيُحْطِّطُ وَيُدَبِّرُ،

وَيَحْتَجِّنُ الْفُرْصَةَ لِيَسْلَمَهَا إِلَى الشَّخْصِ الْمُحَدَّدِ؟!!

- نَعَمْ، وَلِمَ لَا؟ الدُّنْيَا مَلِيئَةٌ بِالْعَجَائِبِ!!



دُعَابَةُ مُخِيفَةٍ

كَانَ الْهُدُودُ يَأْكُلُ بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يَتَابِعُ الْحَوَارِ بِشَغْفٍ وَاسْتِمْتَاعٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَعِ
الْبَقَاءَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْطَلِقَ بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ، لِمُتَابَعَةِ وَاجِبَاتِهِ.
وَرَعِمَ ذَلِكَ فَقَدْ غَلَبَتْهُ رُوحُ الدُّعَابَةِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفُوتَ فُرْصَةَ مُدَاعَبَةِ هَذَيْنِ

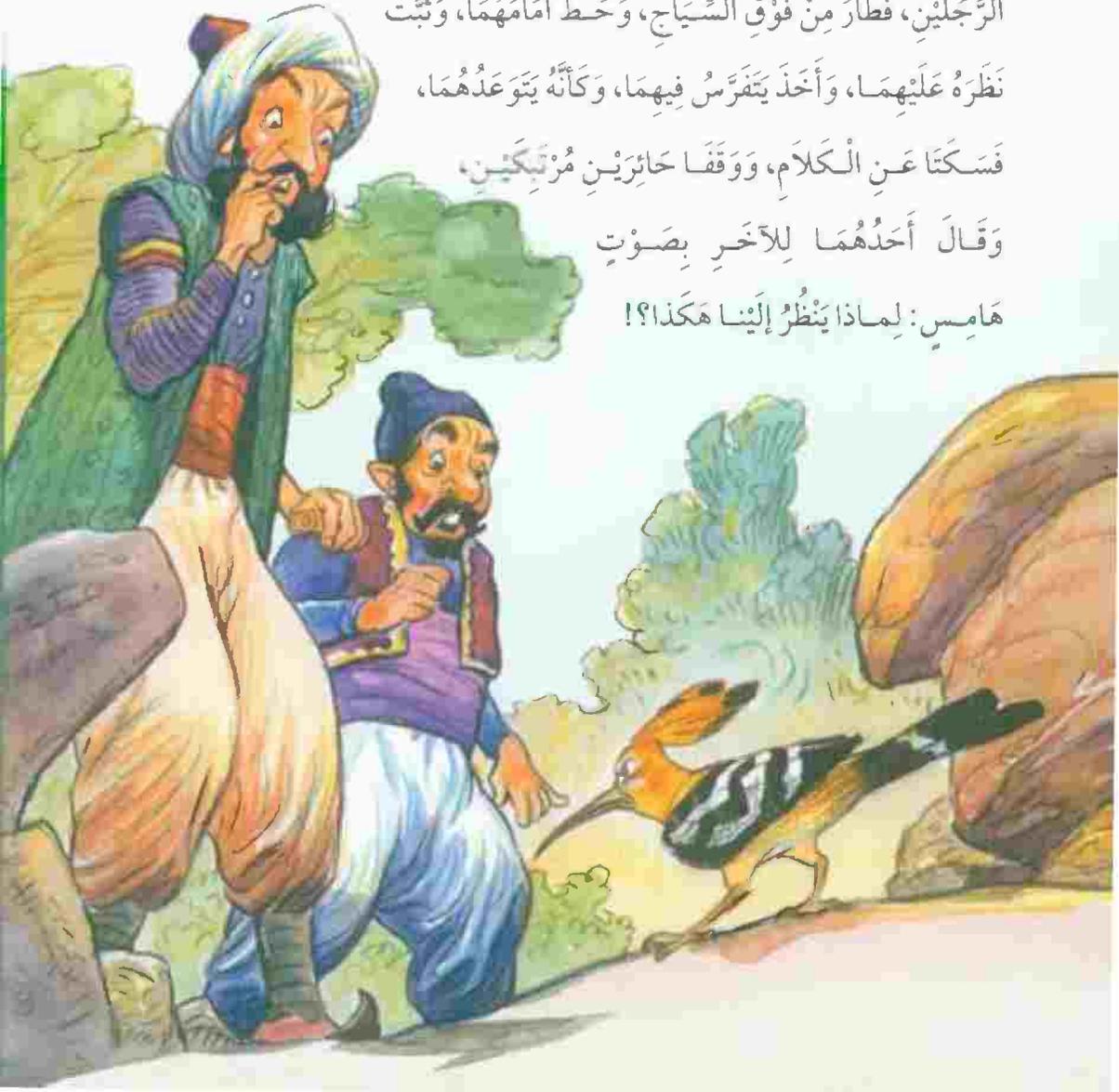
الرَّجُلَيْنِ، فَطَارَ مِنْ فَوْقِ السِّيَاحِ، وَحَطَّ أَمَامَهُمَا، وَتَبَّتْ

نَظْرُهُ عَلَيْهِمَا، وَأَخَذَ يَتَفَرَّسُ فِيهِمَا، وَكَأَنَّهُ يَتَوَعَّدُهُمَا،

فَسَكَتَا عَنِ الْكَلَامِ، وَوَقَفَا حَائِرَيْنِ مُرْتَبِكَيْنِ،

وَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ بِصَوْتِ

هَامِسٍ: لِمَاذَا يَنْظُرُ إِلَيْنَا هَكَذَا؟!



سَتَكُونُ مُصِيبَةً كَبِيرَةً لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْهُدُودُ الْعَاقِلِ، فَقَدْ سَمِعَ كُلَّ مَا قُلْنَا، وَلَوْ

أَبْغَى الْمَلِكَةَ بِمَا سَمِعَ، فَسَوْفَ تَقْطَعُ رَقَبَتَنَا!!

فَقَالَ الْآخَرُ: لَا، لَا تَخَفْ، هَذَا هُدُودٌ عَادِيٌّ، أَمَا هُدُودٌ سُلَيْمَانَ فَلَهُ رِيشٌ

ذَهَبِيٌّ فَوْقَ رَأْسِهِ!!

فَقَالَ الْأَوَّلُ: إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ، فَلِمَاذَا يَنْظُرُ إِلَيْنَا هَكَذَا!؟

فَقَالَ الْآخَرُ: وَحَتَّى لَوْ كَانَ هُوَ فَلَنْ يُبْلِغَ الْمَلِكَةَ عَنَّا، فَهُوَ عَدُوٌّ لَهَا.

تَحَيَّرَ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ، وَازْدَادَ ارْتِبَاكُهُ، وَقَدْ كَانَ خَفِيفَ الْعَقْلِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ

يُحْسِكَ نَفْسَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَى الْهُدُودِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُ خُطْوَةً، وَقَالَ لَهُ بِخَوْفٍ وَتَوَسُّلٍ:

أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ، هَلْ أَنْتَ هُدُودٌ سُلَيْمَانَ!؟

عِنْدَئِذٍ، لَمْ يَتَمَالِكِ الْهُدُودُ نَفْسَهُ مِنَ الْمَفْاجَأَةِ،

فَأْتَفَتَ بِوَجْهِهِ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى، لِيُدَارِيَ

ضِحْكَتَهُ وَدَهْشَتَهُ. وَقَبْلَ أَنْ يَنْطَلِقَ فِي

الصَّحْحِ، رَفَرَ بِجَنَاحَيْهِ، وَأَنْطَلَقَ

فِي الْفَضَاءِ.



الْهُدِيَّةُ

حَطَّ الْهُدُودُ عَلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ فَوْقَ الْجَبَلِ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَعَاجِبِ مَمْلَكَةِ سَبَأَ

أَنَّهُمْ يَزْرَعُونَ جِبَالَهُمْ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الْخَضِرِ وَالْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ. جَلَسَ الْهُدُودُ

عَلَى الْغُضَنِ لِحِظَةً يُفَكِّرُ، هَلْ يَبْقَى فِي قَصْرِ بَلْقَيْسَ، لِتَبَاعِ الْأَحْدَاثِ، أَمْ يَطِيرُ إِلَى
الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، لِكَيْ يُطْلِعَهُ عَلَى مَا جَرَى، فَيَسْتَعِدَّ لِلرَّدِّ عَلَى بَلْقَيْسَ وَرُسُلِهَا، قَبْلَ
أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ؟

وَلَمْ يُضَيِّعْ وَقْتًا طَوِيلًا فِي التَّرَدُّدِ، فَبَيْنَ قَمَّةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي يَقِفُ عَلَيْهَا،
وَبَيْنَ قَصْرِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ مَسَافَةٌ طَوِيلَةٌ، يَجِبُ أَنْ يَقْطَعَهَا بِلا تَوَقُّفٍ، وَإِلَّا غُرِبَتْ
الشَّمْسُ، وَحَلَّ الظَّلَامُ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ.

وَقَدْ كَانَ الْهُدُودُ حَكِيمًا فِي قَرَارِهِ هَذَا، فَعِنْدَمَا دَخَلَ رُسُلُ بَلْقَيْسَ بِهَدْيَتِهِمْ
عَلَى الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، كَانَ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِنَوَايَا مَلِكَتِهِمْ، وَبِكُلِّ مَا دَارَ بَيْنَهُمْ مِنْ
مُنَاقَشَاتٍ، وَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَفْكَارٍ، فَلَمْ يُعْطِهِمُ الْفُرْصَةَ لِكَيْ يُكْمِلُوا كَلَامَهُمْ، بَلْ
قَاطَعَهُمْ، وَوَبَّخَهُمْ بِلَهْجَةٍ قَاسِيَةٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا

هَدْيَتَهُمْ، وَيَعُودُوا بِهَا إِلَى مَلِكَتِهِمْ، فَهِيَ أَوْلَى
بِهَا. وَأَعَادَ عَلَيْهِمُ التَّهْدِيدَ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ

يُطِيعُوهُ، فَسَوْفَ يَجْعَلُهُمْ

خَدَمًا وَعَبِيدًا أَذِلَاءً. كُلُّ

ذَلِكَ وَالرُّسُلُ وَاقِفُونَ

أَمَامَهُ، يَرْتَجِفُونَ مِنْ شِدَّةِ

الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ.



أَمَا الْهُدْهُدُ فَكَانَ حَاضِرًا فِي مَجْلِسِ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ، مُتَوَارِيًا خَلْفَ سِتَارٍ،
 يُرَاقِبُ كُلَّ مَا يَحْدُثُ، وَيَنْظُرُ فِي وُجُوهِ الرُّسُلِ، الَّذِينَ رَأَى بَعْضُهُمْ فِي مَجْلِسِ
 بَلْقَيْسَ، وَلَكِنَّ الْمَفَاجَأَةَ الْكُبْرَى أَنَّهُ رَأَى الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ دَاعَبَهُمَا فِي حَدِيقَةِ
 الْفَصْرِ، فَخَرَجَ مِنْ خَلْفِ السِّتَارِ، وَأَظْهَرَ لِهَمَا نَفْسَهُ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمَا النَّظْرَةَ نَفْسَهَا،
 لَا لِيَدَاعِبَهُمَا هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَلَكِنْ لِكَيْ يَزِيدَ مِنْ خَوْفِهِمَا، وَيُؤَكِّدَ لَهُمَا أَنَّ قَوْمَهُمَا
 أَضْعَفُ مِنْ أَيِّ مَوَاجِهَةٍ، وَكَانَ هَذَا وَاضِحًا مِنَ الرَّجْفَةِ الَّتِي أَصَابَتِ الرَّجُلَيْنِ!!
 وَهَكَذَا حُسِمَ الْأَمْرُ، وَعَادَ الرُّسُلُ إِلَى بَلْقَيْسَ، حَامِلِينَ هَدِيَّتَهُمْ، وَخَوْفَهُمُ الشَّدِيدَ!!
 وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا، كَانَ الْهُدْهُدُ قَدْ سَبَقَهُمْ، وَجَلَسَ يَسْتَمِعُ إِلَى مَجَالِسِ
 بَلْقَيْسَ وَرِجَالِهَا، وَهُمْ يَتَخَبَّطُونَ فِي انْتِظَارِ عَوْدَةِ رُسُلِهِمْ، حَتَّى حَانَتِ اللَّحْظَةُ
 الْمُتَرَقِّبَةُ، فَدَخَلَ الرُّسُلَ عَلَى الْمَجْلِسِ، وَوَضَعُوا الْهَدِيَّةَ عَلَى الْأَرْضِ
 أَمَامَ الْمَلِكَةِ، وَأَخَذُوا يَنْقُلُونَ إِلَيْهَا وَإِلَى الْحَاضِرِينَ كُلِّ مَرَأٍ
 وَمَا سَمِعُوا وَمَا فَهَمُوا، وَوَقَفَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ مُرْتَبِكًا أَمَامَ
 بَلْقَيْسَ، وَهُوَ يَحْكِي لَهَا مَا جَرَى بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْهُدْهُدِ،
 فَصَحِكَ بَعْضُ الْجَالِسِينَ، وَسَخِرَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ بَلْقَيْسَ
 أَتَدَّتْ صِحَّةَ ذَلِكَ.

وَعِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حَاجَةً لِكَيْ يَطُولَ
 الْجِدَالُ وَالنَّقَاشُ، وَكَانَ الْقَرَارُ الْوَاضِعَ الْحَاسِمَ: أَنْ
 يَذْهَبُوا جَمِيعًا، تَقَدِّمُهُمْ مَلِكَتُهُمْ، إِلَى سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ
 طَائِعِينَ مُسْلِمِينَ.



دُمُوعُ الْفَرَحِ

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى فِي حَيَاةِ الْهُدُودِ الَّتِي يَبْكِي فِيهَا مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، فَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا، وَدُمُوعُهُ تَسَاقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ.

أَمَّا الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ فَكَانَتْ عِنْدَمَا كَرَّمَهُ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، أَمَامَ كُلِّ الْجُنُودِ، تَقْدِيرًا لِإِخْلَاصِهِ، وَتَفَانِيهِ فِي أَدَاءِ وَاجِبِهِ، وَمَنْحَهُ لِقَبِّ (الْهُدُودِ الْحَكِيمِ). فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَيْضًا لَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدُودُ الْحَكِيمُ نَفْسَهُ، فَأَجْهَشَ بِالْبُكَاةِ، وَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا وَعِزْفَانًا وَتَوَاضَعًا، وَقَالَ :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، فَاجْعَلْ ذُرِّيَّتِي مِنَ الْحُكَمَاءِ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ، الْعَامِلِينَ لِعُمْرَانَ الدُّنْيَا وَصَلَاحِ الْآخِرَةِ، وَاجْعَلْهُمْ يَسْعُونَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِلَا حَدٍّ، وَيَكْتَسِبُونَهَا بِالْإِجْتِهَادِ وَالْجِدِّ، وَيَتَوَارَثُونَهَا ابْتِنَاعًا عَنْ أَبِي عَنْ جَدِّ، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. آمِينَ.

وَعِنْدَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ سُجُودِهِ وَدُعَائِهِ، كَانَتْ الْمَلِكَةُ بَلْقَيْسُ

وَقَوْمُهَا يَدْخُلُونَ مِنْ بَوَابِ الْمَدِينَةِ، مُتَّجِهِينَ إِلَى الْقَصْرِ،

لِيَقْفُوا أَمَامَ نَبِيِّ اللَّهِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ، وَيُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ

طَائِعِينَ مُخْلِصِينَ.



الْيَوْمُ الْمَعْلُومُ



وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَالسَّنَوَاتُ، وَجَدْنَا
الْهُدْهُدَ الْحَكِيمَ مُقَرَّبًا إِلَى سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ،
يَعْمَلُ فِي خِدْمَتِهِ جُنْدِيًّا مِنْ جُنُودِهِ،
وَمُسْتَشَارًا حَكِيمًا مِنْ خُلَصَائِهِ، حَتَّى جَاءَ
الْيَوْمُ الْمَعْلُومُ، وَوَقَعَ الْقَدَرُ الْمَحْتُومُ، وَلَا
شَيْءَ فِي الدُّنْيَا يَدُومُ، لَا يَدُومُ يَا وَلَدِي إِلَّا الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

مَاتَ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَيُّ كَائِنٍ مِنَ
الْكَائِنَاتِ أَنَّهُ مَاتَ!! فَقَدْ مَاتَ وَهُوَ جَالِسٌ يُرَاقِبُ

الْجِنَّ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ لَهُ قَضْرًا أَمْرَهُمْ بَيْنَائِهِ، وَقَدْ أَسْنَدَ دَقْفَهُ عَلَى عَصَاهُ، وَصَوَّبَ نَظْرَهُ
إِلَيْهِمْ، مُهَدِّدًا مُتَوَعِّدًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ لِمَنْ يَتَّكَاسَلُ، أَوْ يُهْمَلُ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى
بَابِهَا وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، لَمْ يُغَيِّرْ وَضْعَهُ، وَلَمْ يُغْمِضْ عَيْنَيْهِ، فَظَنَّ الْجِنَّ أَنَّهُ
غَضِبَ عَلَيْهِمْ، فَارْتَعَبُوا، وَظَلُّوا يَعْمَلُونَ لَيْلَ نَهَارٍ، دُونَ تَوَقُّفٍ، وَبِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ
مِنْ طَاقَةٍ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ مَاتَ!!

أَمَّا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ فَقَدْ كَانَ يُسَاوِرُهُ الشُّكُّ، وَيَعْتَصِرُهُ الْخَوْفُ، حَتَّى إِنَّهُ فِي
هَذِهِ الْأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ النَّوْمَ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَخْطُرُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ بِإِلَيْهِ، فَتَتَابَعُهُ
مَوْجَةٌ مِنَ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ لَا يَسْتَطِيعُ مُغَالَبَتَهَا، فَيَسْتَحِي بِعِيدًا عَنِ الْعُيُونِ، وَيَجْلِسُ
وَحِيدًا يَتَكَبَّرُ، وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْتَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، اللَّهُمَّ حَيِّبْ ظَنِّي،
وَاطْلُ عُمْرَ نَبِيِّكَ الْكَرِيمِ.

وَوَظَلَّ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ أَيَّامًا وَأَيَّامًا، وَلَكِنَّ حَشْرَةَ الْخَشَبِ جَاءَتْ
لِتَعْمَلَ مَا أَمَرَهَا بِهِ اللَّهُ، فَأَخَذَتْ تَنْخِرُ فِي الْعَصَا، وَلَا زَالَتْ تَنْخِرُهَا وَتَنْخِرُهَا حَتَّى
انْكَسَرَتْ، وَمَالَ نَبِيُّ اللَّهِ بِجَسَدِهِ الشَّرِيفِ، وَلَمْ يَعْتَدِلْ، فَعَرَفَ الْجَمِيعُ أَنَّهُ مَاتَ،
فَانْفُضُوا وَتَفَرَّقُوا وَذَهَبَ كُلُّ مِنْهُمْ فِي طَرِيقٍ!!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، انْهَارَ الْهُدْهُدُ وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، وَظَلَّ
بَعْدَهَا أَيَّامًا يَبْكِي وَيَبْكِي حَتَّى ضَعُفَ جِسْمُهُ، وَتَدَهَوَّرَتْ صِحَّتُهُ، وَشَعَرَ بِاقْتِرَابِ
النَّهَائَةِ!!

أَوَّلُ وَصِيَّةٍ

لَمَّا شَعَرَ جَدُّنَا الْهُدْهُدُ الْحَكِيمُ بِاقْتِرَابِ الْمَوْتِ، نَادَى وَلَدَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ
أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْأَمَانَةِ، سَاعِيًا طَوَالَ حَيَاتِهِ لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.
وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ الْوَثِيقَ، حَكَى لَهُ كُلَّ مَا
حَدَّثَ، وَكُلَّ مَا رَأَى وَمَا سَمِعَ وَكُلَّ مَا اسْتَخْلَصَ
مِنْ دُرُوسٍ وَعِبَرٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

هَذِهِ أَمَانَتُكَ، احْفَظْهَا فِي قَلْبِكَ،
وَانْقُلْهَا إِلَى وَلَدِكَ، قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ،
وَأَوْصِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ هُوَ أَيْضًا مَعَ وَلَدِهِ.
وَمِنَ الْآنَ، وَصِيَّتِي لِكُلِّ هُدْهُدٍ يَأْتِي مِنْ



بَعْدِي، أَنْ يَقْضِيَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا، لَحْظَةً بِلَحْظَةٍ، يَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا الْوَاسِعَةِ،
يَتَعَقَّدُ أَحْوَالَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، يَتَابِعُ الْأَحْدَاثَ، وَيَجْمَعُ الْأَخْبَارَ، وَيَسْتَخْلِصُ
الدَّرُوسَ وَالْعِبَرَ، وَيَنْقُلُهَا إِلَى مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ.

ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُ جَدَّنَا الْهُدْهِدِ الْحَكِيمِ إِلَى بَارِئِهَا!!
قَالَ صَاحِبِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَمَّاكَ نَفْسُهُ فَأَخَذَ يَبْكِي، وَيَمْسَحُ دُمُوعَهُ بِالضَّمَادَةِ
الَّتِي عَلَى جَنَاحِهِ، وَلَمْ أَتَمَّاكَ نَفْسِي أَنَا أَيْضًا، وَلَكِنِّي غَالَبْتُ دُمُوعِي، وَدَارَيْتُهَا
عَنِّي، وَأَخَذْتُ أَمْسَحُ بِأَصَابِعِي عَلَى رَأْسِهِ، وَقُلْتُ لَهُ: وَهَلْ فَعَلْتَ هَذَا أَنْتَ أَيْضًا؟
فَقَالَ: نَعَمْ يَا وَلَدِي، إِنَّهُ عَهْدٌ يَقْطَعُهُ كُلُّ هُدْهِدٍ مِنَّا عَلَى نَفْسِهِ، أَمَامَ وَالِدِهِ،
لَحْظَةً مَوْتِهِ، هَذَا مَا فَعَلْتُهُ أَنَا، وَهَذَا مَا فَعَلْتُهُ أَنْتَ أَيْضًا.

شَعَرْتُ بِالرَّهْبَةِ وَالْإِزْتِبَاكِ، فَقُلْتُ: وَلَكِنِّي لَسْتُ هُدْهِدًا، أَنَا إِنْسَانٌ صَغِيرٌ،
لَيْسَ لِي جَنَاحَانِ أَطِيرُ بِهِمَا، فَكَيْفَ أَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا الْوَاسِعَةِ!!؟
ابْتَسَمَ الْهُدْهُدُ ابْتِسَامَةً رَقِيقَةً، وَقَالَ: هَذَا مَا قَالَهُ لِنَفْسِهِ أَحَدُ أَجْدَادِي عِنْدَمَا مَاتَ
أَبُوهُ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَظَلَّ حَزِينًا خَائِفًا مَرَدَّدًا، حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ فِي قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ!!
قُلْتُ مُنْدهِشًا: مَعْرَكَةٌ؟!! وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

نَظَرَ صَاحِبِي الْهُدْهُدُ إِلَى الْأَفُقِ الْبَعِيدِ، كَانَتْ الشَّمْسُ تَمِيلُ نَاحِيَةَ الْغُرُوبِ،
وَقُلُّ الطُّيُورِ تَعُودُ إِلَى أَعْشَاشِهَا، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ بِابْتِسَامَتِهِ الشَّاحِبَةِ، وَصَوْتِهِ الضَّعِيفِ،
وَقَالَ: غَدًا، إِذَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ أَعِيشَ، سَأُحْكِي لَكَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ.

حُلْمٌ فِي حِضْنِ جَدِّي

حَمَلْتُ الْهُدْهُدَ إِلَى قَفْصِهِ، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِ بَابَهُ بِإِحْكَامٍ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَأْكُلَهُ
الْعِرْسَةُ كَمَا قَالَتْ لِي أُمِّي، وَمَا هِيَ إِلَّا لِحِظَاتٍ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَحَتَّى كَانَ
الْهُدْهُدُ يَغْطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

أَمَّا أَنَا، فَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلَا كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي
نِمْتُ وَحَلَمْتُ...

وَفِي الْحُلْمِ، وَجَدْتُ نَفْسِي أَسْبَحُ فِي النَّيْلِ، مَعَ أَنِّي فِي الْحَقِيقَةِ لَا أُجِيدُ
الْعَوْمَ، لَمْ أَكُنْ قَلِقًا وَلَا خَائِفًا، بَلْ كُنْتُ سَعِيدًا مُطْمَئِنًّا، كَمَنْ أَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي
حِضْنِ جَدِّهِ، كَانَ النَّيْلُ يَنْفَسُ، فَيَرْتَفِعُ صَدْرُهُ، وَيَهْبِطُ، وَأَنَا فَوْقَهُ أَعْلُو وَأَهْبِطُ،
مُنْسَابًا عَلَى تَمَوُّجَاتِهِ الْحَايَةِ كَمَنْ يَعُومُ عَلَى حَرِيرٍ، وَالضَّبَابُ يُلْفِنِي مِثْلَ عَبَاءَةٍ
شَفَافَةٍ، وَإِذَا بَعْرُوسِ الْبَحْرِ تَخْرُجُ لِي وَسَطَ الضَّبَابِ نِصْفُهَا فَوْقَ الْمَاءِ عَلَى
هَيْئَةِ فِتَاةٍ رَائِعَةٍ الْجَمَالِ، بَعِينِينَ وَاسِعَتَيْنِ وَشَعْرٍ مُنْسَدِلٍ، وَنِصْفُهَا الْآخَرُ تَحْتَ
الْمَاءِ عَلَى هَيْئَةِ سَمَكَةٍ بِذَيْلٍ وَرَعَانِفٍ!!

مَدَّتْ إِلَيَّ يَدَهَا وَقَالَتْ: تَعَالَ يَا أَمِينُ، تَعَالَ، لَا تَخَفْ!!

فَمَدَدْتُ يَدِي لَا خَائِفًا وَلَا مُنْذَهَشًا، فَسَحَبْتَنِي عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ بَرَفِقٍ، فَأَنْزَلْتُهُ
أَسْبَحُ عَلَى الْحَرِيرِ، ثُمَّ غَاصْتُ، وَسَحَبْتَنِي مَعَهَا، فَعُضْتُ خَلْفَهَا بِحَرَكَةِ انْسِيَّيَّةٍ
إِلَى الْأَعْمَاقِ، فَإِذَا بِي فِي عَالَمٍ رَائِعٍ مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَضْوَاءِ، أَتَحَرَّكَ بَيْنَ كَائِنَاتٍ

بَحْرِيَّةً، مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ؛ لَهَا عُيُونٌ شَفَافَةٌ، وَشِفَاهُ وَرْدِيَّةٌ، وَشَعُورٌ ذَهَبِيَّةٌ،
تَرُقُصُ رَقْصَةً رَائِعَةً عَلَى نَعْمَاتِ مُوسِيقَى لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهَا مِنْ قَبْلُ، وَأَنَا أَتَمَائِلُ
مَعَهَا مُنْسَابًا مَعَ النُّعْمَاتِ وَمَوْجَاتِ السَّعَادَةِ الْعَامِرَةِ...

وَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ دَخَلَتْ سَمَكَةٌ قَبِيحَةٌ عُيُونُهَا حَمْرَاءُ، وَفِي يَدِهَا طَبْلَةٌ
كَبِيرَةٌ، مِنْ نُحَاسٍ أَصْفَرَ، أَخَذَتْ تَدُقُّ عَلَيْهَا بِشَكْلِ صَاحِبِ مُزِعِجٍ، حَتَّى أَفْسَدَتْ
الْإِنْقَاعَ الْجَمِيلَ، وَأَوْقَفَتْ الرَّقْصَةَ الرَّائِعَةَ، وَلَمْ تَتَوَقَّفْ هِيَ عَنِ الدَّقِّ، بَلْ ظَلَّتْ
تَدُقُّ وَتَدُقُّ وَتَدُقُّ حَتَّى أَيَقْظَنِي مِنَ النَّوْمِ.



اسْتَيْقَظْتُ مِنَ النَّوْمِ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيَّ صَوْتِ طَبْلَةِ السَّمَكَةِ، بَلْ عَلَيَّ صَوْتِ
نَقْرَاتِ الْعُصْفُورَةِ عَلَيَّ زُجَاجِ شُبَاكِي !!

فَتَحْتُ عَيْنِي، فَوَاجَهْتَنِي ابْتِسَامَةُ الْهُدْهِدِ، وَفَتَحْتُ الشُّبَّاكَ لِلْعُصْفُورَةِ، فَدَخَلَ
وَمَعَهَا الزَّفْرَقَةُ وَنَسَمَةُ الصَّبَاحِ الْمُعَطَّرَةُ، وَفَتَحْتُ بَابَ الْقَفْصِ، وَمَدَدْتُ لِلْهُدْهِدِ
كَفِّي لِأَحْمِلَهُ، وَأَنَا أَقُولُ لَهُ مُدَاعِبًا: لَأَزِلَّ حَيًّا يَا جَدِّي، أَطَالَ اللَّهُ فِي عُمْرِكَ!!
وَكَمَا فَعَلْتُ بِالْأَمْسِ، حَمَلْتُ الْهُدْهِدَ إِلَى شَاطِئِ النَّيْلِ، فَأَطْعَمْتُهُ وَسَقَيْتُهُ،
وَأَجْلَسْتُهُ عَلَى الْغُصْنِ الْقَرِيبِ مِنَ الْأَرْضِ، وَجَلَسْتُ أَمَامَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا
أَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِسَمَاعِ حِكَايَةِ جَدِّهِ الَّذِي كَانَ طِفْلًا صَغِيرًا، وَوَجَدَ نَفْسَهُ وَسَطَ
الْمَعْرَكَةِ!



الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ



اِعْتَدَلِ الْهُدْهُدُ فِي جِلْسَتِهِ، وَابْتَسَمَ لِي، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ:

كَانَ جَدِّي هَذَا هُدْهُدًا طِفْلًا، مَاتَ أَبُوهُ مُنْذُ أَيَّامٍ، بَعْدَ أَنْ حَمَلَهُ الْأَمَانَةَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ، وَتَرَكَهُ حَزِينًا مُرْتَبِكًا، وَحِيدًا فِي عَشِّهِ، الَّذِي بَنَاهُ لَهُ بَيْنَ أَغْصَانِ شَجَرَةِ يَسْمِينٍ، تَتَسَلَّقُ جِدَارَ قَصْرِ الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِيِّ (الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ)!!

وَقَدْ بَنَى الْأَبُ عَشَّهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ لِيَكُونَ قَرِيبًا مِنَ الْخَلِيفَةِ وَمِنْ مَجْلِسِهِ، حَيْثُ يَسْمَعُ وَيَتَّبِعُ أَخْبَارَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيَطَّلِعُ عَلَى أخطَرِ الْقَرَارَاتِ، فَقَدْ كَانَتْ شَجَرَةُ الْيَاسْمِينِ تَتَسَلَّقُ الْجِدَارَ، وَتُحِيطُ بِالشُّرْفَةِ الْكَبِيرَةِ لِمَجْلِسِ الْحُكْمِ، الَّتِي اعْتَادَ الْخَلِيفَةُ أَنْ يَقِفَ فِيهَا، وَيَرْنُو بِبَصَرِهِ مُتَطَلِّعًا إِلَى بَسَاتِينِهِ الْوَاسِعَةِ، وَخُصُوصًا عِنْدَمَا يَكُونُ مَشْغُولَ الْبَالِ بِفِكْرَةٍ مُهِمَّةٍ، أَوْ بِقَرَارٍ خَطِيرٍ.

كَانَ الْهُدْهُدُ الطِّفْلُ لَا يَزَالُ جَالِسًا فِي عَشِّهِ، حَزِينًا عَلَى وَالِدِهِ، مَهْمُومًا بِالْأَمَانَةِ

الَّتِي تَعَهَّدَ بِحَمَلِهَا، وَهُوَ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَحْمِلُهَا!!

وَبَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ فِي التَّفَكِيرِ وَالِدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ لِكَيْ يُوفِّقَهُ وَيُعِينَهُ، إِذَا بِصَوْتِ

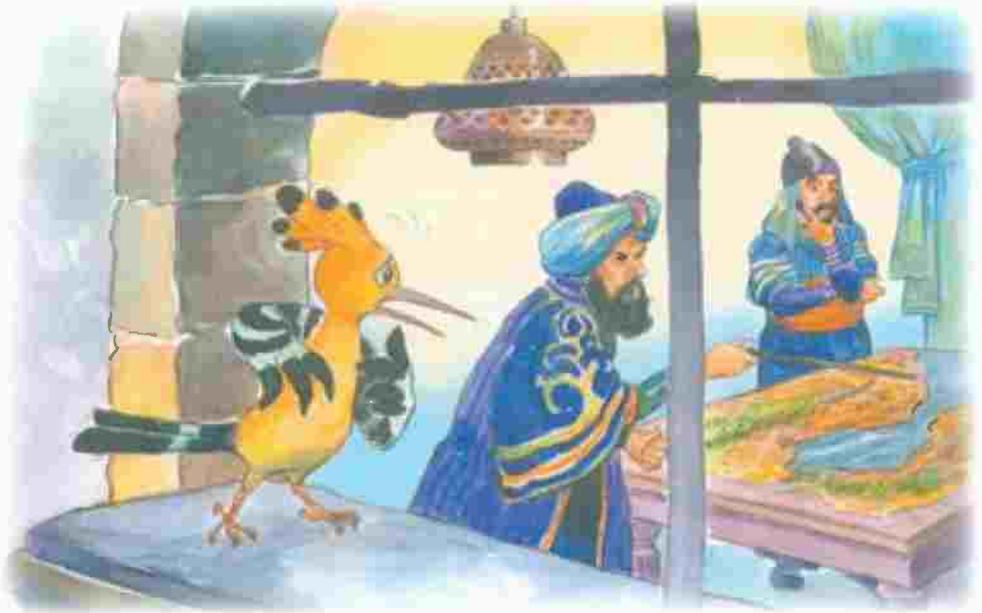
الْخَلِيفَةِ يَأْتِيهِ مِنْ دَاخِلِ الْقَاعَةِ، وَهُوَ يَأْمُرُ الْقَائِدَ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ بِفَتْحِ الْأَنْدَلُسِ!!

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي يَسْمَعُ فِيهَا الْهُدْهُدُ كَلِمَةَ (فَتْح) وَكَلِمَةَ

(أَنْدَلُسَ). فَهَلِ الْأَنْدَلُسُ هَذِهِ بَيْتٌ أَوْ حِرَانَةٌ أَوْ صُنْدُوقٌ سَيَفْتَحُهَا الْقَائِدُ



دَفَى الْهُدَى النَّظْرَ فَوَجَدَ مَجْسَمًا مَلُوتًا، مَضْمُونًا عَلَى سِكِّ شَاكِي
 يُسْتَرُ الْخَلِيقَةَ، وَيَهْرُ رَأْسَهُ سَمْعًا وَطَاعَةً.
 مَجْسَمٌ مَوْضُوحٌ عَلَى الطَّاوِيلِ، وَالْحَى خَائِبٌ يَهْفُ الْفَاعِلُ بِأَمْعَانٍ جَنِيحَ
 كَانِ الْخَلِيقَةَ وَأَقْبَا طَائِلًا كَثِيرَةً وَفِي تَدَا عَصَا رُفْعَةٍ، يُسْتَرُ إِلَى الْيَوْمِ دُجْ
 وَحَطَّ عَلَى سُوقِهِ الْفَاعِلُ، لِيَرَى وَيَسْمَعُ بِوَضُوحٍ.
 أَقَابَ الْهُدَى مِنْ أَجْرَانِهِ، وَاسْتَيْطَعَتْ كُلَّ حَوَاسِّهِ، وَعَلَى الْفُورِ طَارَ مِنَ الْفُورِ
 الْخَلِيقَةَ بِنَفْسِهِ بِأَمْرِ عَظِيمٍ قَادَهُ خَيْرٌ شَيْءٍ أَنْ يَهْتَبَهُ، مَا هَذَا الشَّيْءُ يَا تَرِي !!
 مَوْسَى بِالْمَقْتَدِحِ !! لَا تَدَّ أَنْ هَذَا الصَّبِيحُ فِيهِ شَيْءٌ مَهْمٌ جَدًّا لِلدَّرَجَةِ الْيَا



صَحْرَاءَ، وَأَحْجَارٍ عَلَى شَكْلِ جِبَالٍ، وَمَاءٍ عَلَى شَكْلِ بَحْرِ، وَنَمَاجٍ مُصَعَّرَةٍ لِيُوتِ
 وَفُضُورٍ وَبَسَاتِينَ رَائِعَةَ الْجَمَالِ. وَفَهُمْ أَنَّ الْأَنْدُلُسَ لَيْسَ خِرَازَنَةً وَلَا صُنْدُوقًا، وَإِنَّمَا
 هِيَ تِلْكَ الْبِلَادُ الَّتِي تَقَعُ عَلَى هَذَا الْبَحْرِ، عَلَى الشَّاطِئِ الْمُقَابِلِ لِبِلَادِ الْمَغْرِبِ
 الْمُسْلِمَةِ، وَفَهُمْ أَنَّ الْخَلِيفَةَ يَشْرُحُ لِلْقَائِدِ كَيْفَ يَفْتَحُ هَذِهِ الْبِلَادَ بِالْعَزْوِ وَالْهَجُومِ،
 وَأَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ يَعْيشُ فِيهَا نَاسٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الطَّيِّبِينَ، وَلَكِنْ يَحْكُمُهَا مُلُوكُ
 وَمَرَاءٍ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ الْأَعْدَاءِ، الَّذِينَ يَعْتَدُونَ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا بُدَّ مِنْ
 هَزِيمَةٍ هُوَ لِأَيِّ الْأَعْدَاءِ الْجَبَابِرَةِ، وَضَمَّ هَذِهِ الْبِلَادَ إِلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لَكِنِّي يَنْعَمُ
 أَهْلُهَا بِالرِّخَاءِ وَالسَّلَامِ.

وَلَمَّا انْتَهَى الْخَلِيفَةُ مِنْ شَرْحِ حُطَّتِهِ وَضَعَ عَصَاهُ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَقَالَ لِلْقَائِدِ مُوسَى:

لَقَدْ عَيَّنْتُكَ وَالْيَا عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ لَكِنِّي تَقِيمُ فِيهَا دَعَائِمَ الْعَدْلِ وَالسَّلَامِ،
 وَعَيَّنْتُكَ وَالْيَا عَلَى الْأَنْدَلُسِ أَيْضًا، بَعْدَ فَتْحِهَا، وَلَيْكُنْ جَيْشُ الْفَتْحِ بِقِيَادَةِ تَلْمِيذِكَ
 الشَّابِّ الْبَطْلِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، الَّذِي اخْتَرْتَهُ أَنْتَ، هَيَّا أَيُّهَا الْقَائِدُ الشُّجَاعُ الْمُخْلِصُ،
 هَيَّا تَجَهَّزْ لِلْعُودَةِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ لِتُكْمِلَ عَمَلَكَ، وَاشْرَحْ هَذِهِ الْخُطَّةَ لِطَارِقِ كَمَا
 شَرَحْتَهَا لَكَ، وَأَبْلِغْهُ أَوْامِرِي أَنْ يُجَهِّزَ جَيْشَهُ أَفْضَلَ تَجْهِيزٍ، وَلَا يُقَاتِلَ إِلَّا الْجُنُودَ
 الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُ. أَمَّا أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُسَالِمِينَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ
 بِالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، وَالرِّفْقِ وَالرَّحْمَةِ، الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا الْإِسْلَامَ.

رِحْلَةٌ إِلَى مَغَارِبِ الشَّمْسِ

كَانَ الْهَدْهُدُ الصَّغِيرُ يُتَابِعُ كُلَّ ذَلِكَ وَقَلْبُهُ يَدُقُّ بِقُوَّةٍ مِنْ شِدَّةِ
 الْإِنْفِعَالِ، وَعِنْدَمَا انصَرَفَ الْقَائِدُ مُوسَى، وَاتَّجَهَ الْخَلِيفَةُ إِلَى
 الشُّرْفَةِ كَعَادَتِهِ، طَارَ الْهَدْهُدُ بِسُرْعَةٍ، وَحَطَّ فَوْقَ قِمَّةِ
 أَحَدِ أَبْرَاجِ الْحِرَاسَةِ، وَوَقَفَ قَلِيلًا يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ
 وَيُفَكِّرُ: هَلْ يَظُلُّ فِي مَكَانِهِ قَرِيبًا مِنَ الْخَلِيفَةِ لِتَتَابِعَ
 الْأَخْبَارَ، أَمْ يَذْهَبُ فِي صُحْبَةِ الْقَائِدِ مُوسَى لِشَاهِدِ
 بِنَفْسِهِ الْأَحْدَاثَ وَالْوَقَائِعَ؟!

وَدُونَ تَرُدُّدٍ، قَرَّرَ الْهَدْهُدُ أَنْ يَكُونَ بِصُحْبَةِ الْقَائِدِ



مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ. وَعَلَى الْفُورِ، طَارَ مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ بُرْجِ الْحِرَاسَةِ، لِيَحُطَّ عَلَى شُرْفَةِ
الْقَاعَةِ الَّتِي يَنْزِلُ فِيهَا الْقَائِدُ مُوسَى.

كَانَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ وَاقِفًا وَسَطَ الْقَاعَةِ، يَأْمُرُ مُسَاعِدِيهِ بِسُرْعَةِ التَّجْهِزِ لِلْعُودَةِ فِي
الْحَالِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ يُنَادِي كَاتِبَهُ، وَيُمْلِي عَلَيْهِ رِسَالَةً مُوجَّهَةً إِلَى طَارِقِ بْنِ
زِيَادٍ، يَأْمُرُهُ فِيهَا بِأَنْ يَسْرِعَ فَوْرًا فِي تَجْهِيزِ الْجَيْشِ، وَيُبَلِّغُهُ فِيهَا بِكُلِّ أَوْامِرِ الْخَلِيفَةِ.
وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَى مُوسَى مِنْ إِمْلَاءِ الرِّسَالَةِ، أَمَرَ أَحَدَ مُسَاعِدِيهِ أَنْ يَحْمِلَهَا،
وَيَنْطَلِقَ بِهَا فِي الْحَالِ إِلَى طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ.

وَمَرَّةً أُخْرَى وَقَفَ الْهُدْهُدُ الطُّفْلُ يُفَكِّرُ، وَهُوَ فِي قِمَّةِ الْإِنْفَعَالِ: هَلْ يَبْقَى
بِحِوَارِ مُوسَى، أَوْ يَنْطَلِقُ بِصُحْبَةِ حَامِلِ الرِّسَالَةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى طَارِقِ؟!
وَفِي النِّهَايَةِ، قَرَّرَ أَنْ يَطِيرَ فَوْرًا إِلَى طَارِقِ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ تَصِلَهُ الرِّسَالَةُ، فَقَدْ كَانَ
مَتَلَهِّفًا لَمْ لِمَعْرِفَةِ هَذَا الْقَائِدِ الْجَدِيدِ الَّذِي اخْتَارَهُ مُوسَى، وَوَافِقَ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةَ،
لِيَقُومَ بِهَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ!!

لَمْ يَكُنِ الْهُدْهُدُ الصَّغِيرُ يَعْرِفُ أَيَّنَ بِلَادُ الْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّهُ فَكَّرَ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ: مَا
دَامَ اسْمُهَا بِلَادَ الْمَغْرِبِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ نَاحِيَةَ الْعُرُوبِ».

وَعَلَى الْفُورِ طَارَ عَنِ الشُّرْفَةِ وَحَطَّ عَلَى قِمَّةِ بُرْجِ الْحِرَاسَةِ، وَأَخَذَ يَنْظُرَ إِلَى
الْأَفُقِ الْبَعِيدِ: هُنَا تَغْرُبُ الشَّمْسُ، هَذَا هُوَ الْإِتِّجَاهُ. ثُمَّ أَحْنَى رَأْسَهُ وَأَخَذَ يُصَلِّي،
وَيَدْعُو اللَّهَ، بِالِدُّعَاءِ نَفْسِهِ الَّذِي كَانَ يَسْمَعُهُ دَائِمًا مِنْ وَالِدِهِ:

« يَا رَبِّ، أَنْتَ رَبُّ الْكَوْنِ الْعَظِيمِ، أَنْتَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، أَنْتَ مَنْ فِي يَدِكَ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ، وَأَنَا عَبْدُكَ الضَّعِيفُ، فَسَاعِدْنِي، وَاهْدِ جَنَاحِي وَقَلْبِي إِلَى طَرِيقِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَوَفِّقْنِي لِكُلِّ مَا يُرْضِيكَ عَنِّي. »
 ثُمَّ اعْتَدَلَ، وَقَالَ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَأَطْلَقَ جَنَاحَيْهِ بِاتِّجَاهِ الْغَرْبِ، يُرْفِرُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ فِي الْفَضَاءِ.

اسْتَعْرَقَتْ رِحْلَةَ الْهُدُودِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ، لَمْ يَكُنْ يَنَامُ خِلَالَهَا إِلَّا سَاعَاتٍ قَلِيلَةً، وَلَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّفُ عَنِ الطَّيْرَانِ إِلَّا لِلْحَطَّاتِ، عِنْدَمَا يَشْتَدُّ بِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَسُرْعَانَ مَا كَانَ يُعَاوِدُ الطَّيْرَانِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ.

أَيْنَ طَارِقٌ؟

مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَصَلَ الْهُدُودُ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، فَحَطَّ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ، وَمِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ نَامَ نَوْمًا عَمِيقًا، رَغَمَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَلَمْ يَسْتَيْقِظْ إِلَّا مَعَ تَبَاشِيرِ الْفَجْرِ الْأُولَى. وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَيْقِظَ كُلُّ الطُّيُورِ كَانَ وَاقِفًا فَوْقَ السُّورِ يُفَكِّرُ:
 كَيْفَ أَهْتَدِي إِلَى طَارِقٍ؟ وَكَيْفَ أَعْرِفُهُ؟ يَا رَبِّ! سَاعِدْنِي.

أَحَسَّ الْهُدُودُ بِبَطْنِهِ تُوَلَّمُهُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَطَارَ عَنِ السُّورِ مُنْطَلِقًا إِلَى النَّبْعِ، حَيْثُ الْمَاءُ وَالْأَرْضُ الرُّطْبَةُ الْغَنِيَّةُ بِالطَّعَامِ، وَمَا كَادَ يَحُطُّ بِرِجْلَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ،

وَبَثَّرُ بِمِنْقَارِهِ نَقْرَتَيْنِ، حَتَّى رَأَى فِتَاتَيْنِ تَقْتَرِبَانِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا تَحْمِلُ جِرَّةً، لِيَتَمَلَّأَهَا
بِالْمَاءِ وَهُمَا تَتَضَاكِحَانِ.

وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ السَّعِيدَةُ عِنْدَمَا سَمِعَ إِحْدَاهُمَا تَقُولُ لِلْآخَرَى: لَا أَسْتَطِيعُ
الْإِنْتِظَارَ مَعَكَ، لَا بُدَّ أَنْ أَمْضِيَ سَرِيعًا؛ لِأَنَّ سَيِّدِي طَارِقًا يَنْتَظِرُنِي بِالْمَاءِ، لِكَيْ
يَتَوَضَّأَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ.

قَفَزَ الْهُدْهُدُ فِي مَكَانِهِ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، وَهُوَ يَصِيحُ: هَذَا هُوَ الْخَيْطُ، هَذَا هُوَ
الْخَيْطُ الَّذِي سَيُوصِلُنِي إِلَى طَارِقِ.

وَتَأْتِي لِمَتَابَعَةِ الْفِتَاةِ الَّتِي حَمَلَتِ الْجِرَّةَ فَوْقَ رَأْسِهَا، وَأَنْطَلَقَتْ مُسْرِعَةً فِي
طَرِيقِهَا.



طَارَ الْهُدْهُدُ خَلْفَ الْفَتَاةِ، وَأَخَذَ يَتَّبِعُهَا، وَهِيَ تَمْضِي مِنْ شَارِعٍ إِلَى شَارِعٍ،
حَتَّى وَجَدَهَا تَخْرُجُ مِنْ بَوَابَةِ الْمَدِينَةِ، وَتَتَّجِعُ إِلَى الصَّخْرَاءِ!! انْدَهَشَ الْهُدْهُدُ
الصَّغِيرُ مِنْ تَصَرُّفِ الْفَتَاةِ، وَلَكِنَّ دَهْشَتَهُ لَمْ تَدُمْ طَوِيلًا، فَبَعْدَ قَلِيلٍ، لَمَحَ خَيْمَةً بِي
الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، وَحِيدَةً فَوْقَ الرَّمَالِ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَزَادَتْ دَهْشَتُهُ
عِنْدَمَا وَجَدَ هَذَا الْمَكَانَ شَبِيهَا جِدًّا بِالنَّمُودَجِ الْمُصَغَّرِ، الَّذِي كَانَ أَمَامَ الْخَلِيجَةِ
الْوَلِيدِ وَالْقَائِدِ مُوسَى!!

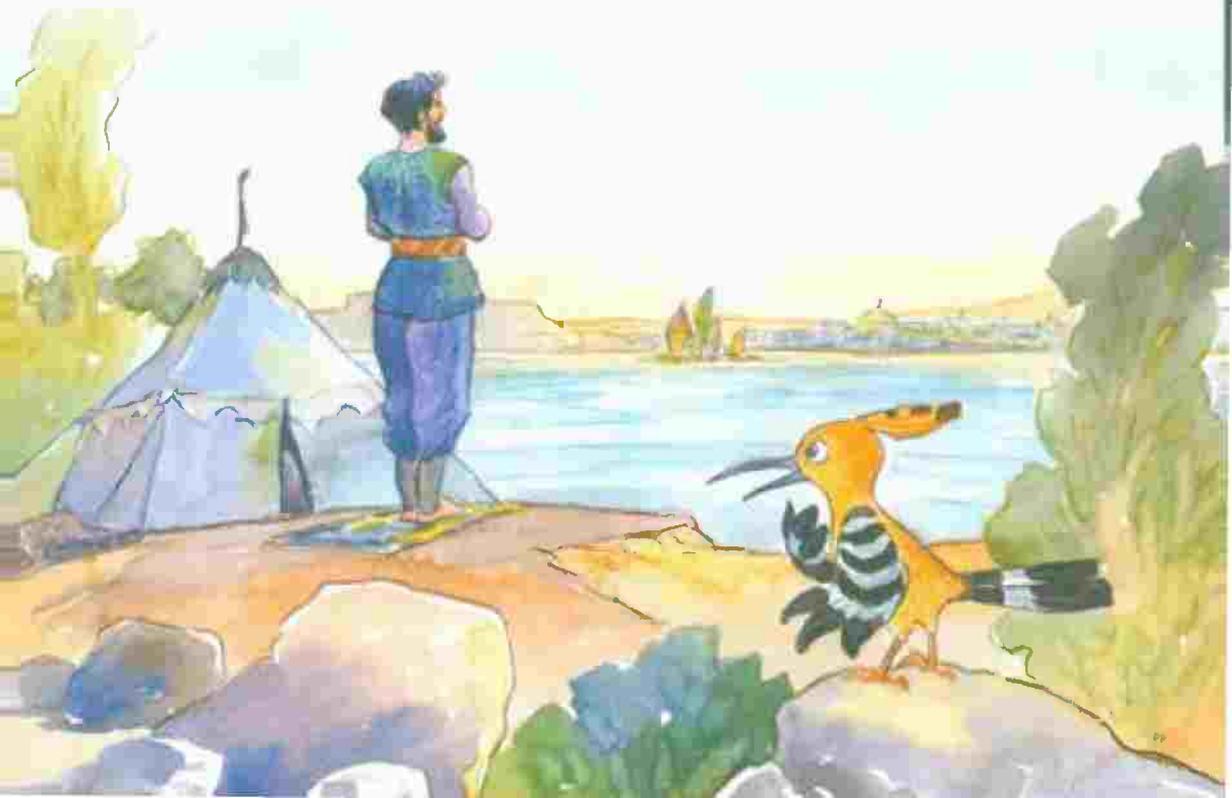
عِنْدَمَا اقْتَرَبَتِ الْفَتَاةُ مِنَ الْخَيْمَةِ، خَرَجَ لَهَا شَابٌّ نَحِيلٌ وَسِيمٌ، فِي مَلَامِحَةٍ هَوَّةٌ
وَصَرَامَةٌ، وَفِي عَيْنَيْهِ ذِكَاءٌ وَطِيبَةٌ وَعَطْفٌ، فَلَمَّا رَأَاهُ الْهُدْهُدُ، هَتَفَ فِي سِرِّهِ:

هَذَا هُوَ!! يَا إِلَهِي، هَذَا هُوَ طَارِقُ بَنِ زِيَادٍ، لَوْ قَابَلْتَهُ وَخُدِي لَعَرَفْتُهُ مِنْ مَلَامِحِهِ،
دُونَ أَنْ يَدُلَّنِي أَحَدٌ عَلَيْهِ، إِنَّهَا مَلَامِحُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ الشَّهْمِ!!

مَدَّ طَارِقُ يَدَهُ الْقَوِيَّةَ فَحَمَلَ الْجِرَّةَ عَنِ الْفَتَاةِ، وَشَكَرَهَا بِابْتِسَامَةٍ حَائِنَةٍ، فَأَحْنَتْ
لَهُ رَأْسَهَا، وَاسْتَدَارَتْ لِتَعُودَ مِنْ حَيْثُ آتَتْ. أَمَّا طَارِقٌ، فَانْتَحَى بِالْجِرَّةِ جَائِبًا،
وَأَنْحَنَى عَلَى الْأَرْضِ قَلِيلًا، وَأَخَذَ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ اعْتَدَلَ، وَتَوَجَّهَ نَاحِيَةَ الْقِبْلَةِ، وَوَقَفَ
بِقَدَمَيْهِ الْحَافِيئَيْنِ عَلَى الرَّمَالِ يُصَلِّي. وَالْهُدْهُدُ وَقَفَ عَلَى بُعْدِ خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ
مِنْهُ، يَتَأَمَّلُ مَلَامِحَهُ الْقَوِيَّةَ الصَّارِمَةَ، وَهِيَ تَتَحَوَّلُ، أَمَامَ اللَّهِ، إِلَى مَلَامِحِ ضَعْفٍ
وَخُسُوعٍ وَمَذَلَّةٍ، دُمُوعٌ تَجْرِي مَعَ كُلِّ آيَةٍ، وَصَوْتٌ يَتَحَشَّرُجُ مَعَ كُلِّ دُعَاءٍ!!

وَلَا زَالَ طَارِقٌ يُصَلِّي، وَيَدْعُو اللَّهَ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّصْرِ، حَتَّى أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ،
وَخَضَعَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا. فَوَقَفَ مُنْتَصِبًا كَالرَّمْحِ، مُوجِّهًا بَصَرَهُ نَاحِيَةَ الشَّاطِئِ
الْآخِرِ، حَيْثُ الْأَنْدَلُسُ، الْبِلَادُ الَّتِي يَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا، وَيَنْتَظِرُ بِكُلِّ شَوْقٍ وَأَمَلٍ، أَنْ يَصِلَ
أَمْرَ الْخَلِيفَةِ لَهُ بِفَتْحِهَا.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَمَّتْ الْهُدُودُ لَوْ كَانَ طَارِقٌ يَفْهَمُ لُغَتَهُ وَكَلَامَهُ، لَكَانَ أَبْلَغَهُ
بِائْتِبَاءِ الَّذِي يُفْرِحُ قَلْبَهُ!!



اجتماع القيادة



التفت طارق ناظرًا ناحية المدينة، كنه
 يترقب شيئًا، فإذا بسحابة من الغبار تبدو
 في البعيد، أخذت تقترب وتقترب، وما هي إلا لحظات حتى انقشعت
 أمام الخيمة، وخرج منها خمسة فرسان أشداء فوق جيادهم. تهللت أسارير طارق
 لرؤيتهم، وفتح لهم ذراعيه يستقبلهم استقبال الأخ والصديق.
 دخل الفرسان الخيمة مع طارق، وأسدلوا خلفهم بابها، وفي الخارج
 وقف الهدهد يسمع بكل انصات وتركيز، والأصوات تأتيه واضحة في سكون
 الصحراء:

- نحن جاهزون تمامًا.
- كل الرجال في انتظار إشارتك في أية لحظة.
- لم نعد نطبق الانتظار يا طارق.
- ألم يأت أي خبر حتى الآن؟!
- أكاد أموت غيظًا من هؤلاء المسيحيين المتجبرين، الذين لا يتوقفون عن
 الإساءة إلينا وإلى ديننا، والاعتداء على بلادنا.
 وفي هذه اللحظة ارتفع صوت طارق حادًا غاضبًا:
- لا تقل: المسيحيين، بل قل: الصليبيين.

- وَمَا الْفَرْقُ يَا طَارِقُ؟!

- الْفَرْقُ كَبِيرٌ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَالْمَسِيحِيُّونَ أَهْلُ كِتَابٍ، وَاتِّبَاعُ دِينِ سَمَاوِيٍّ يَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنَ التَّسَامُحِ وَالسَّلَامِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْبَشَرِ جَمِيعًا؛ وَلِذَا فَهَمُّ أَقْرَبِ النَّاسِ مَوَدَّةً لَنَا، وَقَدْ أَمَرْنَا الْإِسْلَامُ بِأَنْ نُعَامِلَهُمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْحُكَّامُ الصَّلِيبِيُّونَ فَهُمْ مُنَافِقُونَ يَكْرَهُونَ الْمَسِيحِيَّةَ كَمَا يَكْرَهُونَ الْإِسْلَامَ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ حُمَاةُ الصَّلِيبِ لِكَيْ يُخْفُوا أَطْمَاعَهُمْ، وَجَشَعَهُمْ وَتَجَبَّرَهُمْ، وَظَلَمَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَعْدَاؤُنَا، الَّذِينَ لَا بُدَّ أَنْ نَكْسِرَ شَوْكَتَهُمْ؛ صِيَانَةً لَنَا وَلِدِينِنَا، وَلِلْمَسِيحِيِّينَ وَلِدِينِهِمْ أَيْضًا.

وَسَادَتْ لَحْظَةٌ صَمْتٍ، بَعْدَهَا جَاءَ الصَّوْتُ يَعْتَذِرُ وَيَقُولُ:

- سَامِعْنِي يَا سَيِّدِي! لَمْ أَكُنْ أَفْصِدُ.

- لَسْتُ سَيِّدَكَ، أَنَا أَخُوكَ، وَلَسْتُ غَاضِبًا مِنْكَ، إِنَّمَا قَصَدْتُ أَنْ أَصْحَحَ خَطَأً، وَأَنْ أُوضِحَ لَكَ وَلِلْجَمِيعِ مَوْقِفَنَا الصَّحِيحَ، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ نُجَاةَ إِخْوَانِنَا الْمَسِيحِيِّينَ، فَغَدًا، إِذَا كُتِبَ لَنَا التَّصَرُّ، سَنَكُونُ مَسْئُولِينَ عَنْهُمْ أَمَامَ اللَّهِ.

- سَلَّمَ اللَّهُ لِسَانَكَ يَا طَارِقُ.

- وَلَكِنْ هَلْ سَنَبَقِي هَكَذَا نَتَفَرَّجُ؟!

- تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا.
- هَذَا مَا طَلَبْتُمْ مِنْ أَجْلِهِ.
- نَحْنُ جَاهِزُونَ، فَبِمَاذَا تَأْمُرُنَا؟

وَسَادَتْ لِحِظَةً صَمْتٌ، بَعْدَهَا جَاءَ صَوْتُ طَارِقٍ هَادِتًا وَاضِحًا:

- يَجِبُ الْأَنْضِيعَ وَقِتَا فِي الْإِنْتِظَارِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَعِدَّ لِلْهُجُومِ مِنَ الْآنَ، حَتَّى إِذَا صَدَرَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ نَكُونُ جَاهِزِينَ. وَأَهْمُ خُطْوَةٍ نَقُومُ بِهَا هِيَ مَعْرِفَةُ أَعْدَائِنَا، وَمَوَاطِنَ قُوَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَمَعْرِفَةَ الْمَيْدَانِ الَّذِي سَنُحُوضُ فِيهِ مَعَارِكَنَا. لِذَا أُرِيدُ مِنْكُمْ تَشْكِيلَ سَرِيَّةٍ اسْتِطْلَاعٍ مِنْ جُنُودِنَا الْأَذْكِيَاءِ الْأَشِدَاءِ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ لُغَةَ الْأَنْدَلُسِ، وَيُجِيدُونَ التَّعَامُلَ مَعَ أَهْلِهَا، يَتَخَفَّوْنَ فِي ذِي التُّجَارِ وَالصُّنَاعِ وَأَرْبَابِ الْحَرْفِ، لِكَيْ يَدْخُلُوهَا مُتَسَلِّلِينَ، يَنْدَسُونَ بَيْنَ النَّاسِ لِيَسْتَطْلِعُوا أَحْوَالَهُمْ، وَأَحْوَالَ الْجَيْشِ وَالْقِلَاعِ وَالْأَبْرَاجِ، وَنِقَاطِ الْمُرَاعَبَةِ، وَطُرُقِ الْمُواصَلَاتِ، وَخُطُوطِ الْإِمْدَادِ، وَأَبَارِ الْمِيَاهِ، وَكُلِّ شَيْءٍ يَسْتَطِيعُونَ مَعْرِفَتَهُ عَنْهُمْ، حَتَّى نَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، قَبْلَ أَنْ نَخْطُوَ آيَةَ خُطْوَةٍ.

لُعْبَةٌ بِالْحَصَى تُغَيِّرُ وَجْهَ التَّارِيخِ!!

انْتَهَى الْاجْتِمَاعُ، وَخَرَجَ الْفَرَسَانُ الْخَمْسَةُ، فَامْتَطَوْا جِيَادَهُمْ، وَانْطَلَقُوا عَابِدِينَ

بِسُرْعَةٍ، كَمَا جَاءُوا، فِي سَحَابَةٍ مِنَ الْغُبَارِ!!

أَمَّا طَارِقٌ فَقَدْ وَقَفَ أَمَامَ الْخَيْمَةِ يُودِّعُهُمْ، وَيَلْوِخُ لَهُمْ بِيَدِهِ، ثُمَّ عَادَ وَجَلَسَ

عَلَى رُكْبَتَيْهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَأَخَذَ يَزْسُمُ عَلَى الرَّمَالِ خُطُوطًا
 بِإِصْبَعِهِ، وَيَضَعُ عَلَيْهَا حَصَوَاتٍ صَغِيرَةً وَكَبِيرَةً، ثُمَّ يَنْقُلُ الْحَصَوَاتِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى
 مَكَانٍ، وَيَمْحُو بَعْضَ الْخُطُوطِ، وَيَزْسُمُ غَيْرَهَا، وَيَضَعُ عَلَيْهَا حَصَوَاتٍ أُخْرَى،
 كُنْ ذَلِكَ وَالْهُدُودُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مُنْذِهِشًا مِمَّا يَفْعَلُ، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُدُودًا
 طِفْلًا قَلِيلَ الْخِبْرَةِ!! وَهَذَا مَا قَالَهُ الْهُدُودُ الصَّغِيرُ عَنْ نَفْسِهِ فِيمَا بَعْدُ، عِنْدَمَا جَلَسَ
 يَحْكِي لِابْنِهِ حِكَايَتَهُ مَعَ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، وَكَانَ يَتَسَمُّ وَيَقُولُ:
 لَمْ أَكُنْ أَذْرِكُ، فِي هَذِهِ السَّنِّ يَا وَلَدِي، أَنَّ مَا يَزْسُمُهُ طَارِقُ بِإِصْبَعِهِ، وَيَضَعُ
 عَلَيْهِ الْحَصَوَاتِ، مَا هُوَ إِلَّا خُطَطٌ لِلْمَعَارِكِ الَّتِي سَتَعَيَّرُ وَجْهَ التَّارِيخِ!!



وَهَذَا ابْتِسَامَ صَدِيقِي الْهُدْهُدُ ابْتِسَامَةً صَافِيَةً، وَقَالَ: كَانَ الْهُدْهُدُ الطُّفْلُ مَبْهُرًا
بِشَخْصِيَّةِ طَارِقٍ، وَكَانَ عَلَى حَقِّ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ طَارِقٌ قَائِدًا عَبْقَرِيًّا، أَذْهَشَ
بِشَجَاعَتِهِ الْأَعْدَاءَ وَالْأَصْدِقَاءَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، فَقَدْ عَبَّرَ الْبَحْرَ لِيَفْتَحَ الْأَنْدَلُسَ وَلَيْسَ
مَعَهُ سِوَى سَبْعَةِ آلَافِ جُنْدِيٍّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُوجِهُ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ جُنُودِ الْأَعْدَاءِ،
وَعِنْدَمَا رَسَتْ مَرَاكِبُهُ، وَنَزَلَ الْجُنُودُ عَلَى شَاطِئِ الْأَنْدَلُسِ، وَأَنْزَلُوا سِلَاحَهُمْ
وَوَطَعُوا مَهْمُومًا، قَامَ طَارِقٌ فَفَعَلَ شَيْئًا غَرِيبًا عَجِيبًا، بَدَأَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى عَمَلًا جُنُوبًا
بِكُلِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ، فَقَدْ أَمَرَ بِإشْعَالِ النَّارِ فِي كُلِّ الْمَرَاكِبِ، وَإِحْرَاقِهَا جَمِيعًا!!
كَانَتْ دَهْشَةُ الْجُنُودِ لَا حُدُودَ لَهَا، وَظَنُّوا أَنَّ قَائِدَهُمُ الْعَبْقَرِيَّ قَدْ أَصَابَهُ الْجُنُونُ
فَجَأَةً!! أَمَا الْهُدْهُدُ الطُّفْلُ، فَقَدْ أَخَذَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: (هَذَا جُنُونٌ.. جُنُونٌ)، وَهُوَ
يَطِيرُ إِلَى الْبَحْرِ، فَيَمْلَأُ مِنْقَارَهُ بِالْمَاءِ، وَيَزِمُّهُ عَلَى النَّارِ، لَعَلَّهُ يُطْفِئُهَا!! وَكَأَنِّي
عَمَلِيهِ هَذَا أَنْ يَحْتَرِقَ بِالنَّارِ وَيَمُوتَ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ إِلَّا عِنْدَمَا وَجَدَ طَارِقًا يَقِفُ أَمَامَ
جُنُودِهِ وَفَنَّةِ الْبَطْلِ وَيَقُولُ:

الآن، لَيْسَ لَدَيْنَا مَرَاكِبُ نَهْرُبُ فِيهَا، فَالْعُدُوُّ أَمَامَنَا، وَالْبَحْرُ خَلْفَنَا، وَلَيْسَ
لَدَيْنَا خِيَارٌ، إِمَّا أَنْ نَتَّصِرَ وَنَعِيشَ عَيْشَةَ الْكِرَامِ، وَإِمَّا أَنْ نَمُوتَ مِثْلَ الشُّهَدَاءِ.
وَكَانَ لِهَذِهِ الْحِيلَةِ، وَلِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، أَعْظَمُ الْأَثْرِ فِي نَفُوسِ الْجَمِيعِ.
فَأَمَّا جُنُودُ طَارِقٍ، فَقَدْ مَلَأَتْهُمْ رُوحُ الشَّجَاعَةِ وَالِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.
وَأَمَّا الصَّلِيبِيُّونَ، فَقَدْ دَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبُ، وَأَذْرَكُوا أَنَّهُمْ مَهْزُومُونَ لَا مَحَالََةَ!!

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ الْمَسِيحِيُّونَ الطَّيِّبُونَ الْمُسَالِمُونَ فَقَدْ اسْتَبَشَرُوا خَيْرًا بِهَذَا
الْجَيْشِ، وَبِقَائِدِهِ الْبَطَلِ، الَّذِي سَيَخْلُصُهُمْ مِنْ حُكَامِهِمِ الظُّلْمَةِ الْمُتَجَبِّرِينَ، وَيُنْشُرُ
فِي بِلَادِهِمُ الْعَدْلَ وَالسَّلَامَ.
وَهَذَا مَا كَانَ....

فَبِهَذِهِ الْقُوَّةِ الصَّغِيرَةِ، وَبِهَذِهِ الشَّجَاعَةِ الْكَبِيرَةِ، تَقَدَّمَ طَارِقُ مِنْ مَعْرَكَةٍ إِلَى
مَعْرَكَةٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، يَسْحَقُ الْأَعْدَاءَ، وَيُمَزِّقُ الصُّفُوفَ، وَيَرْفَعُ رَايَاتِ
النَّصْرِ وَالْعَدْلِ فَوْقَ الْأَبْرَاجِ، وَلَا زَالَ يَتَّقِلُ مِنْ نَصْرِ إِلَى نَصْرٍ، وَمِنْ فَتْحٍ إِلَى فَتْحٍ،
حَتَّى ضَمَّ هَذِهِ الْبِلَادَ إِلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.



أَيْنَ الْأَنْدَلُسِ؟!

سَأَلْتُ صَدِيقِي الْهُدْهُدَ: وَأَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادُ؟

فَقَالَ: هِيَ مَا يُعْرَفُ الْآنَ بِأَسْبَانِيَا .

سَأَلْتُهُ: وَلِمَاذَا غَيَّرُوا اسْمَهَا، لَقَدْ كَانَ «الْأَنْدَلُسُ» اسْمًا جَمِيلًا؟

فَقَالَ الْهُدْهُدُ بِصَوْتِ حَزِينٍ: غَيَّرُوا اسْمَهَا لِأَنَّهَا لَمْ تُعَدِّ بِلَادًا إِسْلَامِيَّةً، لَمَّا

اسْتَرَدَّهَا الصَّلِيبِيُّونَ، وَقَضَوْا عَلَى الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ فِيهَا.

أَصَابَنِي الْفَزَعُ، وَسَأَلْتُهُ مُنْذِهْشًا: وَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟ وَأَيْنَ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ؟!

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، جَرَّتِ الدُّمُوعُ فِي عَيْنِي الْهُدْهُدِ، وَتَحَشَّرَ صَوْتُهُ، وَهُوَ

يَقُولُ: رَاحَ طَارِقُ ضَحِيَّةَ الْفِتَنِ وَالْأَطْمَاعِ، وَغِيَابِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَمَلَتْ

بِحَسْرَتِهِ وَحَيْدًا فَقِيرًا مُعْدِمًا، لَا يَجِدُ لُقْمَةً يَأْكُلُهَا، وَلَا ثَوْبًا يَلْبَسُهُ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ فَتْحَ

الْأَنْدَلُسِ بِعَشْرِ سَنَوَاتٍ. أَمَّا الْأَنْدَلُسُ فَسَقَطَتْ وَضَاعَتْ لِتَفْسِ الْأَسْبَابِ بَعْدَ ثَمَانِ

مِئَةِ سَنَةٍ مِنَ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ!! وَفَرَّ مُعْظَمُ أَهْلِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ

بَقِيَ مِنْهُمْ أَجْبَرَهُ الصَّلِيبِيُّونَ عَلَى تَرْكِ الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا قَتَلُوهُ ذَبْحًا وَحَرْقًا وَصَلْبًا

وَسَنْقًا وَغَرْقًا، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ!!

اقْشَعَرَ بَدَنِي، وَصَرَخْتُ بِصَوْتِ مَكْتُومٍ: كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ؟! كَيْفَ يَحْدُثُ

ذَلِكَ؟!

وَلَمْ يَتَمَالَكِ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ، وَتَقَطَّعَ صَوْتُهُ، وَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، وَسَادَتْ لِحْظَةٌ

مِنَ الصَّامِتِ الْحَزِينِ، كُنْتُ خِلَالَهَا أَتَحَيَّلُ الْبَطْلَ طَارِقَ بِنِ زِيَادٍ وَأَقِفًا عَلَى بَابِ
الْمَسْجِدِ بِمَلَابِسِهِ الرَّثِيَّةِ، يَمُدُّ يَدَهُ لِلنَّاسِ، يَطْلُبُ مِنْهُمْ الصَّدَقَةَ، وَأَسْأَلُ نَفْسِي
بِغَشْيَةٍ: وَكَيْفَ تَرَكَهُ النَّاسُ يَفْعَلُ ذَلِكَ؟! أَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ؟ وَكَيْفَ يَظْلِمُهُ
الْخَلِيفَةُ كُلُّ هَذَا الظُّلْمِ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْبَطْلُ!؟



السؤال الصعب

وَأَلَحَّ عَلَيَّ السُّؤَالُ فَخَرَجَ مِنِّي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: وَكَيْفَ يَظْلِمُهُ الْخَلِيفَةُ الْوَلِيدُ
كُلَّ هَذَا الظُّلْمِ، بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ البُطُولَاتِ!؟

التفت إليَّ الهدهد، ومسح دموعه في صمادته، وقال: لم يكن الوليد هو الذي
ظلمه، بل كان أخوه سليمان بن عبد الملك، ولي العهد. فالذي حدث أن طارقاً
بعد أن أتم فتح الأندلس، جهز قافلة كبيرة، حمل فيها الغنائم والأسرى من أمراء
الصليبيين، واتجه بها إلى الشام، لكي يقدمها إلى الخليفة الوليد، ويعلن أمامه أنه
أتم فتح الأندلس.

وفي هذه الأثناء، مرض الوليد مرضاً شديداً، وأحس الجميع أنه يقترب من
الموت، وكان طارق قد اقترب بقافلته كثيراً من الشام، فأرسل إليه سليمان يأمره
بالتوقف، وعدم دخول الشام لمقابلة الوليد الآن (بسبب مرضه الشديد!!)، وفهم
طارق الحيلة الخبيثة، فقد كان سليمان يريد الانتظار حتى يموت الوليد، ويصبح
هو الخليفة، فيجلس على العرش، ويتسلم الغنائم والأسرى، وينسب لنفسه فتح
الأندلس، فيقول الناس:

تم فتح الأندلس في عهد سليمان بن عبد الملك!!
ولذلك لم يتوقف البطل طارق بن زياد، ولم يتفد أمر سليمان، بل مضى في



طَرِيقَهُ مُسْرِعًا حَتَّى دَخَلَ قَصْرَ الْحُكْمِ، وَوَقَفَ أَمَامَ الْوَلِيدِ وَهُوَ عَلَى سَرِيرِ الْمَرَضِ
 وَنَفَقَ الْجُنْدِيُّ الشُّجَاعِ الْمُخْلِصِ أَمَامَ قَائِدِهِ، لِيَقُولَ: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا يَا مَوْلَايَ بِفَتْحِ
 الْأَنْدَلُسِ، شَفَاكَ اللَّهُ وَعَافَاكَ، وَجَعَلَ هَذَا الْفَتْحَ فِي مَوَازِينِ حَسَنَاتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
 وَبِالطَّبْعِ، فَقَدْ أَمَرَ الْوَلِيدُ بِتَكْرِيمِ طَارِقٍ، وَإِقَامَةِ احْتِفَالٍ كَبِيرٍ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ.
 وَكَانَ الدُّنْيَا لَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ يَا وَلَدِي، فَبَعْدَ شُهُورٍ قَلِيلَةٍ عَاشَهَا طَارِقٌ مُعَزَّرًا
 مُكْرَمًا، مَاتَ الْوَلِيدُ، وَتَوَلَّى سُلَيْمَانَ الْخِلَافَةَ، وَهُوَ يَحْمِلُ لِطَارِقٍ كُلَّ حَقْدٍ
 وَتَكْرَاهِيَةٍ، فَكَانَ أَوَّلَ قَرَارٍ يَتَّخِذُهُ، هُوَ وَضَعَ طَارِقٍ فِي السَّجْنِ، وَتَجْرِيدَهُ مِنْ كُلِّ
 أَمْلاكِهِ وَأَمْوَالِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنَ السَّجْنِ وَأَمَرَ بِعِزْلِهِ، وَمَنْعِ النَّاسِ مِنَ الْإِتِّصَالِ بِهِ أَوْ
 مُسَاعَدَتِهِ، وَمَنْ يُخَالِفْ ذَلِكَ يَنْتَظِرُهُ عِقَابٌ شَدِيدٌ!!

صَرَخْتُ فِي غَضَبٍ: ظَلَمٌ ... ظَلَمٌ ... ظَلَمٌ.

ابْتَسَمَ الْهُدْهُدُ فِي حُزْنٍ وَقَالَ: قُلْتُ لَكَ يَا وَلَدِي إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ،
وَالظَّالِمُونَ قَدْ تَعَرَّضُوا قُوَّتَهُمْ لِبَعْضِ الْوَقْتِ، وَيَنْسَوْنَ أَنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ اللَّهَ أَعْدَلَ
الْعَادِلِينَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يَنْسَى عِبَادَهُ الْمَظْلُومِينَ، فَيَجْعَلُ لَهُمْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا،
وَيَجْعَلُ لَهُمْ مَنْ يَرُدُّ عَنْهُمْ الظُّلْمَ، وَيُقِيمُ فِيهِمُ الْعَدْلَ، وَهَذَا مَا حَدَّثَ

قُلْتُ فِي لَهْفَةٍ: مَاذَا حَدَّثَ؟

فَالْتَفَتَ الْهُدْهُدُ نَاحِيَةَ الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ: لِمَ تَعْدُبِي
طَاقَةً عَلَى الْكَلَامِ. لَا بُدَّ أَنْ أَنَامَ، وَعَدَا، إِذَا اسْتَجَابَ اللَّهُ لِذَعَائِكَ، وَبَقِيَتْ حَيًّا،
فَسَاحِكِي لَكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ دَعْنِي أَنَّمِ الْآنَ.

وَأَخَذَ الْهُدْهُدُ يَتَرَنَّحُ فِي جِلْسَتِهِ، وَكَأَنَّهُ أَصِيبَ بِالِدَّوَارِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَسْقُطَ
عَلَى الْأَرْضِ، فَحَمَلْتُهُ بِكَفِّيَّ عَلَى صَدْرِي، وَعَدْتُ بِهِ مُسْرِعًا إِلَى الْبَيْتِ، وَوَضَعْتُهُ
فِي الْقَفْصِ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الْعَرِسَةَ تُرَاقِبُنَا، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ
مِنْ خَلْفِ رُجَاجِ شُبَاكِي.

أَحْكَمْتُ إِغْلَاقَ بَابِ الْقَفْصِ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَأَحْكَمْتُ إِغْلَاقَ بَابِ الْعُرْفَةِ أَيْضًا،
وَعَدْتُ لِأَطْمَئِنَّ عَلَى الْهُدْهُدِ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ غَابَ عَنِ الْوُعْيِ!!

حُلمُ الجِنِّيَّةِ

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلَا كَيْفَ
نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ وَحَلُمْتُ....

وَفِي الحُلمِ، رَأَيْتُ نَفْسِي وَاقْفًا وَخَدِي عِنْدَ شَاطِئِ
النَّيْلِ تَحْتَ شَجَرَةِ الثُّوتِ، وَقَدْ مَلَأَنِي الخَوْفُ مِنْ جِنِّيَّةِ
الْبَحْرِ الَّتِي تَسْكُنُ هُنَا تَحْتَ المَاءِ، وَتَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ لِتَحْطِفَ الأَوْلَادَ الَّذِينَ
يَقْتَرِبُونَ مِنْ بَيْتِهَا، كَمَا كَانَتْ تَقُولُ لِي جَدَّتِي.

نَظَرْتُ إِلَى جَانِبِي، فَوَجَدْتُ (عَمَّ إِبرَاهِيمَ) الدَّرْوِيشَ المِسْكِينَ، الَّذِي يَأْتِي
إِلَى بَيْتِنَا كَثِيرًا، وَدَائِمًا مَا تُكَلِّفُنِي أُمِّي أَنْ أَحْمِلَ لَهُ الطَّعَامَ. وَجَدْتُهُ جَالِسًا عَلَى
الأَرْضِ بِمَلَابِسِهِ الرِّثِيَّةِ، وَشَعْرِهِ الأَشْعَثِ المُجَعَّدِ، وَعُكَّازُهُ بِجَانِبِهِ. لَسْتُ أَدْرِي
لِحَاذًا شَعَرْتُ أَنَّهُ طَارِقُ بِنُ زِيَادِ، بَلْ كُنْتُ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ هُوَ!! وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، عَادَ
أَصْحَابِي، وَفِي يَدِ كُلِّ مِنْهُمْ بَضْعَةٌ أَحْجَارٍ صَغِيرَةٍ، أَحْذَنَا نَقْدُفُهَا فِي النَّيْلِ بِقُوَّةٍ
كَعَادَتِنَا، وَنَقُولُ: يَا أُمَّ سُلَيْمَانَ، حَلِّقِي بَانَ لِكَي نَغِيظَ الجِنِّيَّةَ، فَتَخْرُجَ إِلَيْنَا.
كُنَّا عَادَةً مَا نَفْعَلُ ذَلِكَ، وَمَعَ أَوَّلِ اهْتِرَازَةٍ نُلَاحِظُهَا عَلَى صَفْحَةِ المَاءِ، كُنَّا نَطِيرُ
هَدِيرِينَ.

أَمَّا الآنَ، فَقَدْ فَارَ المَاءُ أَمَانًا، وَارْتَجَّتِ الأَرْضُ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِنَا، وَخَرَجَتْ
لَنَا الجِنِّيَّةُ (أُمَّ سُلَيْمَانَ)، خَرَجَتْ غَاضِبَةً بِشَكْلِهَا المُرْعَبِ الَّذِي وَصَفْتُهُ لِي جَدَّتِي:

أَظَافِرُهَا طَوِيلَةٌ مِثْلُ السَّكَاكِينِ، وَشَعْرُهَا مَنْفُوشٌ مِثْلُ جَرِيدِ النَّحْلَةِ، وَلَهَا عَيْنَانِ
كَبِيرَتَانِ حَمْرَاوَانِ بِلَوْنِ الدَّمِ، عَمِيقَتَانِ مِثْلُ حُفْرَتَيْنِ يَنْطَايِرُ مِنْهُمَا الشَّرْرُ.

انطَلَقَ الْأَوْلَادُ هَارِيَيْنِ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، أَمَا أَنَا فَقَدْ تَسَمَّرْتُ فِي مَكَانِي، لَا
أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْرَكَ رِجْلِي، وَالْجَبِيَّةُ خَارِجَةٌ إِلَيَّ لِكَيْ تَخْطِفَنِي، وَتَعُوضَ بِي فِي
النَّيْلِ. الْتَفْتُ إِلَى طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ، لِكَيْ يُنْقِذَنِي، فَوَجَدْتُهُ قَدْ اخْتَفَى، وَالْجَبِيَّةُ تَقْتَرِبُ
مِنِّي بِطُءٍ، وَهِيَ تُصَدِّرُ صَوْتًا مِثْلَ الزَّرِيرِ وَالْفَحِيحِ مَعًا، وَتُصَفِّقُ بِيَدَيْهَا تَصْفِيقَاتٍ
مُتَّابِعَةً تَزِيدُنِي رُغْبًا.

حَاوَلْتُ أَنْ أَصْرُخَ، فَلَمْ يَخْرُجْ صَوْتِي. أَغْمَضْتُ عَيْنِي، وَأَخَذْتُ أَنْهَارًا عَلَى
الْأَرْضِ بِبُطْءٍ. اسْتَفْرَقَ وَقُوعِي عَلَى الْأَرْضِ زَمَانًا طَوِيلًا، وَصَوْتُ التَّصْفِيقَاتِ
يَسَارِعُ وَيَتَعَالَى، وَيَقْتَرِبُ وَيَقْتَرِبُ....

وَصَحَوْتُ مِنَ الْحُلْمِ!!

صَحَوْتُ لِأَجْدِ نَفْسِي نَائِمًا فِي سَرِيرِي أَنْصَبَّ عَرَقًا، وَالْعُضْفُورَةُ تَنْفُرُ زُجَاجَ
السُّبَّابِ بِكُلِّ قُوَّتِهَا، التَّمَّتْ إِلَى الْهُدْهِدِ، فَوَجَدْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِقَلْقٍ، وَلَمْ أَجِدْهُ مُبَسِّسًا
كَعَادَتِهِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ.

فَتَحَّتْ السُّبَّابُ لِلْعُضْفُورَةِ؛ فَدَخَلَتْ وَمَعَهَا زَقَزَقَتُهَا الْعَاضِبَةُ، وَلَمْ تَدْخُلْ مَعَهَا
نَسْمَةُ الصَّبَاحِ الْمُعَطَّرَةِ، فَقَدْ تَأَخَّرْتُ فِي النَّوْمِ، وَازْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فِي السَّمَاءِ،
مَسَحَتْ عَرَقِي بِسُرْعَةٍ، وَفَتَحَتْ بَابَ قَفْصِ الْهُدْهِدِ، وَمَدَدَتْ لَهُ كَفِّي لِأَحْمَدِ،



وَأَمَّا أَحْوَالُ أَنْ أَسْتَرِدَّ نَفْسِي، لَأَكُونَ لَطِيفًا، فَقُلْتُ لَهُ مُدَاعِبَةً: لَا زِلْتُ حَيًّا يَا جَدِّي،
 أَطَالَ اللَّهُ فِي عُمْرِكَ!!
 وَكَمَا أَفْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ، حَمَلْتُ الْهُدْهُدَ إِلَى شَاطِئِ النَّيْلِ، وَتَجَاهَلْتُ الْأَمْرَ كُلَّهُ
 إِشْفَاقًا عَلَيْهِ، فَلَمْ أَحْكِ لَهُ الْكَابُوسَ الَّذِي عَشْتُهُ فِي مَنَامِي، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيَّ
 بِقَبْحٍ.

شَرَعُ الْوَفَاءِ

أَكَلَ الْهُدْهُدُ وَشَرِبَ أَقْلَ مِنَ الْمُعْتَادِ، وَبَدَأَ لِي ضَعِيفًا شَاحِبًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ،
 شَعَرْتُ بِالْقَلْقِ فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَتَكَلَّمِ الْيَوْمَ إِذَا كُنْتَ مُتَعَبًا، وَدَعْنَا نَكْمِلُ الْحِكَايَةَ غَدًا.

فَابْتَسَمَ لِي ابْتِسَامَةً شَاحِبَةً، وَهَزَّ رَأْسَهُ، وَقَالَ: لَيْسَ لَدَيَّ وَقْتُ يَا وَلَدِي، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَحْكِيَهُ لَكَ كَثِيرٌ كَثِيرٌ، وَالْوَقْتُ قَلِيلٌ، وَلِذَا سَأَخْتَارُ مِنْهُ الْأَهَمَّ، وَسَأُخْتَصِرُ فِيهِ قَدْرًا مَا أَسْتَطِيعُ، هَيَّا اجْلِسْ يَا وَلَدِي، وَلَا تَنْسَ شَيْئًا مِمَّا أَقُولُهُ لَكَ.

قَالَ الْهُذْهُدُ ذَلِكَ وَهُوَ يَعْتَدِلُ فِي جِلْسَتِهِ عَلَى الْغُضَنِ، فَجَلَسْتُ أَمَامَهُ، وَنَدِ اسْتَيْقَظْتُ كُلَّ حَوَاسِي لَسَمَاعِ بَقِيَّةِ حِكَايَةِ جَدِّهِ الْهُذْهُدِ الْطُفْلِ مَعَ الْفَارِسِ الْبَصَلِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ.

تَنَهَّدَ الْهُذْهُدُ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ:

ظَلَّ جَدِّي طَوَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ وَفِيَّ لِطَارِقٍ، لَا يَنْقَطِعُ عَنْ زِيَارَتِهِ، فِي خَيْمَتِهِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا وَحِيدًا فِي الصَّحْرَاءِ، حَتَّى صَارَ الصَّدِيقَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَنْتَظِرُ طَارِقَ زِيَارَتِهِ، وَيَأْتِنِسُ بِوُجُودِهِ، وَيَتَحَدَّثُ أَمَامَهُ بِكُلِّ صِرَاحَةٍ، وَكَأَنَّهُ يَكَلِّمُ نَفْسَهُ، وَيَقُولُ: صَدَّقْنِي يَا هُذْهُدُ، أَنَا لَسْتُ حَزِينًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِي، فَأَنَا قَدْ تَصَرَّفْتُ بِمَا يُمْلِيهِ عَلَيَّ ضَمِيرِي وَوَجِيبِي نَحْوَ الْخَلِيفَةِ الَّذِي بَايَعْتَهُ، وَأَقْسَمْتُ عَلَى الْوَلَاءِ لَهُ، وَلَسْتُ نَادِمًا عَلَى ذَلِكَ، بَلْ أَنَا مُرْتَاحٌ الضَّمِيرِ تَمَامًا، وَلَوْ تَكَرَّرَ هَذَا الْمَوْقِفُ عَشْرَ مَرَّاتٍ لَتَصَرَّفْتُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا، وَلَكِنَّ مَا يُحْزِنُنِي أحيانًا أَنْ بَعْضَ مَنْ كَانُوا أَصْدِقَائِي يَتَحَدَّثُونَ عَنِّي بِتَهْكُمٍ وَسُخْرِيَةٍ، وَيَقُولُونَ إِنِّي كُنْتُ أَطْمَعُ أَنْ أَكُونَ وَالِيًا عَلَى الْأَنْدَلُسِ!! وَمَا الْعَيْبُ فِي ذَلِكَ؟! نَعَمْ كُنْتُ أُرِيدُ، وَكَانَ حَقِّي؛ فَأَنَا مَنْ فَتَحَ الْأَنْدَلُسَ، وَأَنَا أَكْثَرُ مَنْ يَعْرِفُهَا. أَنْظِرِ الْآنَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، إِنَّهُمْ يُرْسِلُونَ إِلَيْهَا

وَبَلَاءَ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنْهَا وَلَا عَنْ أَهْلِهَا، وَلَا عَنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، وَمَاذَا كَانَتِ
التَّيْجَةُ؟ أَنْتَ تَعْرِفُ التَّيْجَةَ، عِضْيَانٌ بَعْدَ عِضْيَانٍ، وَتَمْرُدٌ بَعْدَ تَمْرُدٍ، وَفَوْضَى فِي
كُلِّ مَكَانٍ. أَنْظُرْ، وَتَخَيَّلْ لَوْ كُنْتُ أَنَا الْوَالِيَّ، تَخَيَّلْ يَا هُدُودُ.....)

وَرَعَمَ هَذَا الْوَفَاءِ، إِلَّا أَنَّ الْأَحْدَاثَ الْخَطِيرَةَ الَّتِي بَدَأَتْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، كَانَتْ
تَحْعَلُ الْهُدُودَ يَتَغَيَّبُ كَثِيرًا عَنْ صَاحِبِهِ طَارِقٍ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْضِيَ وَقْتًا طَوِيلًا
عَمَى سُبُكِ غُرْفَةِ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ، لَيْسَ فَقَطْ لِمُتَابَعَةِ حَالَتِهِ الصَّحِيَّةِ، الَّتِي تَدْهُورَتْ
كَثِيرًا، وَلَكِنْ أَيْضًا، لِمُتَابَعَةِ هَذَا السِّرِّ الْخَطِيرِ الَّذِي سَيَقْلِبُ الدَّوْلَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ رَأْسًا
عَمَى عَقِبٍ!!



السِّرُّ الْخَطِيرُ

ذَاتَ صَبَاحٍ، كَانَ الْهُدُودُ وَاقِفًا بِسُبَّانِكِ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ، كَعَادَتِهِ فِي تِلْكَ الْآيَامِ،
فَرَأَهُ نَائِمًا فِي سَرِيرِهِ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ عِلَامَاتُ النَّهَائَةِ، وَعَلَى كُرْسِيِّ بِجَانِبِ السَّرِيرِ،
يَجْلِسُ رَجُلٌ وَقُورٌ، اسْمُهُ (رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ)، يَعْرِفُهُ الْهُدُودُ جَيِّدًا، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ أَقْرَبُ
النَّاسِ إِلَى الْخَلِيفَةِ، وَأَخْلَصُهُمْ لَهُ، وَأَخْرَصُهُمْ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَصْلَحَةِ الدَّوْلَةِ، وَهُوَ
مُسْتَشَارُهُ، وَمَوْضِعُ ثِقَتِهِ الْكَامِلَةِ، وَالْمُؤْتَمَنُ عَلَى أخطَرِ أَسْرَارِهِ؛ وَلِذَلِكَ فَهِيَ أَكْثَرُ
مَنْ يَحْتَرِمُهُ الْأَمْرَاءُ وَالْكَبَرَاءُ.

أَشَارَ الْخَلِيفَةُ بِيَدِهِ فَخَرَجَ كُلُّ مَنْ فِي الْعُرْفَةِ مِنَ الْخَدَمِ وَالْجَوَارِي، وَبَقِيَ هُوَ
وَرَجَاءُ وَحَدَهُمَا. اقْتَرَبَ رَجَاءُ، وَأَنْحَى عَلَى الْخَلِيفَةِ، لِيَسْمَعَ صَوْتَهُ الضَّعِيفَ:

- حَانَتْ سَاعَةُ النَّهَائَةِ يَا رَجَاءُ.

- أَطَالَ اللَّهُ عُمْرَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

- هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ، وَلَوْ دَامَتِ الدُّنْيَا لِمَخْلُوقٍ، لَدَامَتْ لِسَيِّدِ الْخَلْقِ.

- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

- لَقَدْ طَلَبْتُكَ لِتُشِيرَ عَلَيَّ فِي أَمْرٍ مَنْ أختَارُهُ خَلِيفَةً مِنْ بَعْدِي، حَتَّى أَحْسِمَ الْأَمْرَ

وَأَنَا حَيٌّ، فَلَا يَخْتَلِفُ أَوْلَادِي وَإِخْوَتِي مِنْ بَعْدِي، وَيَتَنَازَعُونَ عَلَيْهَا.

- وَمَنْ اخْتَرْتَ؟

- وَلَدِي.

- وَلَدُكَ غَائِبٌ عَنَّا، لَا نَدْرِي إِنْ كَانَ حَيًّا أَمْ مَيِّتًا.

- وَلَدِي الثَّانِي.

- وَلَدُكَ الثَّانِي صَغِيرٌ، لَا يَتَحَمَّلُهَا.

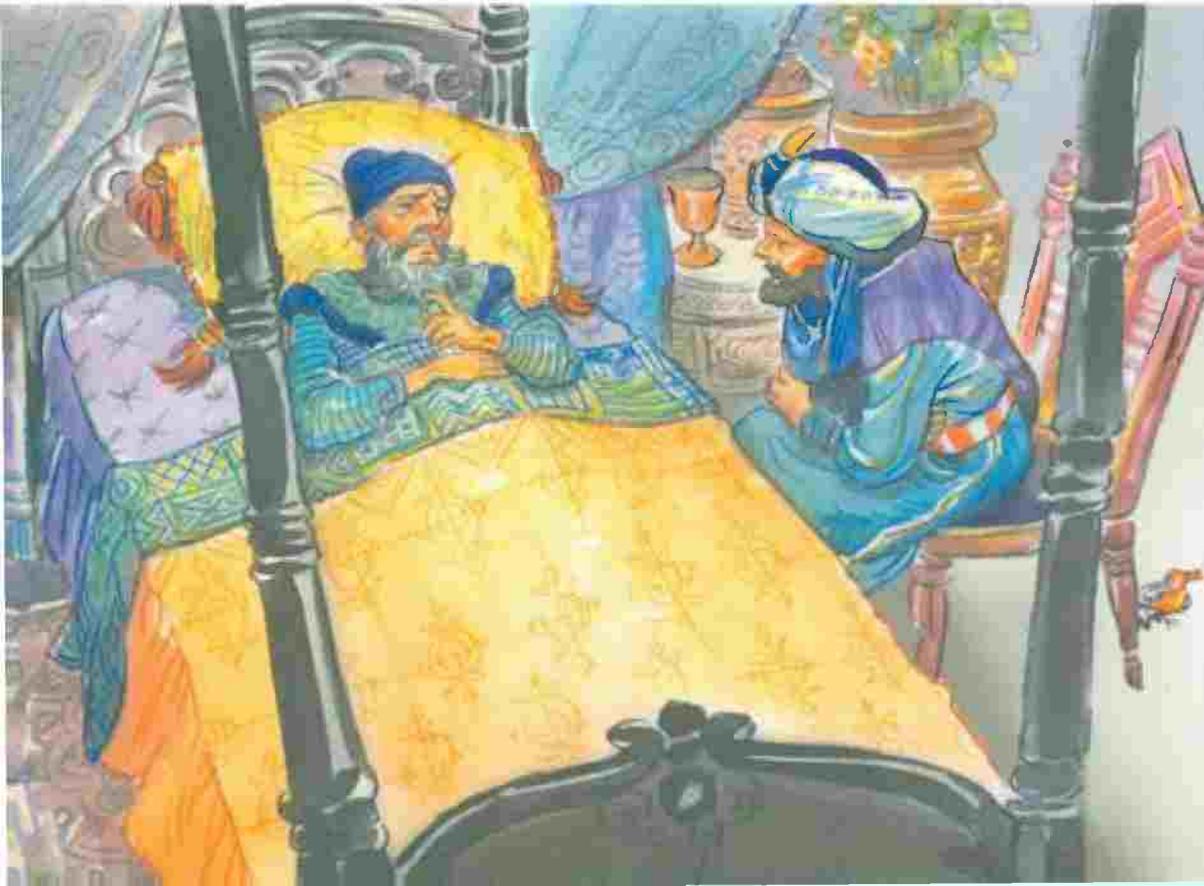
- فَمَنْ إِذَا؟

- عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

- عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ!؟

- نَعَمْ، لِكَيْ تَحْسِمَ بِهِ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ الْأَمْرَاءِ.

- تَقْصِدُ لِكَيْ أَخَوْفَ الْأَمْرَاءَ بِهِ!! سَتَكُونُ كَارِثَةً عَلَيْهِمْ.



- بَلْ سَيَكُونُ فِي ذَلِكَ صَلَاحُهُمْ وَصَلَاحُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ مَا
تُرِيدُهُ، وَمَا يَزَاحُ إِلَيْهِ ضَمِيرُكَ.

- صَدَقْتَ يَا رَجَاءُ، وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا بِهِ.

- نَضَعُهُمْ أَمَامَ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ.

- كَيْفَ؟!

- نَجْعَلُهُمْ يُبَايِعُونَ لَهُ، دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا.

- كَيْفَ يَا رَجَاءُ؟! أَوْضِحْ.

- تَكْتُبُ كِتَابًا، فِيهِ عَهْدٌ مِنْكَ، أَنْ يَكُونَ هُوَ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِكَ، وَتَجْعَلُ الْكِتَابَ

مُغْلَقًا، وَمَخْتُومًا عَلَيْهِ بِخَاتَمِكَ، وَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يُبَايِعُوا الْمَنْ فِي الْكِتَابِ، وَأَنْتَ حَيٌّ،

وَلَا يُفْتَحُ الْكِتَابُ، وَيُعْلَنُ عَنِ اسْمِ الْخَلِيفَةِ الَّذِي اخْتَرْتَهُ، إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِكَ،

أَطَالَ اللَّهُ عُمْرَكَ.

- أَحْسَنْتَ يَا رَجَاءُ، أَحْسَنْتَ، هَيَّا افْعَلْ ذَلِكَ، نَفَّذْ بِسُرْعَةٍ،

فَأَنَا أَشْعُرُ أَنَّ النَّهْيَةَ تَقْتَرِبُ.



مَوْلِدُ نَجْمٍ

كَانَ قَلْبُ الْهُدْهُدِ يَدُقُّ بِقُوَّةٍ، مِنْ شِدَّةِ الْإِنْفَعَالِ وَالْفَرَحِ، وَهُوَ يَتَابِعُ كُلَّ ذَلِكَ،
وَيَرَى رَجَاءً وَهُوَ يَكْتُبُ الْعَهْدَ بِاسْمِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَيَخْتُمُهُ بِخَاتَمِ الْخَلِيفَةِ،
وَيَخْرُجُ مُسْرِعًا كَمَا أَمَرَهُ الْخَلِيفَةُ، فَيَجْمَعُ عَائِلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ كُلَّهَا فِي الْمَسْجِدِ،
وَيُبَلِّغُهُمْ أَمْرَ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُبَايِعُوا لِمَنْ عَاهَدَ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَأَنَّهُ سَيُظَلُّ سِرًّا
مَخْفِيًّا حَتَّى وَفَاتِهِ، أَطَالَ اللَّهُ عُمُرَهُ!!

وَبَعْدَ دَهْشَةٍ وَتَرْدٍ، أَطَاعَ الْجَمِيعُ، وَأَعْلَنُوا بَيْعَتَهُمْ لِمَنْ عَاهَدَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ فِي
هَذَا الْكِتَابِ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، كَانَ الْهُدْهُدُ وَاقْفًا عَلَى إِحْدَى الثَّرَيَاتِ الْمُنْدَلِيَّةِ مِنَ الْقُبَّةِ
الْكَبِيرَةِ، يَرْقُبُ الْأَحْدَاثَ، وَهُوَ فِي قِمَّةِ الْإِنْفَعَالِ.

وَعِنْدَمَا أَعْلَنُوا بَيْعَتَهُمْ، أَخَذَ يَهْلُلُ وَيُكَبِّرُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ؛ فَقَدْ حَسِمَ الْأَمْرَ لِعُمَرَ
ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، الَّذِي يَعْرِفُهُ الْهُدْهُدُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ، وَيَعْرِفُ عَنْهُ مَا لَا يَتَخَيَّلُهُ
أَحَدٌ. فَقَدْ كَانَ الْجَمِيعُ يَعْرِفُونَ عَنْهُ الْإِسْتِقَامَةَ، وَسُمُوَ الْخُلُقِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهُ
شَابًّا أُنَيْقًا، يُحِبُّ حَيَاةَ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ كَمَا يَرَاهُ الْهُدْهُدُ كُلَّ يَوْمٍ،
عِنْدَمَا يَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ، فَيَدْخُلُ غُرْفَتَهُ، وَيُعْلِقُ بَابَهَا، وَيَخْلَعُ كُلَّ مَظَاهِرِ الْأَبْهَةِ، وَيَلْبَسُ
أَبْسَطَ الثِّيَابِ، وَيَقِفُ أَمَامَ اللَّهِ خَاشِعًا ذَلِيلًا، يُصَلِّيُ وَالِدُمُوعَ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ
يَجْلِسُ لِلدُّعَاءِ، وَكَلَّمَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي دُعَائِهِ، أَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، حَتَّى ارْتَجَّ جَسَدُهُ.

عَمْرُ الْجَدِيدِ

وَكَانَ الْهُدْهُدُ، بِمَا لَدَيْهِ مِنْ حِكْمَةٍ وَمَعْرِفَةٍ وَرِثَتِهَا عَنْ أَجْدَادِهِ، يَعْلَمُ عَمَّ
الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الشَّابَّ الْعَارِقَ فِي الثَّرَاءِ وَالْتَرَفِ، سَوْفَ يَتَحَوَّلُ إِلَى مِثَالِ اللَّتَمَشُّفِ
وَالزُّهْدِ، وَإِلَى حَاكِمٍ مِنْ نَوْعِ فَرِيدٍ. وَكَيْفَ لَا، وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ كُلَّ هَذَا الْإِيمَانِ
وَالْحَوْفِ مِنَ اللَّهِ. وَكَيْفَ لَا، وَمِثْلُهُ الْأَعْلَى فِي الْعَدْلِ وَالزُّهْدِ هُوَ جَدُّهُ الْفَارُوقُ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الَّذِي قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ:

وَاللَّهِ لَوْ عَثَرْتُ نَاقَةً فِي الْعِرَاقِ لَسَأَلْتَنِي اللَّهُ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ!!

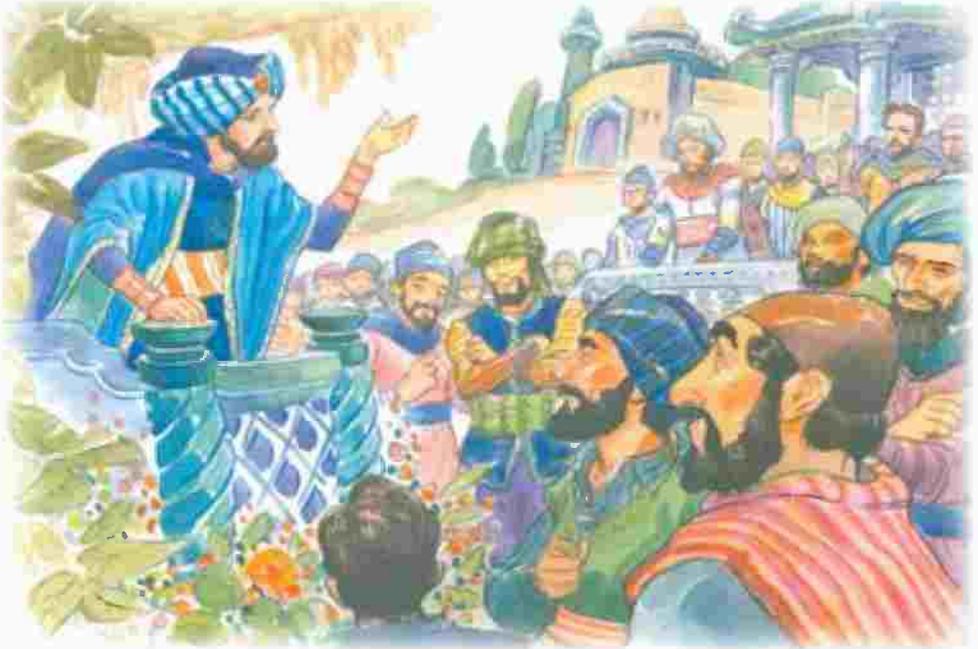
وَهَذَا مَا تَأَكَّدَ مِنْهُ الْهُدْهُدُ، مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِتَوَلِّيهِ الْخِلَافَةَ، عِنْدَمَا وَقَفَ
(رَجَاءً) فِي الْمَسْجِدِ الْكَبِيرِ، لِيُغْلِنَ وَفَاةَ الْخَلِيفَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَيَقْرَأَ كُتَابَ
الْعَهْدِ، مُغْلِنًا هَذِهِ الْمَفَاجَأَةَ، الَّتِي أَذْهَلَتِ الْجَمِيعَ، وَأَذْهَلَتْ عُمَرَ نَفْسَهُ، لِدَرَجَةِ مَهْمَةٍ
ارْتَجَفَ وَأَنْهَارَ عَلَى الْأَرْضِ، لَا يَقْوَى عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى رِجْلَيْهِ، إِحْسَاسًا مِنْهُ بِحَمْلِ
الْمَسْئُولِيَّةِ!!

وَعِنْدَمَا رَفَعَهُ (رَجَاءً) عَنِ الْأَرْضِ، وَدَفَعَهُ إِلَى الْمِنْبَرِ، وَقَفَ يَبْكِي، وَيَخْطُبُ
فِي النَّاسِ خُطْبَةً عَادِلٍ زَاهِدٍ خَائِفٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَخَذَ يَرْجُوهُمْ أَنْ يُعْفُوهُ، وَيَرْحَمُوهُ
مِنْ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَيَخْتَارُوا خَلِيفَةً غَيْرَهُ. فَبَكَى كُلُّ النَّاسِ بُكَاءً شَدِيدًا، حَتَّى
ارْتَجَّتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَحَتَّى ظَنَّ الْبَعْضُ أَنَّ جُدْرَانَ الْمَسْجِدِ كَانَتْ تَبْكِي
مَعَهُمْ!!

وَعَلَّتِ الْأَصْوَاتُ تَهْتَفُ مِنْ دَاخِلِ الْمَسْجِدِ وَمِنْ خَارِجِهِ: لَا نُرِيدُ خَلِيفَةً
سِوَاكَ .. لَا نُرِيدُ خَلِيفَةً سِوَاكَ !!

وَهَتَفَ مَعَهُمُ الْهُدُودُ مِنْ مَكَانِهِ الْمُرْتَفِعِ تَحْتَ الْقُبَّةِ: لَا نُرِيدُ خَلِيفَةً سِوَاكَ !!
وَمِنَ الرَّهْبَةِ، يَتَسَمَّرُ عُمَرُ فِي مَكَانِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَفِي لَحْظَةٍ صَمَّتِ مَهِيْبٌ،
يَتَطَّلَعُ بِعَيْنَيْهِ الدَّامِعَتَيْنِ إِلَى الْجُمُوعِ الَّتِي تَهْتَفُ، جُمُوعِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَرْضَى وَالْيَتَامَى
وَالضُّعْفَاءِ وَالْمَظْلُومِينَ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، وُلِدَ عُمَرُ جَدِيدًا، غَيْرُ عَمَرَ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ. رَأَى الْهُدُودُ
ذِيكَ وَعَرَفَهُ بِوُضُوحٍ، عِنْدَمَا لَاحَظَ أَنَّ ظَهَرَ عَمَرَ قَدْ بَدَأَ يَنْحِنِي انْحِنَاءَ بَسِيطًا، فِي
هَذِهِ اللَّحْظَةِ، هُوَ انْحِنَاءُ التَّوَاضِعِ وَالزُّهْدِ وَالْحُنُوِّ وَالرَّحْمَةِ، وَعَرَفَهُ أَكْثَرَ وَهُوَ يَرَاهُ



يُنزِلُ مِنْ فَوْقِ الْمِنْبَرِ، مُخْتَرِقًا صُفُوفَ الْأَمْرَاءِ

وَالْكُبْرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، مُتَّجِهَاً إِلَى الصُّفُوفِ

الْخَلْفِيَّةِ، صُفُوفِ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ

وَالْمَرْضَى وَالْمَظْلُومِينَ، فَيَسْلُمُ عَلَيْهِمْ

وَاحِدًا وَاحِدًا، ثُمَّ يَتَّجِهَ خَارِجًا مِنَ الْمَسْجِدِ،

فَيُحْضِرُونَ لَهُ الْخُيُولَ الْمُزَيَّنَةَ وَالرَّيَاثَ لِكَيْ

يَرْكَبَ، كَعَادَةِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَيَمُرُّ بَيْنَ جُمُوعِ

النَّاسِ فِي الْمَوْكِبِ الْمَهِيبِ، مُتَّجِهَاً إِلَى قَصْرِ

الْخِلَافَةِ. فَإِذَا بِهِ يَغْضَبُ، وَيَرْفُضُ، وَيَأْمُرُ بِمُصَادَرَةِ كُلِّ

ذَلِكَ، وَوَضَعِهِ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَأْمُرُ خَادِمَهُ

(دِرْهَمًا) أَنْ يُحْضِرَ لَهُ بَعْلَتَهُ، فَيَرْكَبُهَا، وَيَعُودُ بِهَا

وَاحِدًا إِلَى بَيْتِهِ، بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِالْأَيْتَبَعَةِ أَحَدًا !!

الْخَائِفُ مِنَ اللَّهِ

أَمَّا الْهُدْهُدُ، فَكَانَ فِي كُلِّ

ذَلِكَ يَتَّبِعُهُ خُطْوَةَ خُطْوَةً،

حَتَّى وَصَلَ إِلَى



بَيْتِهِ، فَوَقَفَ لَهُ بِالسَّبَّاحِ يَرْفُقهُ وَهُوَ دَاخِلٌ إِلَى غُرْفَتِهِ، يَتَّحِي جَانِبًا، مُتَوَجِّهًا إِلَى
الْقَبْلَةِ يَتَّحِي رَبَّهُ، ثُمَّ يُجْهَسُ بِبُكَاءٍ حَارِقٍ، وَتُسْرِعُ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ، لِتَسْأَلَهُ بِخَوْفٍ
وَأَهْفَةٍ: مَا بِكَ يَا ابْنَ الْعَمِّ؟ مَا بِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

فِيَلْتَفَتْ إِلَيْهَا، وَالذَّمُوعُ تَسَاقَطُ مِنْ لِحْيَتِهِ، وَيَقُولُ: هَذِهِ مُصِيبَتِي يَا فَاطِمَةُ،
صِرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صِرْتُ مَسْؤُولًا عَنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، صِرْتُ مَسْؤُولًا عَنْ كُلِّ فَقِيرٍ
جَائِعٍ، وَكُلِّ مَرِيضٍ ضَائِعٍ، وَكُلِّ يَتِيمٍ مُحْتَاجٍ، وَكُلِّ مَظْلُومٍ مَقْهُورٍ فِي بِلَادِ اللَّهِ.
فَتَقُولُ فَاطِمَةُ وَأَنْتَ لَهَا يَا عُمَرُ.

فَيَقُولُ عُمَرُ، وَقَدْ تَقَطَّعَ صَوْتُهُ بِالْبُكَاءِ: لَيْتَ أُمَّ عُمَرَ لَمْ تَلِدْ عُمَرَ، فَمَاذَا أَقُولُ
لِرَبِّي عِنْدَمَا يَسْأَلُنِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاطِمَةُ؟ وَمَاذَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ إِذَا وَقَفَ
خَصْمًا لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنِّي ظَلَمْتُ أَوْ أَهْمَلْتُ؟ مَاذَا أَفْعَلُ يَا فَاطِمَةُ؟
وَيَبْكِي عُمَرُ، فَتَبْكِي فَاطِمَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَبْكِي الْهُدْهُدُ عَلَى سَبَّاحِهِ!!

الصَّدِيقُ الْبَعِيدُ

وَفِي كُلِّ ذَلِكَ، لَمْ يَنْسَ الْهُدْهُدُ صَدِيقَهُ، الَّذِي يَعِيشُ وَحِيدًا فِي خَيْمَتِهِ فِي
الصَّحْرَاءِ، خَارِجِ الْمَدِينَةِ. فَيَأْتُرِي هَلْ عَرَفَ طَارِقُ بِمَا حَدَثَ؟! لَا بُدَّ أَنَّهُ عَرَفَ؛
فَقَدْ بَدَأَ بَعْضُ الْأَصْدِقَاءِ يَزُورُونَهُ بَعْدَ مَوْتِ سُلَيْمَانَ، غَيْرَ خَائِفِينَ مِنْ عِقَابِهِ، وَلَا
بُدَّ أَنَّهُمْ قَدْ أَخْبَرُوهُ، وَحَكَوْا لَهُ عَنْ عُمَرَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ عَنْهُ مَا يَعْرِفُهُ هُوَ.

وَكَمْ كَانَ الْهَدُودُ يَتَمَنَّى لَوْ يَسْتَطِيعُ طَارِقٌ فَهَمَّ لُغْتِهِ وَكَلَامِهِ، لَكَيْ يَحْكِي لَهُ
عَنْ عُمَرَ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى ثِيَابِهِ الْفَاخِرَةِ، وَيَقُولُ: كَيْفَ أُرْتَدِي هَذِهِ الثِّيَابَ وَفِي أُمَّةٍ
مُحَمَّدٍ مَنْ لَا يَجِدُ مَا يَسْتُرُ بِهِ جَسَدَهُ فِي الشِّتَاءِ؟! وَيَأْمُرُ بِحَمْلِ مَلَابِسِهِ إِلَى بَيْتِ
مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُبْقِي مِنْهَا إِلَّا ثُوبًا وَاحِدًا عَادِيًّا، مِثْلَ مَلَابِسِ بُسْطَاءِ النَّاسِ.
وَيَنْظُرُ إِلَى طَعَامِهِ الْفَاخِرِ، وَيَسْأَلُ: مَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي إِذَا أَكَلْتُ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ،
وَفِي رَعِيَّتِي مَنْ لَا يَجِدُ كِسْرَةً خُبْزٍ يَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ!؟

وَيَنْظُرُ إِلَى قُصُورِهِ وَبَسَاتِينِهِ وَأَمْوَالِهِ، وَإِلَى كُلِّ شَيْءٍ يُمَيِّزُهُ عَنْ فَقْرَاءِ رَعِيَّتِهِ،
وَيَأْمُرُ بِضَمِّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ!!

ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَإِلَى مَا تَرَفُّلَ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ، وَرِثَتَهُ عَنْ أَبِيهَا الْخَلِيفَةِ
عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَيَقُولُ لَهَا بِكُلِّ الْحُبِّ: اخْتَارِي بَيْنَنَا يَا ابْنَةَ الْعَمِّ، فَإِمَّا أَنَا،
وَإِمَّا هَذَا الْمَالِ.

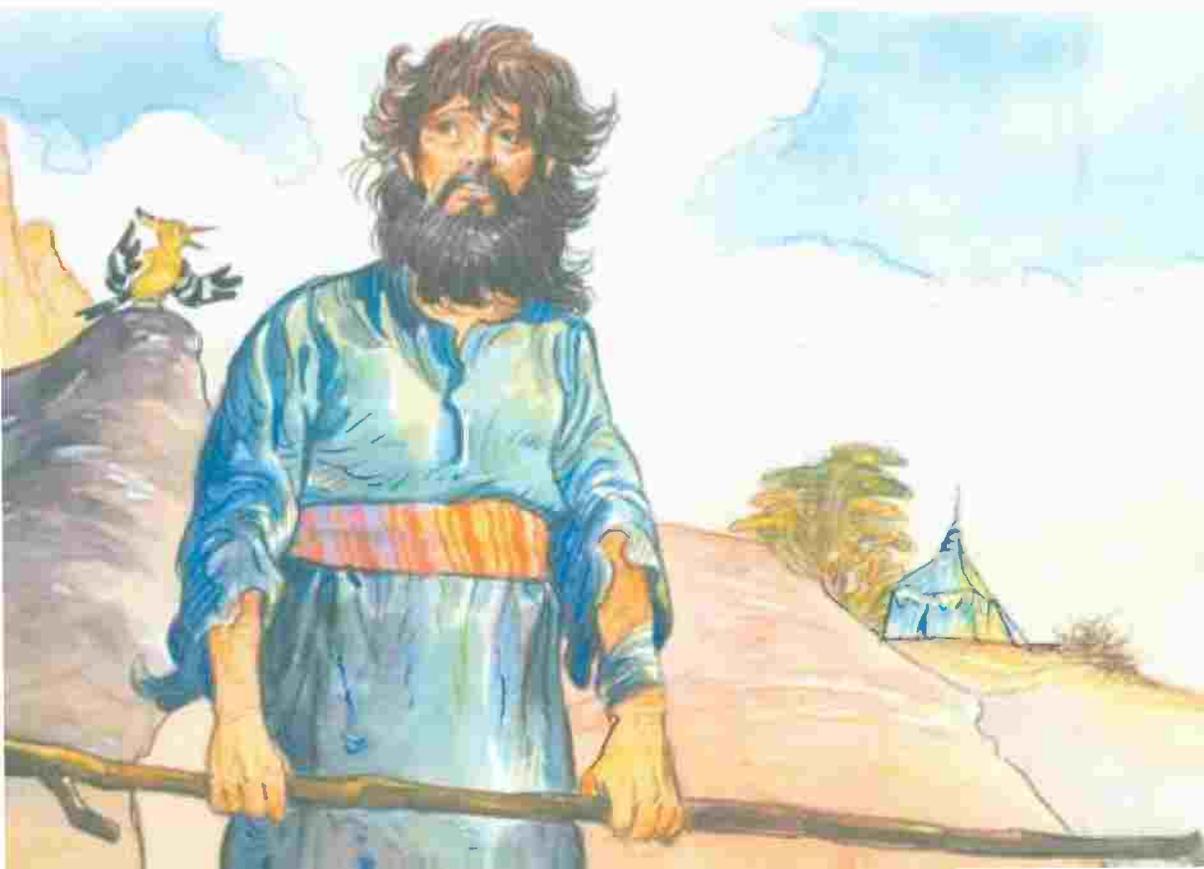
فَتَقُولُ الزَّوْجَةَ الْمُخْلِصَةَ الْوَفِيَّةَ: بَلْ اخْتَارُكَ أَنْتَ يَا أَعَزَّ النَّاسِ.

فَيَأْمُرُ بِحَمْلِ أَمْوَالِهَا، وَرَدَّهَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى الْأَمْرَاءِ وَالْكَبْرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، فَيَأْمُرُ بِإِنْشَاءِ مَحْكَمَةٍ خَاصَّةٍ
بِهِمْ، لَكَيْ يُحَاسِبَهُمْ عَلَى مَا لَدَيْهِمْ مِنْ ثُرَوَاتٍ طَائِلَةٍ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبُوهَا؟ وَكَيْفَ
اِكْتَسَبُوهَا؟ وَيُنَادِي الْمُنَادُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ: مَنْ كَانَتْ لَهُ شَكْوَى مِنْ هَؤُلَاءِ فَلْيَتَقَدَّمْ
بِهَا). وَلَا يَزَالُ يَرُدُّ الْمَطَّالِمَ إِلَى أَصْحَابِهَا، وَإِلَى بَيْتِ الْمَالِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي بِلَادِ

المُسْلِمِينَ مَنْ يَشْكُو مِنْ ظُلْمٍ أَوْ جُوعٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ خَوْفٍ .
وَتَمْضِي الْأَيَّامُ سَرِيعَةً مِثْلَ حُلْمٍ جَمِيلٍ، يَحْيَاهُ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ،
مُسْلِمًا كَانَ أَمْ غَيْرَ مُسْلِمٍ، عَرَبِيًّا كَانَ أَمْ غَيْرَ عَرَبِيٍّ، كَمَا يَحْيَاهُ الْهُدْهُدُ، وَهُوَ يُتَابِعُ
عُمَرَ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، وَيَرَاهُ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ فِي طَرِيقِهِ، يُزِيلُ الظُّلْمَ، وَيُحِلُّ مَحَلَّهُ الْعَدْلَ.
يُزِيلُ الخَوْفَ، وَيُحِلُّ مَحَلَّهُ الْأَمْنَ وَالسَّلَامَ. يُزِيلُ الْفَقْرَ، وَيُحِلُّ مَحَلَّهُ الرِّضَا
وَالْكَرَامَةَ وَالاسْتِغْنَاءَ.

وَهَكَذَا، أَخَذَ الظَّلَامُ يَبْدُدُ، وَأَخَذَتِ مِسَاحَةُ التُّورِ عَلَى الْأَرْضِ تَتَّسِعُ، وَأَخَذَ
عُمَرُ، بَعْدَ لِهِ وَتَقْوَاهُ، يَفْتَحُ قُلُوبَ النَّاسِ، فَتَفْتَحُ لَهُ الْمُدُنُ وَالْمَمَالِكُ دُونَ قِتَالٍ.



أَقُولُ النِّجْمِ

وَتَنهَّدَ صَاحِبِي الْهُدْهُدُ، وَالتَّفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: وَلَكِنَّ دَوَامَ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ يَا
وَلَدِي، وَصُنَاعُ الشَّرِّ، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، يَكْرَهُونَ صُنَاعَ الْخَيْرِ، وَيَتَرَصَّدُونَهُمْ.
وَمَا زَالُوا يَتَرَصَّدُونَ الْخَلِيفَةَ الْعَادِلَ، وَيَتَأَمَّرُونَ عَلَيْهِ لِكَيْ يَقْتُلُوهُ، وَيَتَحَيَّنُونَ
الْفُرَصَ، حَتَّى تَمَكَّنُوا مِنْ دَسِّ السُّمِّ لَهُ فِي طَعَامِهِ، بِيَدِ وَاحِدٍ مِنْ خُدَامِهِ، أَعْرَوْهُ
بِالْمَالِ، فَخَانَ سَيِّدَهُ، الَّذِي كَانَ يُعَامِلُهُ مُعَامَلَةَ الْأَبِ لِوَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ!!

كَانَتْ هَذِهِ أَضْعَبَ اللَّحْظَاتِ فِي حَيَاةِ الْهُدْهُدِ، وَالَّتِي ظَلَّ، طَوَالَ حَيَاتِهِ،
يَرْتَجِفُ كُلَّمَا تَذَكَّرَهَا، وَتَأْتِيهِ فِي الْأَحْلَامِ فَيَتَنَفَّضُ مِنْ نَوْمِهِ مَقْرُوعًا!!، فَقَدْ رَأَى
الْخَادِمَ فِي الْمَطْبَخِ وَهُوَ يَضَعُ السُّمَّ فِي طَعَامِ عُمَرَ، وَرَأَهُ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي عُزْفَتِهِ،
وَهُوَ يُصَلِّي، فَيَقِفُ يَنْتَظِرُهُ، حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، فَيَقْدُمُهُ إِلَيْهِ، وَرَأَى عُمَرَ يَتَسَمَّمُ
لِخَادِمِهِ الْخَائِنِ ابْتِسَامَةَ الْأَبِ الْعَطُوفِ، وَيَقُولُ لَهُ: سَلِمْتَ يَدَاكَ يَا وَلَدِي، لِمَ لَا
تَجْلِسُ وَتَأْكُلُ مَعِي؟ كُلْ مَعِي، أَنْتَ مِثْلُ وَلَدِي.

وَيَرْتَبِكُ الْخَائِنُ، وَيَشْكُرُ سَيِّدَهُ بِصَوْتٍ مُتَلَعِّمٍ، وَيَهُمُّ بِالْإِنْصِرَافِ.
وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمْ يَتِمَّاكَ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ، فَأَخَذَ يَتَقَاَفَرُ فِي الْهَوَاءِ وَيُصَفِّقُ
بِجَنَاحَيْهِ، وَيَصْرُخُ كَالْمَجْنُونِ: لَا تَأْكُلْ يَا عُمَرُ، الطَّعَامَ مَسْمُومًا، لَا تَأْكُلْ، لَا
تَأْكُلْ!!!

وَلَكِنَّ عُمَرَ لَمْ يَفْهَمْ كَلَامَهُ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ غَيْرَ طَائِرٍ مُزِعِجٍ، يُبِيرُ ضَوْضَاءَ لَا



لُزُومَ لَهَا، فَيُسِيرُ إِلَى خَادِمِهِ، لِكَيْ يَطْرُدَهُ، وَيُغْلِقَ الشُّبَّاكَ، فَيَطِيرُ الْهُدْهُدُ إِلَى شُبَّاكَ
 أَحْرَ، وَيَصْرُخُ وَيَصِيحُ، فَيُغْلِقُهُ الْخَادِمُ، وَهَكَذَا حَتَّى أَغْلِقَ كُلَّ الشُّبَّايِكِ، وَعَمْرُ
 يَتَسَمُّ، وَيَقُولُ لِخَادِمِهِ الْخَائِنِ: غَرِيبٌ أَمْرٌ هَذَا الْهُدْهُدِ، لَمْ أَرَهُ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا مِنْ
 قَلْ، كَأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ!؟

وَيَنْصَرِفُ الْخَائِنُ بِاتِّجَاهِ الْبَابِ، وَهُوَ يُدَارِي اِرْتِبَاكَهُ، وَيَقُولُ: الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ
 يَسِيدِي. وَيَمُدُّ عَمْرُ يَدَهُ إِلَى طَعَامِهِ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فَيَنْهَارُ الْهُدْهُدُ
 وَاقِعًا عَلَى الشُّبَّاكَ، وَقَلْبُهُ يَكَادُ يَتَوَقَّفُ مِنَ الْحُزْنِ وَالْغَيْظِ وَالْأَلَمِ!!

وَلَمْ تَمْضِ سِوَى سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ، حَتَّى كَانَ الْخَلِيفَةُ الْعَادِلُ يَتَلَوَّى فِي سَرِيرِهِ،
وَالْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبِينِهِ.

وَلَمْ تَمْضِ سِوَى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ حَتَّى كَانَتْ صِحَّتُهُ قَدْ تَدَهَوَّرَتْ، وَحَتَّى كَانَ الْأَطِبَّاءُ
قَدْ يَتَسَوَّأُونَ فِي شِفَائِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ !!

عِقَابُ السَّمَاءِ

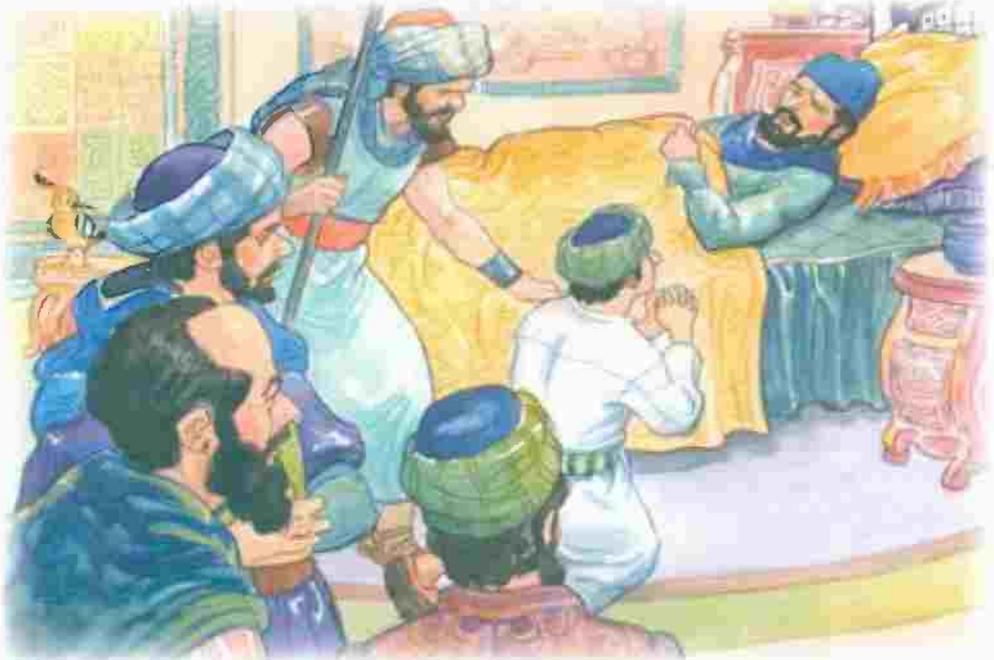
وَالْعَرِيبُ الْمُدْهِشُ، الَّذِي جَعَلَ الْهُدْهُدَ يَكَادُ
يُجِنُّ، أَنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ عَمَرَ كَانَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْذُ
الْبِدَايَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ وَهُوَ يَقُولُ ذَلِكَ لِأَوْلَادِهِ الْمُتَحَلِّقِينَ
حَوْلَ سَرِيرِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِإِحْضَارِ ذَلِكَ الْخَادِمِ الْخَائِنِ،
وَعِنْدَمَا دَخَلَ وَوَقَفَ أَمَامَهُ، بَادَرَهُ بِصَوْتِهِ الْعَطُوفِ:

لِمَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ يَا وَلَدِي؟

فَانْهَارَ الْخَائِنُ مُرْتَجِفًا بَاكِئًا، وَاعْتَرَفَ: سَامِخْنِي يَا مَوْلَايَ، لَقَدْ خَدَعْتَنِي،
وَعَرَّرُوا بِي، وَكُنْتُ مُحْتَاجًا، فَأَعْطَوْنِي أَلْفَ دِينَارٍ، تُغْنِينِي، وَتُغْنِي أَوْلَادِي !!
فَالْتَفَتَ عَمَرٌ إِلَى أَبْنَائِهِ، وَقَالَ لَهُمْ بِالْعَطْفِ نَفْسِهِ: مَسْكِينُ، كَانَ مُحْتَاجًا،
وَخَدَعُوهُ. ائْرُكُوهُ يَمْضِي، وَلَا تُؤْذُوهُ.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْخَائِنِ، وَقَالَ لَهُ: انْطَلِقْ بِسُرْعَةٍ، وَاهْرُبْ بِعِيدًا، حَتَّى لَا يُؤْذِيكَ أَحَدٌ، فَلَنْ أَسْتَطِيعَ حِمَايَتَكَ وَأَنَا مَيِّتٌ!!

فَانْطَلَقَ الْخَائِنُ يَجْرِي، كَمَنْ يَهْرُبُ مِنَ النَّارِ، وَالنَّارُ تَلَاخِضُ!!
وَانْطَلَقَ الْهُدُودُ خَلْفَهُ، وَفِي قَلْبِهِ نَارُ الْغَيْظِ الْمَكْتُومِ، لِيَرَى بِعَيْنَيْهِ نَهَائِتَهُ الَّتِي يَعْرِفُهَا، فَرَأَهُ يَزْكَبُ الْحِصَانَ، الَّذِي أَعَدَّهُ لَهُ الْمُتَأَمِرُونَ، لِكَيْ يَهْرُبَ بِهِ، وَتَابِعَهُ وَهُوَ يَنْطَلِقُ مُسْرِعًا، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَمَا يَكَادُ يَتَّبَعُهُ إِلَّا قَلِيلًا فِي الصَّحْرَاءِ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْكَمِينِ؛ ثَلَاثَةٌ فَرَسَانٍ مُلْتَمُونَ، يَقْطَعُونَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ، يُمَرِّقُونَهُ بِسُيُوفِهِمْ، وَيُخْرِجُونَ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ كَيْسَ الْأَلْفِ دِينَارٍ، وَيَنْطَلِقُونَ، تَارِكِينَ جُسْتَهُ فِي الْعَرَاءِ طَعَامًا لِلْكَوَاسِرِ وَالصُّوَارِي، فَسُبْحَانَ الَّذِي يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ!!



لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ ذَلِكَ آيَةً مُفَاجَأَةً بِالنَّسْبَةِ لِلْهُدُودِ. فَقَدْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِهَِذَا
 الْكَمِينِ، وَمَا كَانَ يَتَّبِعُ هَذَا الْخَائِنَ، إِلَّا لِكَيْ يَرَاهُ، وَيَشْفِي غَلِيلَهُ. وَلَكِنَّ الْمُفَاجَأَةَ
 الْحَقِيقِيَّةَ، أَنَّ مَشَاعِرَهُ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، قَدْ تَحَوَّلَتْ وَانْقَلَبَتْ، وَلَمْ يَتِمَّاكَ نَفْسَهُ،
 فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ يَبْكِي إِشْفَاقًا عَلَى هَذَا الضَّعِيفِ التَّعَسِ، الَّذِي خَسِرَ الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةَ، وَلَقِيَ أَسْوَأَ مَصِيرٍ، وَإِشْفَاقًا عَلَى أَوْلَادِهِ الصَّغَارِ الْمَسَاكِينِ، الَّذِينَ لَمْ
 يَتْرُكْ لَهُمْ سِوَى الْعَارِ، يُلَاحِظُهُمْ إِلَى الْأَبَدِ!!

النَّجْمُ يَهْوِي

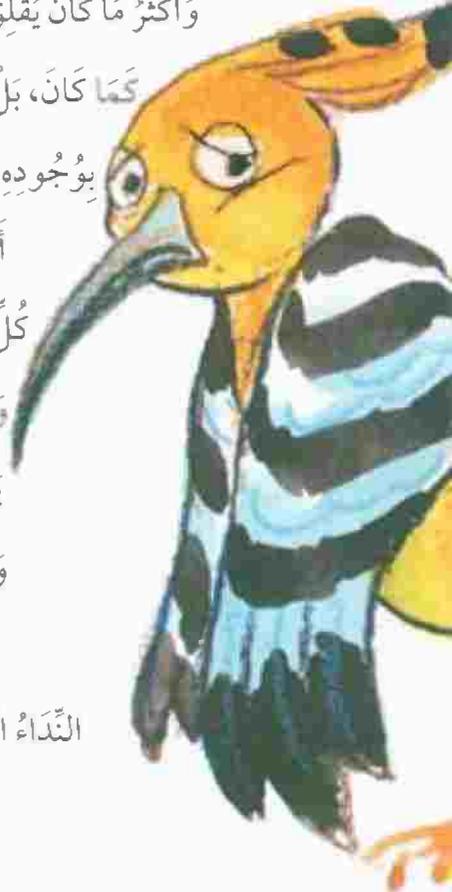
شَاعَ نَبَأُ مَرَضِ الْخَلِيفَةِ الْعَادِلِ، وَاقْتَرَبَ نِهَآئَتِهِ، فَعَمَّتِ الْأَحْزَانُ، وَانْتَشَرَ الْخَوْفُ
 فِي أَرْجَاءِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَصِيبَةِ، كَانَ الْهُدُودُ يَكْتَفِي بِوَقْتِ
 قَلِيلٍ، يَقْفُهُ حَزِينًا بَاكِيًا عَلَى شَبَابِ عُمَرَ، فَهُوَ أَكْثَرُ مَنْ يَعْرِفُ النِّهَآةَ الْمَحْتَرَمَةَ، بَيْتَمَا
 كَانَ يَقْضِي الْجَانِبَ الْأَكْبَرَ مِنْ وَقْتِهِ فِي تَفَقُّدِ
 أَحْوَالِ النَّاسِ الْبُسْطَاءِ، فِي الْأَسْوَاقِ
 وَالْمَزَارِعِ وَدَكَكَيْنِ الْحَرْفِ وَالْأَحْيَاءِ
 الْفَقِيرَةِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبُؤْسَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ،
 الَّذِينَ بَدَتْ لَهُ وُجُوهُهُمْ مُتَشَابِهَةً، وَذَاتَ مَلَامِحَ وَاحِدَةٍ، هِيَ مَلَامِحُ
 مَنْ يَضْحُو مِنَ الْحُلْمِ الْجَمِيلِ عَلَى كَابُوسٍ!!

فَالَّذِي يَعْرِفُهُ الْجَمِيعُ جَيِّدًا أَنَّ مَوْتَ الْخَلِيفَةِ الْعَادِلِ، يَعْنِي عَوْدَةَ الظَّالِمِينَ.
حَتَّىٰ إِنْ بَعْضَ مَنْ اسْتَرَدُّوا أَحْقَوقَهُمْ بَعْدَ عَمْرٍ، أَخَذُوا يُرْتَبُونَ لِلْهَرَبِ، خَوْفًا
مِنْ بَطْشِ الْأَمْرَاءِ بِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِ. أَمَّا الْمُعْدَمُونَ وَالْمَرْضَىٰ وَالْيَتَامَىٰ، فَقَدْ أَخَذُوا
يَلْتَسُونَ الْأَسْوَدَ وَيَبْكُونَ، حَتَّىٰ قَبْلَ إِعْلَانِ النَّبَأِ!!

أَمَّا طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ، فَقَدْ لَاحَظَ عَلَيْهِ الْهُدْهُدُ خِلَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ تَغْيِرَاتٍ
كَثِيرَةً وَسَرِيعَةً؛ فَقَدْ اِزْدَادَ نُحُولًا، وَازْدَادَ ظَهْرُهُ انْحِنَاءً، وَشَعْرُهُ بِيَاضًا، وَوَجْهُهُ
شُحُوبًا، وَعَيْنَاهُ ذُبُولًا!!

وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُقَلِّقُ الْهُدْهُدَ هُوَ ذُهُولُهُ وَصَمْتُهُ الطَّوِيلُ، فَلَمْ يُعِدْ يُكَلِّمُهُ
كَمَا كَانَ، بَلْ إِنَّهُ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، أَوْ يَشْعُرُ
بِوُجُودِهِ مَعَهُ.

أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، وَلَكِنَّهَا مَرَّتْ ثَقِيلَةً عَلَى الْجَمِيعِ؛ ثَقِيلَةً عَلَى
كُلِّ مَنْ يُحِبُّ الْعَادِلَ الرَّاهِدَ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُ إِلَّا الدُّعَاءُ
وَالْأَمَلُ فِي لُطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَثَقِيلَةً عَلَى كُلِّ مَنْ
يَكْرَهُهُ، وَيَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِرَحِيلِهِ، لِكَيْ يَسْتَرِدَّ مَكَانَتَهُ،
وَيَعُودَ لِلْكِبَرِ، وَاعْتِصَابِ الْحُقُوقِ، وَإِذْلالِ النَّاسِ.
وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَوَقَعَ مَا كَانَ يَنْتَظِرُهُ الْجَمِيعُ، وَارْتَفَعَ
النِّدَاءُ الْبَاكِي مِنْ فَوْقِ مَآذِنِ الشَّامِ، ثُمَّ مِنْ فَوْقِ مَآذِنِ الْعَالَمِ



عِمْلَاقٌ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْجُنُونِ

عِنْدَمَا وَصَلَ الْهُدْهُدُ، كَانَ طَارِقٌ وَاقِفًا يُصَلِّي حَافِيًا عَلَى الرَّمَالِ أَمَامَ الْحَيْمَةِ،
تَمَامًا كَمَا رَأَى الْهُدْهُدُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ يَحْلُمُ بِالْأَنْدَلُسِ، وَلَكِنْ أَيْنَ
النُّحْرُ؟ وَأَيْنَ الْأَنْدَلُسُ؟ وَأَيْنَ السَّبَابُ وَالْعُنْفُوانُ؟! هُوَ الْآنَ شَيْخٌ أَشْيَبُ ضَعِيفُ
النَّدَنِ، وَمُنْذُ عَرَفَ بِمَرَضِ عُمَرَ، أَصْبَحَ خَفِيفَ الْعَقْلِ، تَخْتَلِطُ فِي رَأْسِهِ ذِكْرِيَاتُ
الْمَاضِي بِأَوْهَامِ الشَّيْخُوخَةِ!!

أَنْهَى طَارِقٌ صَلَاتَهُ، وَجَلَسَ هَادِئًا بَعْضَ الْوَقْتِ، ثُمَّ انْتَفَضَ وَاقِفًا نَشِيطًا، وَهُوَ
يُمْسِكُ بِعُودِ طَوِيلٍ مِنَ الْحَطَبِ، كَمَا يَمْسِكُ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذَ يُخَطِّطُ بِطَرَفِهِ عَلَى
الْأَرْضِ، وَيَتَحَدَّثُ إِلَى أَشْخَاصٍ غَيْرِ مَرْتَبِينَ، يُلَوِّحُ لَهُمْ بِسَيْفِهِ، بَعْضُهُمْ جُنُودُهُ،
يَسْرَحُ لَهُمُ الْخَطَطَ، وَيَأْمُرُهُمْ، وَيَحْمَسُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ أَعْدَاؤُهُ،
يُهَدِّدُهُمْ، وَيَتَوَعَّدُهُمْ بِالْمَوْتِ!!

ثُمَّ جَلَسَ فِي مَكَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَخَذَ يَتَحَدَّثُ
بِهَدْوٍ إِلَى شَخْصٍ غَيْرِ مَرْتَبِيٍّ، وَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ مُخْطِئٌ،
نَعَمْ... اسْمَعْهَا مِنِّي، أَنْتَ مُخْطِئٌ، تَرَكْتَ لَهُمْ
الْفُرْصَةَ لِكَيْ يَتِمَكَّنُوا مِنِّي. وَأَنَا مُخْطِئٌ، مَعَكَ
حَقٌّ، أَنَا مُخْطِئٌ، كَانَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَحْمِيكَ مِنْهُمْ

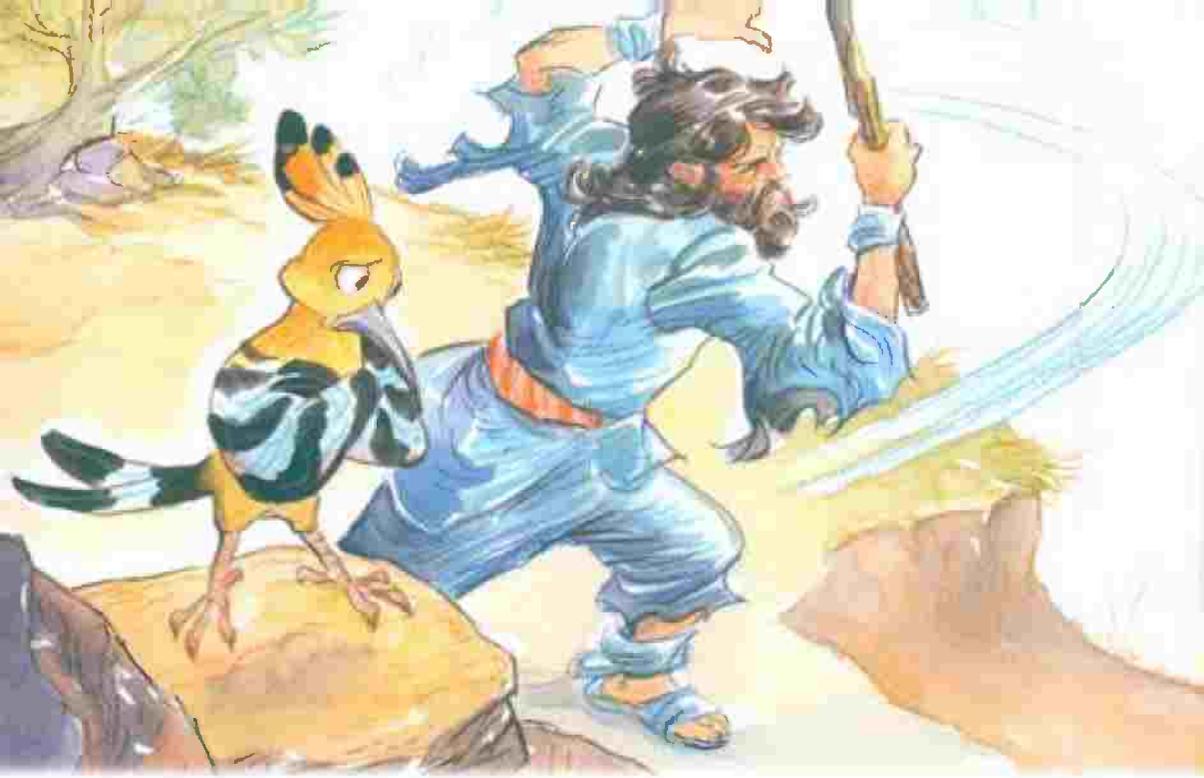


بِسِنْفِي هَذَا، كَانَ يَجِبُ أَنْ نَقْضِيَ عَلَيْهِمْ نَهَائِيًّا، حَتَّى لَا يَعُودُوا بَعْدَكَ لِظُلْمِ النَّاسِ
وَإِذْ لَيْسَ لَهُمْ، عَلَى الْعُمُومِ، لَقَدْ ارْتَحَتْ أَنْتَ الْآنَ، ارْتَحَتْ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَكِنَّكَ أَنْعَبْتَ
النَّاسَ وَعَذَّبْتَهُمْ؛ لِأَنَّكَ جَعَلْتَهُمْ يَعِيشُونَ فِي حُلْمٍ جَمِيلٍ، ثُمَّ أَيْقَظْتَهُمْ عَلَى صُرَاخِ
وَعَوِيلِ، لَيْتَكَ لَمْ تَأْتِ أَصْلًا، كَانَ جَدُّكَ يَقُولُ: لَيْتَ أُمَّ عُمَرَ لَمْ تَلِدْ عُمَرَ، وَلِذَلِكَ
قَتَلُوهُ مِثْلَكَ !!

كَانَ الشَّخْصُ الَّذِي يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ طَارِقٌ فِي حَيَالِهِ هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ،
الَّذِي التَّقَاهُ مَرَّاتٍ مَعْدُودَةً فِي قَصْرِ الْوَلِيدِ، وَأَحَبَّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَعَرَفَ أَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ
يُنْقِذَهُ مِنْ عِقَابِ سُلَيْمَانَ وَانْتِقَامِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ، وَعِنْدَمَا صَارَ خَلِيفَةً أَرَادَ أَنْ
يُنْصِفَهُ، وَيُرَدِّدَ إِلَيْهِ اِعْتِبَارَهُ، وَلَكِنْ كَانَ الْأَوَانُ قَدَفَاتٍ، رَفَضَ طَارِقٌ قَبُولَ أَيِّ شَيْءٍ،
وَرَفَضَ أَنْ يَنْزُكَ خَيْمَتَهُ وَعُزْلَتَهُ، وَاکْتَفَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ، الَّذِينَ كَانُوا يَأْتُونَ
لِزِيَارَتِهِ، دُونَ خَوْفٍ مِنَ الْعِقَابِ، وَحَتَّى هُوَ لَا، انْقَطَعَتْ زِيَارَتُهُمْ مُنْذُ مَرِضَ عُمَرَ؛
لَأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّ الْعِقَابَ سَيَعُودُ قَرِيبًا !!

مَوْتُ طَارِقٍ

أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، وَعَادَتِ الْأَحْوَالُ إِلَيَّ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَخَوْفًا،
بَعْدَ مَلَأَهَا عُمَرُ عَدْلًا وَسَلَامًا، أَمَّا الْهُدُودُ فَكَانَ يَزِدُّهَا ضَعْفًا وَهَزَالًا، وَهُوَ يَرْقُبُ
إِنْحِسَارَ دَائِرَةِ النُّورِ، وَاتِّسَاعَ دَائِرَةِ الظَّلَامِ، وَلَمْ يَكُنْ يُخَفِّفُ مِنْ حُزْنِهِ غَيْرُ زِيَارَتِهِ



لِطَارِقٍ، الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ أَيْضًا يَزِدَادُ نُحُولًا وَضَعْفًا، وَبَدَأَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ
الْهَيْبَةِ، حَتَّى جَاءَ الْيَوْمَ الْمَوْعُودُ.

يَوْمَهَا، كَانَ الْهُدْهُدُ ذَاهِبًا لِرِيبَارْتِهِ فِي الشِّتَاءِ، فِي بَرْدِ الصَّخْرَاءِ الْقَارِسِ، وَلَمْ
يَكُنْ لَدَى طَارِقٍ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ الْمَلَابِسِ وَالْأَعْطِيَةِ الْمُهْلَهَلَةِ، وَضَعَهَا كُلَّهَا فَوْقَ
جِسْمِهِ، وَجَلَسَ فِي رُكْنِ الْخَيْمَةِ يَرْتَعْشُ وَيَدْعُو اللَّهَ، وَيَرْدُدُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ..
لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. وَمَا زَالَ هَكَذَا، حَتَّى تَوَقَّفَتِ الرَّعْشَةُ، وَتَوَقَّفَ الصَّوْتُ!!

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، انْهَارَ الْهُدْهُدُ بِجَانِبِهِ عَلَى الْأَرْضِ يُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ، وَيَقُولُ:

الآن سَتَرْتَا حَائِبِي الْمُتَعَبُ. إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!!

المُؤَامِرَةُ الْكُبْرَى

بَعْدَ وَفَاةِ طَارِقٍ، حَزِنَ جَدِّي حُزْنًا شَدِيدًا، وَتَدَهَوْرَتْ صِحَّتُهُ، فَرَقَدَ فِي الْعُشِّ
أَيَّامًا، لَا يَسْتَطِيعُ الطَّيْرَانَ، إِلَّا لِدَقَاتِقِ مَعْدُودَةٍ، يَشْرَبُ فِيهَا، أَوْ يَأْكُلُ قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ؛
يَكْفِيهِ لَكِنِّي يَبْقَى حَيًّا، ثُمَّ يَعُودُ لِيَنَامَ فِي الْعُشِّ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِالْمِ فِي كُلِّ جِسْمِهِ.
وَلَكِنَّ جَدِّي هَذَا كَانَ قَوِيَّ الْإِرَادَةِ، وَلَدَيْهِ شُعُورٌ عَمِيقٌ بِالْمَسْئُورِيَّةِ، فَمِمَّا
يَسْتَسْلِمُ لِلْحُزْنِ وَالْمَرَضِ، وَظَلَّ يُقَاوِمُ وَيُقَاوِمُ، حَتَّى اسْتَرَدَّ بَعْضَ صِحَّتِهِ، فَعَادَ
إِلَى نَشَاطِهِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ لِحِظَّةٍ عَنِ الطَّيْرَانَ، وَالتَّنَقُّلِ بَيْنَ أَحْيَاءِ الشَّامِ وَأَسْوَاقِهَا،
وَمَزَارِعِهَا وَقُصُورِهَا؛ لِمُتَابَعَةِ أَحْوَالِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ.

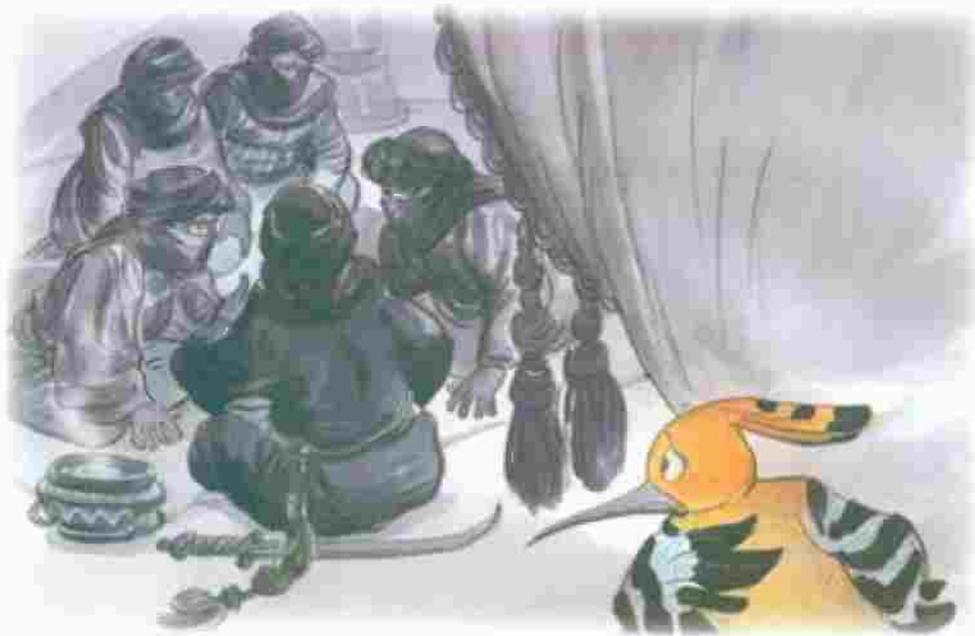
وَرَاءَ كُلِّ شُبَّانِكِ أَطَّلَ مِنْهُ الْهُدُودُ، لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ، أَوْ يَرَى، غَيْرَ أَيْنِ النَّاسِ
وَشَكْوَاهُمْ وَخَوْفَهُمْ، إِلَّا شُبَّانًا وَاحِدًا كَانَ يُطَلُّ مِنْهُ عَلَى رَجُلٍ لَا يَشْكُو وَلَا يَبِينُ،
بَلْ يُدَبِّرُ وَيُحِطُّ لِلْخَلَاصِ مِنْ كُلِّ هَذَا.

وَوَرَاءَ هَذَا الشُّبَّانِكِ، سَيَسْمَعُ جَدِّي، وَيَرَى وَيَتَّبِعُ، خُيُوطَ أَكْبَرِ مُؤَامِرَةٍ فِي هَذَا
الرَّمَانِ، مُؤَامِرَةٍ لَمْ يَشْهَدْ مِثْلَهَا أَحَدٌ مِنْ أَجْدَادِي!!

كَانَ جَدِّي يَعْرِفُ ذَلِكَ الرَّجُلَ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً، مُنْذُ أَيَّامِ عُمَرِ، بَلْ مِنْ قَبْلِ أَيَّامِ عُمَرِ.
رَجُلٌ دَاهِيَةٌ، يَحْمِلُ كَرَاهِيَةَ شَدِيدَةً لِدَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ وَحُكَّامِهَا، وَلَهُ أَتْبَاعٌ وَأَعْوَانٌ كَثِيرُونَ،
ثَائِرُونَ غَاضِبُونَ، يَزُورُونَهُ فِي الْخَفَاءِ، يَزُسُمُونَ الْخُطَطَ، وَيَحِيكُونَ الْمُؤَامِرَاتِ.
كَانَ عَدْلُ عُمَرِ وَتَوَاضَعُهُ وَزُهْدُهُ قَدْ هَدَّاهُ مِنْ ثَوْرَتِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ يَشْعُرُونَ

بِالرِّضَا، وَلَكِنَّ عَوْدَةَ الظُّلْمِ وَالْجَبْرُوتِ، بَعْدَ مَوْتِهِ، أَشْعَلَتْ فِي نَفْسِهِمْ نَارَ
 الْكِرَاهِيَةِ وَالشُّورَةَ مِنْ جَدِيدٍ، فَعَادُوا يُنَظَّمُونَ صُفُوفَهُمْ فِي الْخَفَاءِ، وَيَجْمَعُونَ
 حَوْلَهُمُ الْأَعْوَانَ مِنْ كُلِّ أَنْحَاءِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بِكُلِّ سِرِّيَّةٍ وَتَكْتِمٍ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ
 بِهِمْ أَحَدٌ، أَوْ يَلَاحِظَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا؛ فَقَدْ كَانُوا بَارِعِينَ فِي التَّخْفِي وَالْخِدَاعِ، يَعِيشُونَ
 كَمَا يَعِيشُ النَّاسُ، وَيُظْهِرُونَ الطَّاعَةَ وَالْوَلَاءَ، وَهُمْ يُخْفُونَ فِي نَفْسِهِمُ الْحِقْدَ
 وَالْكَرَاهِيَةَ، وَيَنْتَظِرُونَ اللَّحْظَةَ الَّتِي يَأْمُرُهُمْ فِيهَا هَذَا الرَّجُلُ بِالتَّحْرُكِ، وَتَنْفِذِ خُطَّةِ
 الْإِنْتِقَامِ الرَّهيبِ!!

وَحَانَتِ اللَّحْظَةُ، كَانَ الْهُدُودُ وَاقِفًا عَلَى الشُّبَّاكِ، يُتَابِعُ بِكُلِّ حَوَاسِيهِ، وَقَلْبِهِ
 يَدُقُّ بِسُرْعَةٍ مِنْ شِدَّةِ الْإِنْفِعَالِ، وَهَذَا الرَّجُلُ جَالِسٌ، وَحَوْلَهُ عَدَدٌ مِنْ أَعْوَانِهِ،



يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ، يَزُسُّمُ لَهُمُ الْخُطْبَةَ،
وَيُحَدِّدُ لِكُلِّ مِنْهُمْ دَوْرَهُ فِيهَا بِكُلِّ دِقَّةٍ، وَيَقُولُ: سَنَقُومُ
بِالتَّنْفِيذِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، سَيَحْرُكُ الْجَمِيعُ، فِي كُلِّ مَكَانٍ،
فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا، دُونَ إِنْطَاءٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، حَتَّى نَنْتَهِيَ
مِنَ الْأَمْرِ سَرِيعًا، وَفِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَيَكُونُ عَمَلُنَا قَوِيًّا
وَمُفَاجِئًا، لَا يَتْرُكُ لِأَعْدَائِنَا فُرْصَةً لِلْمُقَاوَمَةِ أَوْ النِّجَاةِ!!

الْمَذْبَحَةُ

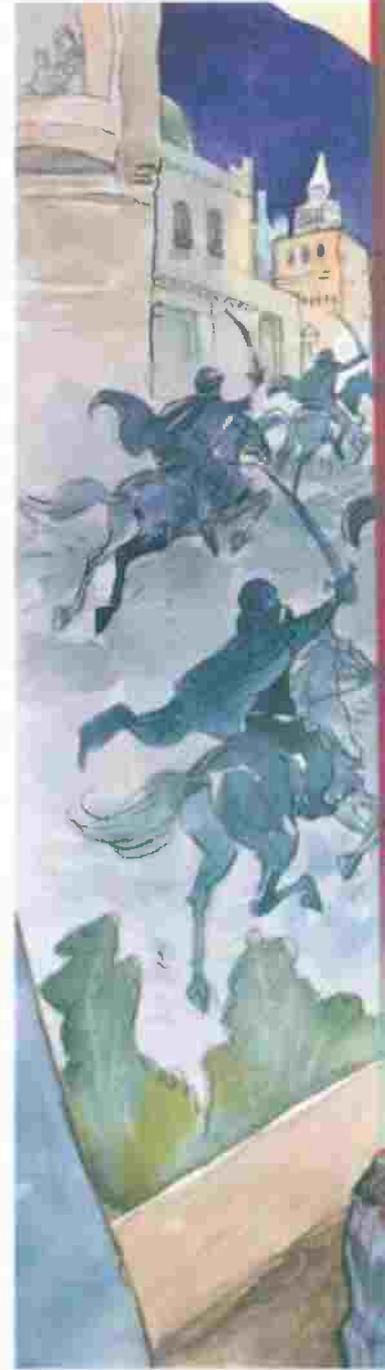
فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لَمْ يَنْمِ الْهَدُهُدُ، أَوْ يَهْدَأُ جَنَاحَهُ لَحْظَةً
وَاحِدَةً، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَطِيرَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ
إِلَى مَدِينَةٍ، بِأَفْصَى سُرْعَتِهِ، وَدُونَ إِنْطَاءٍ، لِكَيْ يَتَّبِعَ، وَيَرَى
بِعَيْنِهِ مَجْمُوعَاتِ الثَّائِرِينَ، وَهُمْ يَهْتَبُونَ فِي الظَّلَامِ، يُخْفُونَ
وُجُوهَهُمْ، وَيَلْبَسُونَ مَلَابِسَ سَوْدَاءَ، وَيَرْفَعُونَ رَايَاتِ
سَوْدَاءَ، وَيُسْهِرُونَ سُيُوفًا تَلْمَعُ فِي الظَّلَامِ، وَيَتَابِعُ كُلُّ
مَجْمُوعَةٍ مِنْهُمْ وَهِيَ تَنْطَلِقُ إِلَى مَكَانٍ.

كَانَ الْمَشْهُدُ رَهِيئًا، فَقَدْ كَانُوا يَقْتَحِمُونَ بِيُوتَ الْأَمْرَاءِ
وَالْكُبْرَاءِ وَالْأَعْوَانِ، يَقْتُلُونَ وَيَذْبَحُونَ، وَلَا يَتْرُكُونَ لِأَحَدٍ

مِنْهُمْ فُرْصَةً لِلنَّجَاةِ. وَتَعَالَتْ الصَّرَخَاتُ، وَجَرَّتِ الدَّمَاءُ
أَنْهَارًا. وَلَمْ تُشْرِقْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى كَانَ كُلُّ هَؤُلَاءِ
فِي عِدَادِ الْمَوْتَى !!

كَانَ الْهُدْهُدُ يَصْرُخُ وَيَبْكِي بُكَاءَ حَارِقًا، وَهُوَ يَرَى هَذَا
الْقَتْلَ الْعَادِرَ، وَرَغِمَ أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْقَتْلَى كَانُوا مِنَ الظَّلَمَةِ
وَالْمُتَكَبِّرِينَ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِإِسْفَاقِ شَدِيدٍ عَلَيْهِمْ فِي
هَذِهِ اللَّيْلَةِ؛ لِأَنَّهُ رَغِمَ كُلُّ شَيْءٍ، لَمْ يَكُنْ يَتَمَنَّى لَهُمْ هَذَا
الْمَصِيرَ الْمُؤْلِمَ !!

عِنْدَمَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، كَانَ الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ الرَّهيبُ
قَدْ خَيَّمَ عَلَى قُلُوبِ الْجَمِيعِ، فَقَدْ رَأَى النَّاسُ أَنْهَارَ الدَّمَاءِ،
وَرَأَوْا آلاَفَ الْقَتْلَى، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا: مَنْ الْقَاتِلُ !!؟
وَلَمْ يَمُضِ وَقْتُ طَوِيلٍ حَتَّى انْكَشَفَ السَّرُّ الْعَامِضُ،
وَعَرَفَ الْجَمِيعُ الْقَاتِلَ، كَانَ الْهُدْهُدُ يَعْرِفُهُ مِنْذُ الْبِدَايَةِ،
وَيَعْرِفُ أَنَّ اسْمَهُ (أَبُو الْعَبَّاسِ)، وَلَكِنَّ النَّاسَ عِنْدَمَا
عَرَفُوهُ، أَضَافُوا إِلَى اسْمِهِ كَلِمَةً أُخْرَى، تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَسَمَّوْهُ
(أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ) !! وَكَانُوا عَلَى حَقِّ فِي اخْتِيَارِ هَذَا
الاسْمِ لِلرَّجُلِ الَّذِي ارْتَكَبَ كُلَّ هَذِهِ الْمَذَابِحِ، وَقَامَ بِكُلِّ
هَذِهِ الْأَفْعَالِ الشَّنِيعَةِ، فَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُرِيدُونَ الْعَدَلَ



وَالْإِنصَافَ مِنْ حُكْمِهِمْ وَوُلَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُرِيدُونَ هَذَا الْإِنْتِقَامَ الرَّهِيْبَ،
وَلَا هَذَا الْمَصِيْرَ الْمُؤْلِمَ، حَتَّى إِنَّ كَثِيْرًا مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَبْكُوْنَ، وَيَشْعُرُوْنَ بِالْحَزْنِ
وَالْإِسْفَاقِ عَلَى الضَّحَايَا، وَيَقُولُوْنَ: عِلَاجُ الظُّلْمِ بِالظُّلْمِ مُتَّهَى الظُّلْمِ، لَقَدْ أَقَامَ
عُمَرُ الْعَدْلَ دُونَ إِزَاقَةِ قَطْرَةِ دَمٍ وَاحِدَةٍ.

وَيُرَدُّ عَلَيْهِمُ الْبَعْضُ قَائِلِينَ: عُمَرُ، كَانَتْ لَدَيْهِ الْفُرْصَةُ كَامِلَةً، وَكَانَ الْأَمْرُ بِيَدِهِ،
فَقَدْ كَانَ الْخَلِيْفَةَ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الثَّائِرُونَ، فَلَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ آيَةٌ فُرْصَةٍ، وَلَوْ انْكَشَفَ
أَمْرُهُمْ، لَكَانُوا قَدْ قَتَلُوا جَمِيعًا، بِلَا رَحْمَةٍ!!

الصَّقْرُ الْهَارِبُ

فِي الْأَيَّامِ الَّتِي تَلَتْ الْمَذْبَحَةَ الرَّهِيْبَةَ، انْشَغَلَ الْهُدْهُدُ، وَانْشَغَلَ النَّاسُ فِي
شَيْءٍ عَجِيْبٍ، فَقَدْ فُوجِيَ الْجَمِيعُ بِرِجَالِ (السَّفَاحِ) وَجُنُودِهِ، يُفْتَشُّونَ كُلَّ بَيْتٍ،
وَكُلَّ غُرْفَةٍ، وَكُلَّ صُنْدُوقٍ، وَكُلَّ خِرَازِنَةٍ، بَحْثًا عَنِ رَجُلٍ هَارِبٍ، يُرِيدُونَ قَتْلَهُ.
لَمْ يَكُنِ النَّاسُ يَعْرِفُونَ الرَّجُلَ الْمُطَارِدَ، وَرَعَمَ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانُوا يَتَعَاطَفُونَ مَعَهُ
تَعَاطْفًا شَدِيدًا، وَيَتَمَنُّونَ لَهُ النَّجَاةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ!!

أَمَّا الْهُدْهُدُ فَكَانَ يَعْرِفُهُ، مُنْذُ أَنْ عَبَرَ نَهْرَ الْفُرَاتِ هَارِبًا، وَأَخَذَ يَتَابِعُهُ، وَهُوَ
فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَخَفَى؛ فِي هَيْئَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ رَاعٍ بَدَوِيٍّ، أَوْ رَاهِبٍ دِيرٍ، أَوْ صَانِعِ فَخَّارٍ،
وَيَتَنَقَّلُ مُتَسَلِّلًا مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ، وَمِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، يُسَاعِدُهُ
فِي ذَلِكَ رَشَاقَتُهُ الْعَجِيْبَةُ، وَضَالَّةُ جِسْمِهِ، الَّتِي تَجْعَلُهُ يَبْدُو مِثْلَ صَبِيٍّ، حَتَّى وَصَلَ

إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، حَيْثُ يَعِيشُ أَحْوَالُهُ الْأَقْوِيَاءُ. وَهُنَاكَ، كَشَفَ عَنْ شَخْصِيَّتِهِ،
فَعَرَفَهُ النَّاسُ، وَعَرَفُوا أَنَّ اسْمَهُ (عَبْدُ الرَّحْمَنِ)، وَعَرَفُوا أَنَّهُ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ الَّذِي
بَقِيَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ؛ لِأَنَّهُ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ الَّذِي نَجَا مِنَ الْمَذْبَحَةِ!!

انْتَصَرَ (أَبُو الْعَبَّاسِ) وَسَيَّطَرَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَسَمَّاهَا (الدَّوْلَةُ

الْعَبَّاسِيَّةَ)، بَعْدَ أَنْ قَضَى بِهَذِهِ الْمَذْبَحَةِ الرَّهِيْبَةَ

عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ، وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ هَذَا

الشَّابَّ، حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ،

يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلَهُ، فَيُمَثِّلَ خَطْرًا

عَلَيْهِ، وَعَلَى دَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ.

وَحَدَّثَ بِالْفِعْلِ مَا كَانَ يَتَوَقَّعُهُ أَبُو

الْعَبَّاسِ، وَمَا كَانَ يَعْرِفُهُ الْهُدُودُ، وَيَرَاهُ بِعَيْنِهِ.

فَبِنَ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِرُصُولِ الشَّابِّ (عَبْدُ

الرَّحْمَنِ) إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ مُتَخَفِيًا، عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى تَحْقِيقِ هَدَفِهِ الْكَبِيرِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ

دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ، فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، الَّتِي فَتَحَتْهَا جُيُوشُ جَدِّهِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ.

سِرُّ الْخَاتَمِ الْفِضِيِّ

حُلْمٌ كَبِيرٌ لِشَابِّ أُمَوِيٍّ وَحِيدٍ، يَتَرَبَّصُ بِهِ أَعْدَاءُ أَقْوِيَاءَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَيْسَ

مَعَهُ، بَعْدَ اللَّهِ، إِلَّا حُلْمُهُ الْكَبِيرُ، وَشَيْءٌ آخَرٌ لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ، هُوَ خَاتَمٌ فِضِّيٌّ فِي

إِصْبَعِهِ الصَّغِيرِ، ظَلَّ يَتَحَسَّسُهُ طَوَالَ رِحْلَةِ فِرَارِهِ، وَهُوَ يَتَرَحَّمُ عَلَى أُمِّهِ!!
قُلْتُ بَدَهْشَةً: خَاتَمٌ فِضِّيٌّ!!

ابْتَسَمَ صَاحِبِي الْهُدْهُدُ، وَقَالَ لِي: نَعَمْ، خَاتَمٌ فِضِّيٌّ فِي إِصْبَعِهِ الصَّغِيرِ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ يُمَثِّلُ طَوْقَ النَّجَاةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَخْلُوقٌ يَعْرِفُ سِرَّ هَذَا الْخَاتَمِ.
وَالْغَرِيبُ الْعَجِيبُ يَا أَمِينُ، أَنَّ جَدِّي كَانَ يَعْرِفُ سِرَّ هَذَا الْخَاتَمِ مُنْذُ
الْبِدَايَةِ، فَقَدْ رَأَى أُمَّ الشَّابِّ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَهِيَ فِي
لِحْظَاتِهَا الْأَخِيرَةِ، تَخْلَعُ هَذَا
الْخَاتَمَ مِنْ إِصْبَعِهَا، وَتُوصِيهِ
بِأَنْ يَضَعَهُ فِي إِصْبَعِهِ، وَلَا
يَخْلَعُهُ أَبَدًا!!!

تَعَجَّبْتُ، وَسَأَلْتُهُ: هَلْ

هُوَ خَاتَمٌ مَسْحُورٌ!!؟

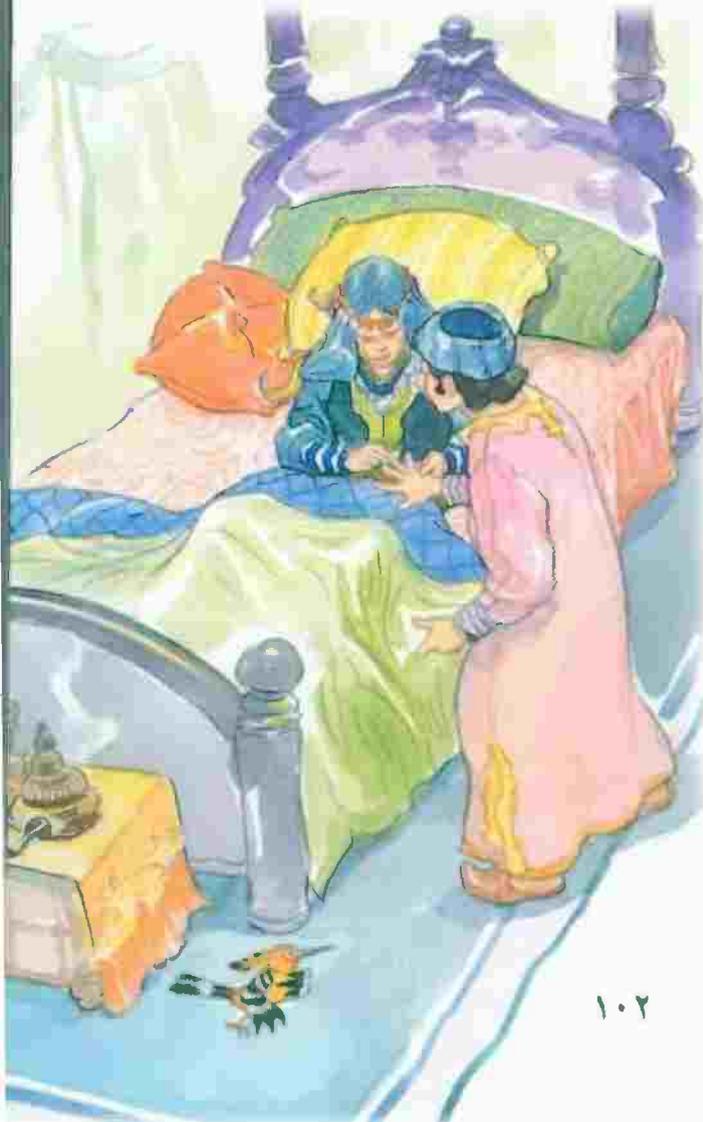
عَادَ الْهُدْهُدُ يَبْتَسِمُ،

وَيَقُولُ: لَا. لَيْسَ مَسْحُورًا،

وَلَيْسَ فِيهِ سِرٌّ مِنْ هَذَا

النَّوْعِ، بَلْ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ. فَهَذَا

الْخَاتَمُ هُوَ الدَّلِيلُ الْوَحِيدُ



الَّذِي سَيَقْدِّمُهُ الشَّابُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى أَسْوَالِهِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، لَكِنِّي يَعْرِفُوهُ بِهِ،
فَيَسَاعِدُوهُ وَيَحْمُوهُ، وَيُدُونِهِ لَنْ يَعْرِفُوهُ.

تَعَجَّبْتُ، وَسَأَلْتُهُ: كَيْفَ لَا يَعْرِفُونَهُ وَهُمْ أَسْوَالُهُ!!؟

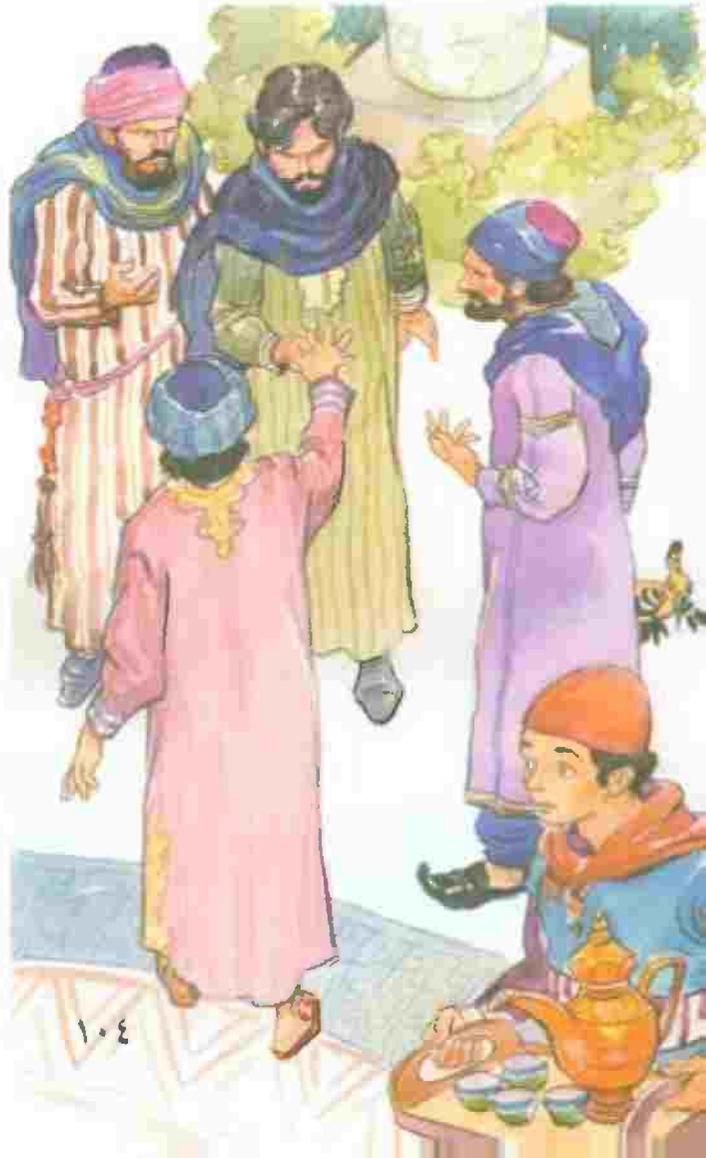
قَالَ الْهَدُودُ: هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ، وَحَتَّى عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَفْسُهُ
لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَّ أُمَّهُ ابْنَةُ شَيْخِ إِحْدَى الْقَبَائِلِ الْبُرْبُرِيَّةِ الْكَبِيرَةِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَأَنَّ
أَبَاهُ أَخَذَهَا سَبِيَّةً فِي إِحْدَى غَزَوَاتِهِ هُنَاكَ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا، وَأَنَّ هَذَا الْخَاتَمَ الَّذِي
ظَلَّتْ تَلْبَسُهُ طَوَالَ حَيَاتِهَا، هُوَ خَاتَمُ أُمَّهَا، الَّذِي يَعْرِفُهُ كُلُّ إِخْوَتِهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ!!
وَوَضَعَتْ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُحْتَفِظَةً بِسِرِّهَا، حَتَّى أَصَابَهَا الْمَرَضُ الشَّدِيدُ. وَكَانَتْ
فِي أَيَّامِهَا الْآخِرَةِ، تَشْعُرُ أَنَّ شَيْئًا مَارَهِيبًا يُدْبِرُ فِي الْخَفَاءِ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَقَعُ لَهَا مَحَالَةٌ،
وَأَنَّ ابْنَهَا سَيَكُونُ فِي خَطَرٍ مُحَقَّقٍ. لِذَا، فَقَدْ كَشَفَتْ لَهُ سِرِّهَا، وَقَالَتْ لَهُ، وَهِيَ
تَلْفِظُ أَنْفَاسَهَا الْآخِرَةَ: إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الدُّنْيَا يَا وَلَدِي، وَاحْتَجَّتْ يَوْمًا إِلَى مَاوِي
أَوْ إِلَى حِمَايَةِ، فَادْهَبْ إِلَى أَسْوَالِكَ، وَقَدِّمْ لَهُمْ هَذَا الْخَاتَمَ، لَكِنِّي يَعْرِفُوكَ!!

الصَّقْرُ وَالسَّاحِرُ

وَهَذَا مَا حَدَّثَ بِالْفِعْلِ، فِي أَوَّلِ لِقَاءِ لَهُ بِأَسْوَالِهِ، خَلَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْخَاتَمَ
مِنْ إِصْبَعِهِ، وَقَدَّمَهُ إِلَيْهِمْ قَائِلًا: هَذَا خَاتَمُ أُمِّي، يَا أَسْوَالِي. فَعَرَفَهُ أَسْوَالُهُ، وَكَانَتْ
فَرْحَتُهُمْ بِهِ عَظِيمَةً، لِدَرَجَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ بَكَى مِنْ شِدَّةِ الْإِنْفِعَالِ!! وَلَكِنْ، فِي هَذَا

اللقاء المؤثر، حَدَثَ شَيْءٌ كَادُ يُودِي بِحَيَاةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَدْ كَانَ مِنْ بَيْنِ الْخَدَمِ فِي بَيْتِ أَخْوَالِهِ صَبِيٍّ يَهُودِيٍّ، أَطْلَعَ عَلَى السِّرِّ، وَعَرَفَ أَنَّ هَذَا الضَّيْفَ الْمُتَخَفِّيَ هُوَ نَفْسُهُ الشَّابُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، الَّذِي أَعْلَنَ الْعَبَّاسِيُّونَ عَنْ مُكَافَأَةِ صَخْمَةٍ لِمَنْ يُرْسِدُهُمْ إِلَيْهِ، فَانْطَلَقَ الصَّبِيُّ إِلَى عَمِّهِ، وَكَانَ سَاحِرًا يَهُودِيًّا دَجَالًا، يَزْعُمُ أَنَّهُ يَتَنَبَّأُ بِالْغَيْبِ، وَيَكْشِفُ كُلَّ مَسْتُورٍ، وَكَانَ النَّاسُ يُصَدِّقُونَهُ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ كَانَ مُقَرَّبًا مِنَ الْوَالِيِّ، وَيَحْطِي بِثِقَتِهِ الْكَامِلَةِ!!

تَلَقَّفَ الْعَمُّ السَّاحِرَ هَذَا
الْخَبَرَ مِنْ ابْنِ أَخِيهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ
أَنْ يَصِفَ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بِكُلِّ
دِقَّةٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُمَ هَذَا السِّرَّ،
وَلَا يُطْلِعَ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ.
أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَ خَبِيثًا، يَعْرِفُ
أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَى
الْعَبَّاسِيِّينَ لِإِبْلَاغِهِمْ وَالْحُضُورِ
عَلَى الْمُكَافَأَةِ، وَلَكِنَّهُ
يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَى وَالِيِّ
الْمَغْرِبِ، الَّذِي يَحْلُمُ وَيُحْضِطُّ



لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ، فَيَقْدَمُ لَهُ هَذِهِ الْهَدِيَّةُ الْغَالِيَّةُ، وَيَحْصُلُ عَلَى الْمُقَابِلِ !!
 وَبِالْفِعْلِ، انْطَلَقَ السَّاحِرُ إِلَى الْوَالِي، وَقَدْ رَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتِ الْحُزْنِ
 وَالْكَآبَةِ، وَأَبْلَغَهُ أَنَّهُ يَتَّبَعُ لَهُ بِخَطَرٍ رَهِيْبٍ قَادِمٍ، وَأَنَّهُ رَأَى فِي أَوْرَاقِهِ السُّحْرِيَّةِ أَنَّ
 أَمِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، قَدْ وَصَلَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَقْضِي عَلَى مُلْكِهِ،
 وَسَوْفَ يُسَيِّطِرُ عَلَى الْأَنْدَلُسِ، وَيُضْبِحُ مَلِكًا عَلَيْهَا وَعَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ.

وَقَدَّمَ لِلْوَالِي أَوْصَافَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِكُلِّ دِقَّةٍ، كَمَا سَمِعَهَا مِنْ ابْنِ أَخِيهِ، مُدَّعِيًا
 أَنَّ هَذَا مَا رَأَهُ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ، فِي الطَّبَقِ الْمَسْحُورِ !!
 وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ، حَتَّى كَانَتِ الشُّرْطَةُ وَالْجَوَاسِيسُ قَدْ انْتَشَرُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ
 فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، بَلْ إِنَّهُمْ عَرَفُوا مَكَانَ اخْتِفَاءِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي بَيْتِ خَالِهِ !!

الْحِيلَةُ الْعَجِيبَةُ

اِفْتَحَمَ الْجُنُودُ الْبَيْتَ، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنْهِي صَلَاتَهُ، فَلَمَّا
 شَعَرَ خَالُهُ بِالْخَطَرِ، دَفَعَهُ بِسُرْعَةٍ قَائِلًا: ادْخُلْ غُرْفَةَ زَوْجَةِ خَالِكَ، فَقَدْ يَسْتَحُونَ مِنْ
 تَفْنِيهِ غُرْفِ الْحَرِيمِ.

انْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِسُرْعَةٍ، وَأَغْلَقَ خَلْفَهُ الْبَابَ، وَلَكِنَّ الْجُنُودَ لَمْ يَسْتَحُوا،
 وَتَادُوا يَكْسِرُونَ بَابَ الْغُرْفَةِ الْمَغْلُوقِ؛ لِأَنَّ مَنْ بَدَاخِلِهِ تَأَخَّرَ فِي فَتْحِهِ، وَعِنْدَمَا
 فَتَحَتِ الْجَارِيَةُ، انْطَلَقَ الْجُنُودُ إِلَى أَرْكَانِ الْغُرْفَةِ يُفْتَشُونَهَا، وَيَقْلِبُونَهَا رَأْسًا عَلَى

عَقِبَ، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا غَيْرَ زَوْجَةِ الْخَالِ نَائِمَةً عَلَى السَّرِيرِ بِبَطْنِهَا الْكَبِيرِ، تَتَأَوَّمُ
وَتَتَوَجَّعُ، فَهِيَ حَامِلٌ فِي شَهْرِهَا الْأَخِيرِ، وَتُوشِكُ أَنْ تَضَعَ مَوْلُودَهَا.

انْتَهَى الْجُنُودُ مِنْ تَفْتِيشِ الْغُرْفَةِ، وَالْبَيْتِ كُلِّهِ، ثُمَّ خَرَجُوا مُسْرِعِينَ، كَمَا دَخَلُوا

مُسْرِعِينَ، وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ اللَّحَاقَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْتَعِدَا!!

وَأَمَامَ عَيْنِ الْخَالِ، الَّتِي جَحَظَتْ مِنَ الرُّعْبِ وَالِدَهْشَةِ، تَبْتَسِمُ الرُّوحَةُ

الشُّجَاعَةَ، وَهِيَ تَرْفَعُ الْغِطَاءَ عَنِ بَطْنِهَا الْكَبِيرِ، لِتُخْرِجَ مَوْلُودَهَا، فَإِذَا هُوَ ابْنُ أُخْتِهِ،

عَبْدُ الرَّحْمَنِ!!

نَجَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِهَذِهِ الْأَعْجُوبَةِ، وَتَحَتِ جُنْحِ الظَّلَامِ، نَقَلَهُ خَالُهُ إِلَى مَكَانٍ

بَعِيدٍ آمِنٍ، حَيْثُ شَرَعَ عَلَى الْفُورِ فِي تَنْفِيذِ خُطَّتِهِ، فَبَدَأَ بِالِاتِّصَالِ بِأَمْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ



وَعَيَانَهَا الْمُؤَالِينَ لِبَنِي أُمَيَّةَ، ثُمَّ عَبَرَ مَضِيقَ جَبَلِ طَارِقٍ، حَيْثُ كَانُوا فِي اسْتِقْبَالِهِ،
 وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ، حَتَّى كَانَ النَّاسُ قَدْ تَجَمَّعُوا حَوْلَهُ، وَكَوْنَ مِنْهُمْ جَيْشًا قَوِيًّا، وَبَدَأَ
 يَحُوضُ مَعَارِكَ تَوْحِيدِ الْبِلَادِ، مُنْتَقِلًا مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، وَمِنْ نَصْرِ إِلَى نَصْرِ،
 وَالنَّاسُ يَتَكَثَّفُونَ حَوْلَهُ، وَجَيْشُهُ يَزْدَادُ قُوَّةً، حَتَّى أَخْضَعَ الْأَنْدَلُسَ كُلَّهَا، وَسَيَطَرَ
 عَلَيْهَا، وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ خَلِيفَةً أُمَوِيًّا فِي الْأَنْدَلُسِ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ !!

اِنْتِصَارُ وَانْكَسَارِ

وَهُنَا، تَنَهَّدَ صَاحِبِي الْهُدْهُدِ، وَصَمَتَ لِحِظَةٍ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: وَهَكَذَا
 يَا لَدِي، بَدَأَتْ أَسْبَابُ الضَّعْفِ، فَقَدْ صَارَتِ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مُنْقَسِمَةً إِلَى
 قِسْمَيْنِ؛ خِلَافَةِ عَبَّاسِيَّةٍ فِي الْمَشْرِقِ، وَخِلَافَةِ أُمَوِيَّةٍ فِي الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَمْ
 يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، فَقَدْ جَرَتْ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ حُرُوبٌ طَاحِنَةٌ، انْتَصَرَ فِيهَا
 الشَّابُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرَ بَطُولَتَهُ وَفُرُوسِيَّتَهُ النَّادِرَةَ، وَحَازَ إِعْجَابَ أَعْدَائِهِ
 وَأَصْدِقَائِهِ عَلَى السَّوَاءِ، لِدَرَجَةِ أَنْ أَعْدَاءَهُ هُمُ الَّذِينَ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ (صَقْرٍ قُرَيْشِي).
 عِنْدَمَا سَمِعْتُ اسْمَ (صَقْرٍ قُرَيْشِي) انْتَفَضْتُ مِنْ مَكَانِي وَاقِفًا، وَقُلْتُ لِلْهُدْهُدِ:
 أَلَيْسَ هَذَا هُوَ صَقْرٌ قُرَيْشِي الْبَطْلَ الْمَشْهُورَ؟! أَنَا أَسْمَعُ اسْمَهُ كَثِيرًا.
 قَالَ الْهُدْهُدُ: نَعَمْ، إِنَّهُ هُوَ.

قُلْتُ لَهُ مُنْذِهِشًا: إِذَا كَانَ هُوَ الْبَطْلَ الْمَشْهُورَ، وَهُوَ حَاكِمُ الْأَنْدَلُسِ، فَلِمَاذَا

سَقَطَتِ الْأَنْدَلُسُ، وَكَيْفَ انْتَصَرَ الصَّلِيبِيُّونَ عَلَيْهِ، وَقَضَوْا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْعَرَبَ
هُنَاكَ!؟

تَهَدَّ الْهُدْهُدُ بِحُزْنٍ وَقَالَ: لِمَ يَحْدُثُ هَذَا فِي زَمَنِ الْبَطْلِ صَقْرٍ قُرَيْشٍ، بَلْ كَانَ
بَعْدَهُ بِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ، تَمَزَّقَتْ خِلَالَهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ، وَتَحَوَّلَتْ كُلُّ مَدِينَةٍ مِنْ مَدِينِهَا
الرَّائِعَةِ إِلَى مَمْلَكَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ يَحْكُمُهَا مَلِكٌ ضَعِيفٌ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْمَمَالِكُ الصَّغِيرَةُ
الضَّعِيفَةُ تَتَصَارَعُ فِيمَا بَيْنَهَا، وَتَسْتَعِينُ كُلُّ مِنْهَا بِالصَّلِيبِيِّينَ الْأَعْدَاءِ، لِكَيْ يَنْصُرُوهُمَا
عَلَى أُخْتِهَا. وَالصَّلِيبِيُّونَ سُعْدَاءُ بِهَذَا الْإِنْقِسَامِ، وَبِهَذِهِ الْعَدَاوَةِ، بَلْ كَانُوا يُزِيدُونَهَا
اشْتِعَالًا بِالْفِتَنِ الَّتِي يَزْرَعُونَهَا بَيْنَ الْأَشْقَاءِ، وَبِالْأَطْمَاعِ وَالْأَحْقَادِ الَّتِي يُغْدُونَ بِهَا
نُفُوسَهُمُ الضَّعِيفَةَ، حَتَّى أَصْبَحَ الْأَخُ عَدُوًّا لِأَخِيهِ، وَالابْنُ خَضْمًا لِأَبِيهِ.

كُلُّ ذَلِكَ وَالصَّلِيبِيُّونَ يَتَحَيَّيْتُونَ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ، حَتَّى جَاءَتْهُمْ هَذِهِ الْفُرْصَةُ،
وَانْقَضُوا عَلَى الْجَمِيعِ مِثْلَ ذَنَابِ جَائِعَةٍ، تَقْتَرِسُ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ، لَيْسَ لَهُ رَاعٍ وَلَا
حَارِسٌ!!

صَرَخْتُ بِعَيْظٍ وَحُزْنٍ: كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ؟! كَيْفَ؟!
تَهَدَّ الْهُدْهُدُ، وَقَالَ لِي: هَذَا مَا حَكَاهُ جِدُّنَا هُدْهُدُ الْأَنْدَلُسِ.

قُلْتُ: وَمَنْ هُدْهُدُ الْأَنْدَلُسِ!؟

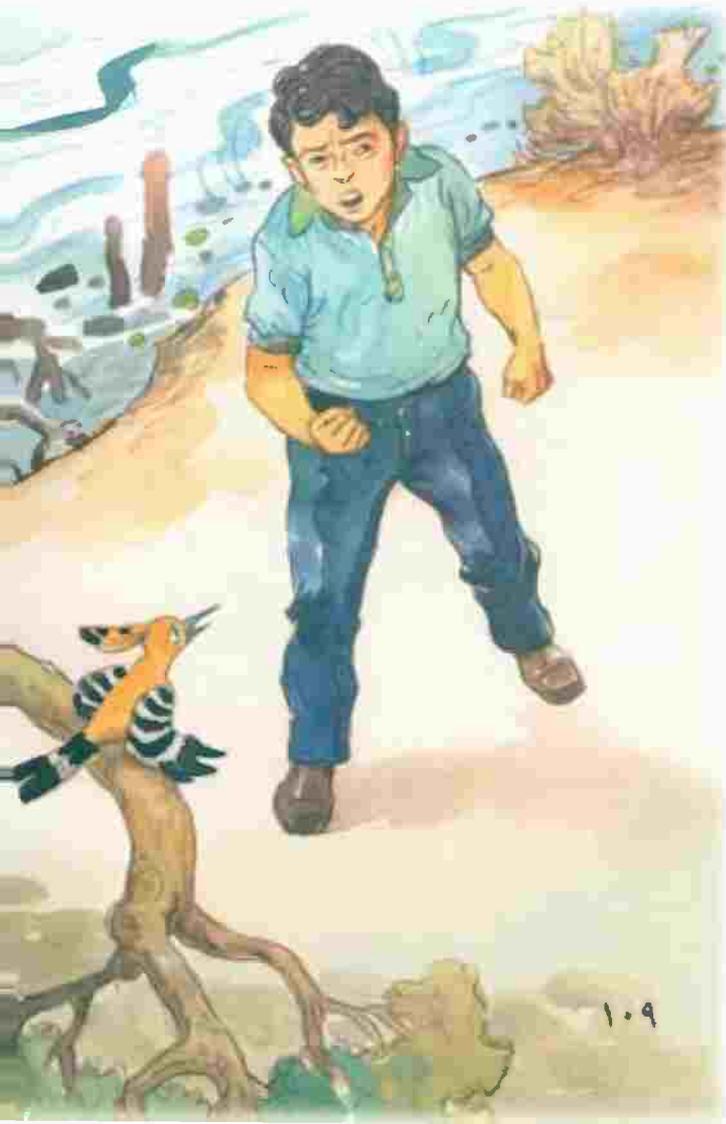
فَقَالَ: هُدْهُدُ الْأَنْدَلُسِ هُوَ الْهُدْهُدُ الَّذِي رَأَى مِنَ الْفَطَائِحِ وَالْأَهْوَالِ مَا لَمْ يَرَهُ

هَذِهِ غَيْرُهُ، حَتَّىٰ إِنَّ رِيْشَهُ قَدْ شَابَ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَىٰ، وَاسْتَحَقَّ وَحْدَهُ، مِنْ بَيْنِ كُلِّ
هَذَاهِ الدُّنْيَا، لَقَبَ الْهُدْهُدِ الْحَزِينِ!!

قُلْتُ بِحَسْرَةٍ: يَا إِلَهِي، إِلَىٰ هَذَا الْحَدِّ؟! وَلَكِنْ كَيْفَ....
وَلَمْ أَكْمِلْ سُؤَالِي، فَقَدْ التَفَّتِ الْهُدْهُدُ نَاطِرًا إِلَى الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ خَلْفَ
الْأَشْجَارِ، وَقَاطَعَنِي بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ الْمُزْتَعِشِ قَائِلًا: لَمْ تَعُدِّ بِي طَاقَةً عَلَى الْكَلَامِ

يَا وَلَدِي. غَدًا، إِذَا كَتَبَ اللَّهُ
لِي الْبَقَاءَ، سَأُحْكِي لَكَ كُلَّ
شَيْءٍ.

وَكَمَا أَفْعَلُ كُلَّ مَسَاءٍ،
حَمَلْتُ الْهُدْهُدَ بَيْنَ كَفَّيَّ،
وَسَنَدْتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَعَدْتُ
بِهِ إِلَى الْبَيْتِ، فَوَضَعْتُهُ فِي
فَقْصِ الْكِتَابِكَيْتِ، وَأَغْلَقْتُ
عَلَيْهِ الْبَابَ بِإِحْكَامٍ. وَمَا هِيَ
إِلَّا لِحَظَاتٍ حَتَّىٰ كَانَ يُعْطُّ فِي
نَوْمٍ عَمِيقٍ!!



حُلْمُ الْفَارِسِ

جَلَسْتُ عَلَى حَرْفِ السَّرِيرِ، أَنْظُرُ إِلَى الْهُدُودِ، حَزِينًا مُرْتَبِكًا، أَفْكُرُ:
مَاذَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لِي هَذَا الطَّائِرُ الْعَجِيبُ؟! حِكَايَاتُهُ جَمِيلَةٌ، وَلَكِنَّهَا مَلِيئَةٌ
بِالْحُزَانِ. وَدَائِمًا يَقُولُ لِي: هَذِهِ أَمَانَتُكَ!! وَدَائِمًا يَقُولُ لِي: أَنْظُرْ، وَتَعَلَّمْ!! مَاذَا
يُرِيدُنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ؟! وَمَاذَا يُرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَ...؟!، وَدُونَ أَنْ أُدْرِي، مَلْتُ بِجَانِبِي
عَلَى السَّرِيرِ، وَاضِعًا يَدَيَّ تَحْتَ رَأْسِي، وَنِمْتُ.

لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلَا كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ وَحَلُمْتُ.

وَفِي الْحُلْمِ، كَانَ حِصَانِي وَاقِفًا تَحْتَ شَجَرَةِ الثُّوتِ، يَضْهَلُ غَاضِبًا، وَيَضْرِبُ
الْأَرْضَ بِحَوَافِرِهِ، وَيَلْفُ، وَيَدُورُ بِالْعَرَبَةِ الْحَرْبِيَّةِ ذَاتِ الْعَجَلَاتِ، الَّتِي يَجْرُهَا،
وَأَنَا فِي غُرْفَتِي أُرْتَدِي مَلَابِسَ الْفَارِسِ، وَأَضْعُ الْقَوْسَ عَلَيَّ كَتْفِي، وَأَرْبِطُ جِرَابَ
السَّهَامِ عَلَى ظَهْرِي. وَالْغَرِيبُ أَنِّي كُنْتُ هَادِتًا، لَا خَائِفًا، وَلَا مُتَوَتِّرًا، مَعَ أَنْتِي
ذَاهِبٌ إِلَى الْحَرْبِ، لَكِنِّي أَقْضِي عَلَى قُطْعَانِ الذَّنَابِ، الَّتِي هَاجَمَتْ وَادِي النَّيْلِ،
وَصَارَ عَوَاوُهُا يُقْلِقُ أَفْرَاسَ النَّهْرِ فِي مِصْرَ، وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ لِي الْحِصَانُ عِنْدَمَا أَدْخَلَ
رَقَبَتَهُ مِنَ الشُّبَّاكِ، وَقَالَ لِي: هَيْتَا يَا (أَحْمُسُ)^(١)، فَلَمْ يَعْذُ لَدَيْنَا وَقْتُ، لَقَدْ هَاجَمَتْنَا
الذَّنَابُ.

وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ إِلَى الْهُدُودِ مُتَسَائِلًا عَنِ هَذَا الْاسْمِ الْجَدِيدِ، هَزَّ رَأْسَهُ مُؤَكَّدًا،

(١) أَحْمُسُ نَظْلٌ مِصْرِي قِيمٌ، حُوزٌ مِصْرِي مِنَ (الْهُكْسُوسِ) الَّذِينَ احْتَلَوْهَا، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا لِأَكْثَرِ مِنْ مِئَةِ عَامٍ.



وَقَالَ: نَعَمْ، أَحْمَسُ الْبَطْلُ، هُوَ أَحْمَدُ الْأَمِينُ. ثُمَّ طَارَ مِنْ فَوْقِ قَفْصِ الْكِتَابِكَيْتِ خَارِجًا مِنَ الشُّبَّاكِ، وَهُوَ يَأْمُرُنِي بِحِمَاسَةٍ: هَيَّا يَا أَحْمَسُ الْأَمِينُ، هَيَّا ائْبُغْنِي. فَرَفَعْتُ ذِرَاعِي عَالِيًا، وَانْدَفَعْتُ مَائِلًا إِلَى الْأَمَامِ، كَمَنْ يَقْفِزُ فِي الْمَاءِ، فَرَفَعَنِي الْهَوَاءُ، وَطَرْتُ خَلْفَ الْهُدُودِ عِبْرَ الشُّبَّاكِ، فَإِذَا بِالْحِصَانِ أَمَامَنَا يَجْرِي بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ مُتَّجِهًا إِلَى النَّيْلِ، لَحِقْتُ بِهِ، وَهَبَطْتُ مِنَ الْهَوَاءِ، نَازِلًا بِرِجْلَيَّ عَلَى الْعَرَبَةِ، وَأَمْسَكْتُ بِاللِّجَامِ، وَأَخَذْتُ أَشَدَّهُ بِكُلِّ قُوَّتِي لِكَيْ أُوقِفَ انْدِفَاعَ الْحِصَانِ، قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ بِنَا فِي مَاءِ النَّيْلِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ، بَلْ أَزْدَادَ انْدِفَاعُهُ، مَعَ صَيْحَةِ الْهُدُودِ: (إِلَى الْأَمَامِ)، وَإِذَا بِهِ يَجْرِي فَوْقَ مَوْجِ النَّيْلِ الَّذِي صَارَ، فَجْأَةً، مُتَّصِلًا مِثْلَ الرَّجَاحِ، وَصَارَتِ الْعَجَلَاتُ تَضْطَكُ بِهِ، وَتُصَدِّرُ شَرْرًا شَدِيدًا، وَالْعَرَبَةُ تَرْتَجُّ بِنَا ارْتِجَاجًا عَنِيفًا، بَيْنَمَا عَوَاءَ الذُّنَابِ يَتَعَالَى كُلَّمَا اقْتَرَبْنَا مِنَ الشَّاطِئِ الْآخِرِ، حَتَّى صِرْنَا فِي مُوَاجَهَةٍ قَطِيعِ الذُّنَابِ الْهَائِلِ، فَهَتَفَ الْهُدُودُ: جَهِّزْ سِهَامَكَ، وَاضْرِبْ يَا أَمِينُ.

وَعَلَى الْفُورِ، صَوَّبْتُ أَوَّلَ سِهَامِي إِلَى الذُّنْبِ الْكَبِيرِ، فَاخْتَرَقَ رَقَبَتَهُ، فَحَرَّرَ صَرِيعًا، فَصَوَّبْتُ سَهْمًا ثَانِيًا، فَاخْتَرَقَ رَقَبَةَ ذَنْبِ آخَرَ، فَصَوَّبْتُ ثَالِثًا، فَارْبَعًا، فَخَامِسًا. وَعِنْدَئِذٍ، تَرَاجَعَتِ الذُّنَابُ أَمَامَنَا، تَجْرِي هَارِبَةً، وَأَنَا خَلْفَهَا أُصَوِّبُ، وَأُصِيبُ، وَالْهُدُودُ يَهْتَفُ: اللَّهُ أَكْبَرُ.. اللَّهُ أَكْبَرُ.

وَفَجْأَةً، تَوَقَّفَ أَحَدُ الذُّنَابِ عَنِ الْجُرْيِ، وَاسْتَدَارَ لِيُوَاجِهَنِي. وَقَبْلَ أَنْ أَضَعَ السَّهْمَ فِي الْقَوْسِ، قَفَزَ إِلَيَّ الذُّنْبُ لِيُهَاجِمَنِي بِأَنْبِيَابِهِ، فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ غَرَسْتُ السَّهْمَ فِي رَقَبَتِهِ، وَلَكِنَّهُ، فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا، كَانَ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ يَدِي، فَأَطْبَقَ عَلَيْهَا

بَعْيَابِهِ الْقَوِيَّةِ. صَرَخْتُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، وَلَمْ أَتَمَالِكْ نَفْسِي، فَتَرَنَحْتُ، وَسَقَطْتُ مِنْ
فَوْقِ الْعَرَبَةِ، وَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ تَحْرِيكَ يَدَيَّ، وَبَيْنَمَا أَنَا أَحَاوِلُ جَاهِدًا أَنْ أُفْلِتَ مِنْ
أَيْبَاهِ، صَحَوْتُ مِنَ النَّوْمِ !!

صَحَوْتُ مِنَ النَّوْمِ، لِأَجْدَ نَفْسِي قَدْ وَقَعْتُ مِنْ فَوْقِ السَّرِيرِ مُرْتَبِّطًا بِالْأَرْضِ،
وَلَا أَسْتَطِيعُ تَحْرِيكَ يَدَيَّ الَّتِي كُنْتُ نَائِمًا عَلَيْهَا طَوَالَ اللَّيْلِ !!

فَتَّحْتُ عَيْنَيَّ عَلَى صَوْتِ الْهُدُودِ وَهُوَ يَقُولُ بِقَلْبِي شَدِيدًا: سَلَّمَكَ اللَّهُ يَا
وَلَدِي.. سَلَّمَكَ اللَّهُ . وَاسْتَكْمَلْتُ إِفَاقَتِي مَعَ نَقْرَاتِ الْعُصْفُورَةِ عَلَى زُجَاجِ
النُّبَّاقِ، فَنَهَضْتُ وَاقْفًا، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ فَتْحَ النُّبَّاقِ لَهَا، فَقَدْ كَانَ آلاَفُ النَّمْلِ
يَجْرُونَ فِي يَدَيَّ !!



الهُدْهُدُ الْحَزِينُ

عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ، ظَلَلْتُ صَامِتًا، وَأَنَا أَقْلِبُ التُّرْبَةَ أَمَامَ الْهُدْهُدِ، وَظَلَّ هُوَ
أَيْضًا يَأْكُلُ فِي صَمْتٍ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِقَلْقٍ وَأَنَا أَدْلِكُ يَدِي، وَلَكِنِّي طَمَآنْتُهِ بِأَنَّ
النَّمْلَ كُلَّهُ قَدْ ذَهَبَ عَن يَدِي، ثُمَّ رَفَعْتُهُ فَأَجْلَسْتُهُ عَلَى الْغُصْنِ، وَحَتَّى لَا يَسْأَلَنِي
عَنِ الْحُلْمِ، بَادَرْتُهُ قَائِلًا: وَالْآنَ، إِلَى حِكَايَةِ جَدِّكَ الْهُدْهُدِ الْحَزِينِ.

اغْتَدَلَ صَاحِبِي الْهُدْهُدِي فِي جِلْسَتِهِ، وَابْتَسَمَ لِي ابْتِسَامَةً

ذَاتَ مَعْنَى، وَقَالَ: أَلَيْسَ جَدُّكَ أَنْتَ أَيْضًا؟

قُلْتُ: بَلَى، إِنَّهُ جَدِّي.

فَقَالَ: الْغَرِيبُ الْعَجِيبُ فِي أَمْرِ

جَدَّنَا الْهُدْهُدِ الْحَزِينِ أَنَّهُ لَمْ

يَكُنْ كَذَلِكَ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِ،

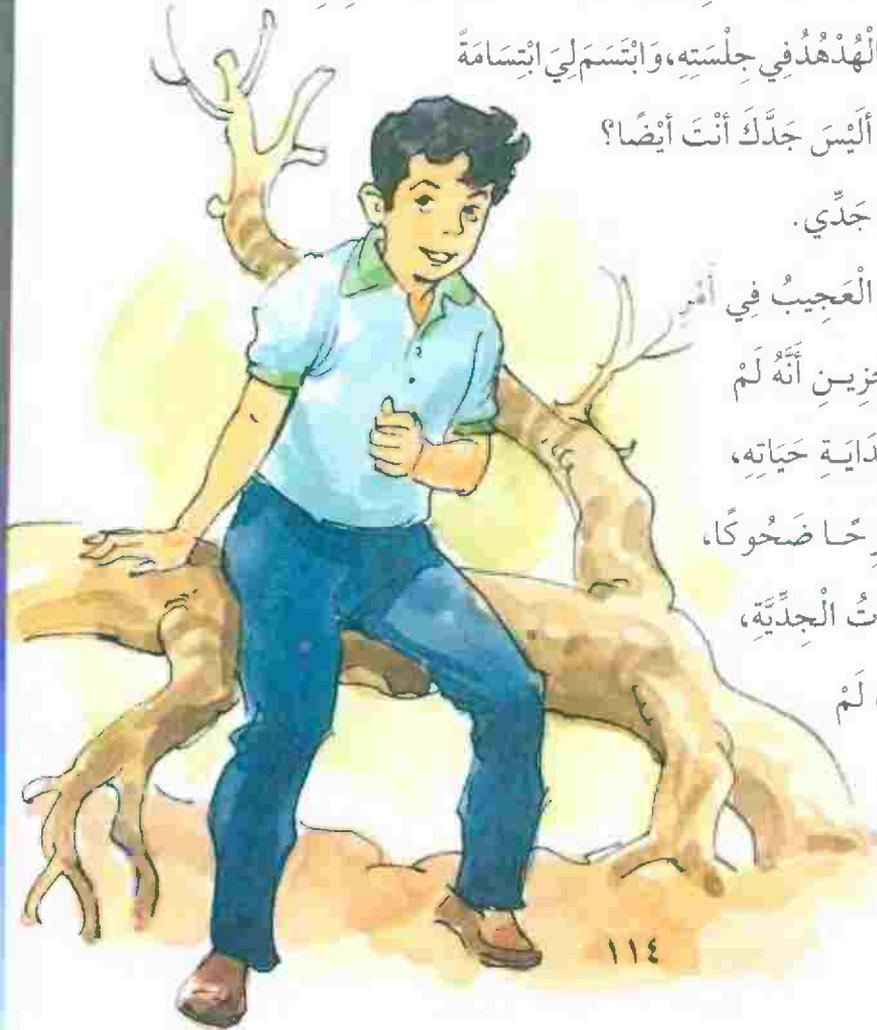
بَلْ كَانَ هُدْهُدًا مَرِحًا ضَحُوكًا،

لَا تَبْدُو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْجِدِّيَّةِ،

لِدَرَجَةٍ أَنْ وَالِدَهُ، لَمْ

يَكُنْ يَشْعُرُ تَجَاهَهُ

بِالثَّقَةِ الْكَامِلَةِ،



بَلْ كَانَ يَرَاهُ هُذْهَدًا شَابًا طَائِشًا، يُحِبُّ اللَّهْوَ وَاللَّعِبَ، وَلَيْسَ جَادًّا فِي الْبَحْثِ عَنِ
 الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَهُوَ يَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهِ فِي حَدَائِقِ الشَّامِ وَبَسَاتِينِهَا، وَعِنْدَ عُيُونِ
 الْمَاءِ الْجَارِيَةِ، حَيْثُ تَتَجَمَّعُ الطُّيُورُ، مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَلَوْنٍ، تَلْهُو وَتُغَرَّدُ!!
 وَبِالطَّبْعِ، لَمْ يَكُنِ الْأَبُ يَكْرَهُ الْغِنَاءَ، فَهُوَ نَفْسُهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يُغَنِّي، رَغْمَ أَنَّ
 صَوْتَهُ لَمْ يَكُنْ يَكُنْ جَمِيلًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُو وَالْغِنَاءُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ،
 وَخُصُوصًا فِي حَيَاةِ هُذْهَدٍ عَلَيْهِ وَاجِبَاتٌ كَبِيرَةٌ، وَلِذَلِكَ كَانَ شَدِيدًا عَلَيْهِ وَهُوَ
 يُرْصِيهِ وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ الْعَهْدَ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْإِبْنَ الشَّابَّ كَانَ قَدْ بَلَغَ فِعْلًا سِنَّ الْعَقْلِ، وَبَدَأَ شُعُورُهُ بِالْوَاجِبِ
 يَمُودَاخِلُهُ، وَخَاصَّةً فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ، وَهُوَ يَسْمَعُ الْأَخْبَارَ الَّتِي تَتَنَاقَلُهَا الطُّيُورُ
 الْمُهَاجِرَةُ عَنِ الْأَنْدَلُسِ، وَعَنِ الْمَذَابِحِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ هُنَاكَ.
 وَعِنْدَمَا مَاتَ الْهُذْهَدُ الْأَبُ كَانَ هَذَا الْإِبْنُ الشَّابُّ مُسْتَعِدًّا تَمَامًا لِتَوَلِّي
 الْحَمْسُوولِيَّةِ، وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، كَانَ قَدْ تَرَكَ الشَّامَ، وَطَارَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، تَنْفِيذًا
 لِرِصِيَّةِ وَالِدِهِ.

كَفُّ الْعِضْرِيَّةِ

مِنَ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِرُصُولِهِ، أَدْرَكَ الْهُذْهَدُ الشَّابُّ حَجْمَ الْمَسْئُولِيَّاتِ الثَّقِيلَةِ
 الَّتِي يُوَاجِهُهَا، فَالْأَنْدَلُسُ لَمْ تُعْذِ الْحُلْمَ الْجَمِيلَ كَمَا كَانَ يَصِفُهَا أَجْدَادُهُ، بَلْ

وَالْمُسْلِمُونَ فَهُمْ خَوْنَةٌ كَذَّابُونَ، لَا يَسْتَحِقُّونَ مِنِّي إِلَّا هَذَا السَّيْفَ، أَمْرُقُ بِهِ
أَجْسَادَهُمْ وَأَجْسَادَ نِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ!!

- حَتَّى فِي هَذَا أَنْتَ كَاذِبٌ يَا فِرْدِينَانْدُ، أَنْتَ لَسْتَ وَفِيَّ لِي، وَلَا لِشَعْبِكَ، وَلَا

لَأَيِّ أَحَدٍ، أَنْتَ وَفِيَّ فَقَطْ لِأَطْمَاعِكَ وَطُمُوحَاتِكَ!!

- إيزابيللا، مَاذَا تَقُولِينَ!!

- لَا تَغْضَبْ مِنْ صَرَاحَتِي يَا فِرْدِينَانْدُ.

- وَلَكِنْ، لِمَاذَا سَعَيْتَ لِلزَّوْاجِ بِي إِذَنْ، إِذَا كُنْتَ تَرَبِّئَنِي بِهَذَا الشُّؤْمِ!؟

- لَا تَخَفْ يَا عَزِيزِي، فَأَنَا وَأَنْتَ تَتَّفِقُ فِي أَمِّ

هَدَفٍ فِي حَيَاةِ كُلِّ مِنَّا؛ فَأَنْتَ تُرِيدُ

لِنَفْسِكَ مُلْكَ إِسْبَانِيَا كُلِّهَا، وَأَنَا أُرِيدُ

تَطْهِيرَهَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ،

وَلَنْ يَتَحَقَّقَ هَدْفُكَ، إِلَّا إِذَا تَحَقَّقَ هَدْفِي.

وَلِهَذَا تَزَوَّجْتُكَ يَا عَزِيزِي فِرْدِينَانْدُ، وَأَعْطَيْتُكَ

مَمْلَكَتِي (قِسْطَالَةَ الْعُظْمَى) الَّتِي وَرِثْتَهَا

عَنْ أَجْدَادِي، لِتَتَّحِدَ مَعِ مَمْلَكَتِكَ

(أَرَاغُونِ)، وَتُصْبِحَ الْمَمْلَكَتَانِ مَعًا،

قُوَّةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً، تُقَوِّدُهَا أَنْتَ



لِتَحْرِيرِ إِسْبَانِيَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ. وَأَرْجُوكَ أَنْ
تَتَذَكَّرَ هَذَا دَائِمًا، فَهَذَا هُوَ الْحِلْفُ الْمُقَدَّسُ بَيْنَنَا؛ لَكَ
مُلْكُ إِسْبَانِيَا، وَلِي الْقَضَاءُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ؛
عَلَى لُغْتِهِمْ وَدِينِهِمْ وَتَقَاتِهِمْ، وَعَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ،
وَوُجُودِهِمْ كُلَّهُ!!

- كُنْتُ أَظُنُّ.. كُنْتُ أَظُنُّ..

- كُنْتُ تَظُنُّ مَاذَا؟!

- كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ تُحِبِّينِي، وَأَنَّ زَوَاجِكَ مِنِّي لَمْ يَكُنْ
مِنْ أَجْلِ الْمَضْلَحَةِ فَقَطْ!!

- دَعَكَ مِنْ هَذَا الْهَرَاءِ أَيُّهَا الْمُمَثِّلُ الْبَارِعُ، أُرِيدُكَ أَنْ
تَسْتَخْدِمَ هَذِهِ الْبِرَاعَةَ التَّمثِيلِيَّةَ فِي خِدَاعِ ضَيْفِكَ
الْقَادِمِ، فَبَعْدَ قَلِيلٍ سَيَأْتِي إِلَيْنَا أَوَّلُ الْعَرَبِ الْخَوْنَةِ
الْكَذَّابِينَ، إِنَّهُ الْأَمِيرُ الْمُنَافِقُ (بُوعَبْدِ اللَّهِ)، الثَّائِرُ
عَلَى عَمِّهِ، مَلِكِ غِرْنَاطَةَ، (مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدِ بْنِ
الْأَحْمَرِ). وَهَذِهِ فُرْصَتُنَا؛ فَبُوعَبْدِ اللَّهِ يَكْرَهُ عَمَّهُ،
وَيُرِيدُ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ اغْتَصَبَ مِنْهُ الْمُلْكَ،

وَالْعَمُّ يَكْرَهُ ابْنَ أَحِيهِ، وَيُرِيدُ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ يَعْرِفُ
أَنَّهُ أَحَقُّ مِنْهُ بِهَذَا الْمُلْكِ. أَمَا نَحْنُ فَتَكَرَّهُمَا مَعًا، وَنُرِيدُ
الْقَضَاءَ عَلَيْهِمَا مَعًا، وَذَلِكَ بَأَنَّ تَزِيدَ الْفِتْنَةَ وَالْعِدَاوَةَ
بَيْنَهُمَا، وَأَنْ نُنْقِعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنَّهُ صَدِيقُنَا الْوَحِيدُ
الَّذِي سَتَحَالَفُ مَعَهُ مِنْ أَجْلِ الْقَضَاءِ عَلَى الْآخِرِ !!

- أَنْتِ دَاهِيَةٌ يَا إيزَابيل !!

- وَأَنْتِ نَذْلٌ يَا عَزِيزِي فِرْدِينَانْد، وَلَوْلَا وُجُودُكَ مَعِي
لَمَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ التَّفَكِيرَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْمَاكِرَةِ، وَإِلَّا
فَمَنْ سَيَنْقُذُ، وَمَنْ سَيَعْهَدُ لِكُلِّ مِنْهُمَا، وَيُعْطِيهِ مَا يَشَاءُ
مِنَ الْوَعُودِ، ثُمَّ يَتَخَلَّى عَنْهُ بِكُلِّ حِسَّةٍ وَنَذَالَةٍ. مَنْ يَسْتَطِيعُ
عَمَلَ ذَلِكَ مِثْلَكَ أَنْتِ يَا عَزِيزِي !!

كَانَ الْهُدْهُدُ وَاقِفًا عَلَى الشُّبَاكِ يَنْتَفِضُ غَيْظًا مَعَ كُلِّ
كَلِمَةٍ يَسْمَعُهَا، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ الْآنَ الْعِفْرِيَّتَ الَّذِي يَحْمِلُ
الْأَنْدُلُسَ عَلَى كَفِّهِ، وَيَتَلَاعَبُ بِهَا، كَمَا تَتَلَاعَبُ الْعَاصِفَةُ
بِسَفِينَةٍ كُسِرَتْ دَقَّتْهَا، وَتَمَزَّقَتْ أَشْرَعَتْهَا.



رَائِحَةُ الْخِيَانَةِ

كَانَ الْهُدْهُدُ يُفَكِّرُ أَنَّ هَذِهِ مُجَرَّدُ مُؤَامَرَةٍ تَافِهَةٍ وَحِيلَةٍ سَادِجَةٍ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ

فِيهَا عَاقِلٌ، فَكَيْفَ بِمَلِكٍ مُسْلِمٍ يَعْرِفُ الدِّينَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّارِيخَ !!؟

وَلَكِنْ، مَا هِيَ إِلَّا دَقَائِقُ حَتَّى رَأَى الْهُدْهُدُ مَا يُثْبِتُ لَهُ أَنَّهُ هُوَ السَّادِجُ، فَقَدْ دَخَلَ

الْأَمِيرَ (بُو عَبْدِ اللَّهِ)، وَانْحَنَى لِمَلِكِ الصَّلِيبِيِّينَ وَهُوَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ يُبَالِغُ فِي

التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ، وَإِظْهَارِ الْمَحَبَّةِ وَالْوَلَاءِ لَهُ، وَيَزُجُّهُ أَنْ يَقِفَ مَعَهُ فِي قِتَالِهِ ضِدَّ عَدُوِّهِمَا

الْمُشْتَرِكِ؛ عَمَّهُ (مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدِ بْنِ الْأَحْمَرِ) مَلِكِ غَرْنَاطَةَ، وَيُوكِّدُ لَهُ أَنَّ عَمَّهُ هَذَا

خَبِيثٌ، يُحْطَطُ لِاسْتِرْدَادِ الْأَنْدَلُسِ كُلِّهَا، لِكَيْ يَكُونَ مَلِكًا وَحِيدًا عَلَيْهَا!!

وَلَمْ يَنْدُلْ فِرْدِينَانَ جَهْدًا كَبِيرًا، لِكَيْ يَجْعَلَ (بُو عَبْدِ اللَّهِ) يَتَنَزَّلُ لَهُ عَنْ ثَلَاثِينَ

قَلْعَةً إِسْلَامِيَّةً حَصِينَةً، تُحِيطُ بِمَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةَ، بِحُجَّةٍ أَنَّهُ سَيَضَعُ فِيهَا جُنُودَ

الْأَقْرَبِيَاءِ، لِكَيْ يَقَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى جَيْشِ عَمِّهِ إِذَا جَاءَ

يُهَا جَمْعُهُ، مُتَعَهِّدًا لَهُ بِأَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ عِنْدَمَا يَطْلُبُهَا مِنْهُ!!

كَانَ الْهُدْهُدُ وَاقِفًا عَلَى الشُّبَّانِكِ، يَكَادُ يَنْفَجِرُ

غَيْظًا وَحُزْنًا، وَهُوَ يُتَابِعُ هَذَا الْمَشْهَدَ الْمُخْزِيَّ؛

(بُو عَبْدِ اللَّهِ) جَالِسٌ مَعَ فِرْدِينَانَ، يَرَسُمُ الْخُطَّةَ،

الَّتِي سَيَقْضِي بِهَا عَلَى عَمِّهِ، وَالَّتِي تَبْدَأُ

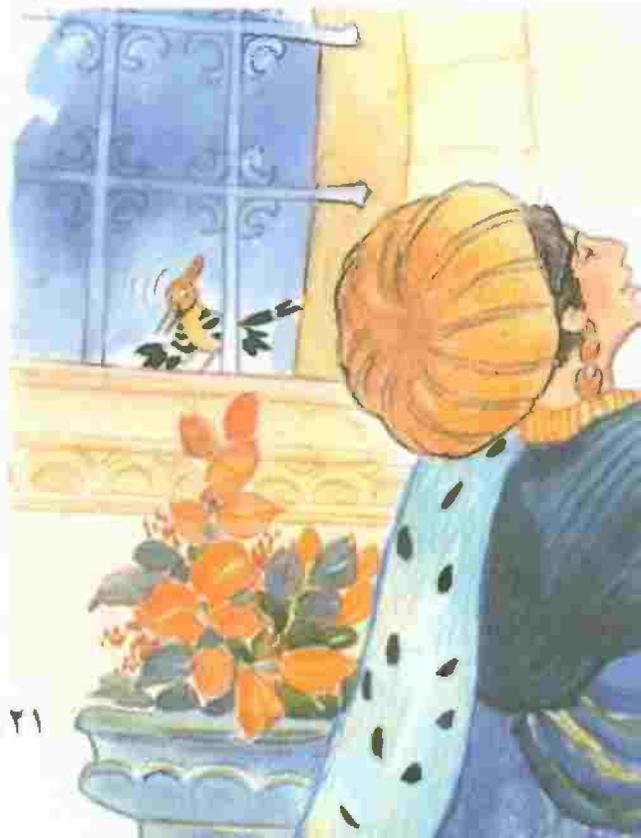
بِنَسْلِيمِ الْقِلَاعِ لِفِرْدِينَانَ سِرًّا، وَخُصُوصًا



الِقِلَاعِ الَّتِي تَفْتَحُ أَبْوَابَ غِرْنَاطَةَ أَمَامَ مَنْ يُرِيدُ غَزْوَهَا، وَيَلِي ذَلِكَ أَنْ يُعْلِنَ (بُو
عَبْدِاللَّهِ) أَنَّهُ قَدْ تَصَالَحَ مَعَ النَّصَارَى، وَأَنَّهُ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدٍ بِالْعَفْوِ وَالْأَمَانِ،
لِتَلَّ مُسْلِمِي غِرْنَاطَةَ، إِذَا هُمْ بَايَعُوهُ، وَأَعَانُوهُ عَلَى خَلْعِ عَمِّهِ، وَاسْتِرْدَادِ مَلِكِ أَبِيهِ!!
وَتَنْجِحُ الْخَطَّةَ الْخَبِيثَةَ، وَيَتَجَمَّعُ حَوْلَهُ الْأَعْوَانُ، فَيَقْتَحِمُ غِرْنَاطَةَ، وَيُسَيِّطِرُ
عَلَيْهَا، وَيُعْلِنُ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَيْهَا!!

وَمِنَ الشَّبَابِكِ، رَأَى الْهَدُودُ بِعَيْنِهِ، وَسَمِعَ بِأُذُنِهِ قَهَقَاتِ فِرْدِيَانَدِ وَإِيزَابِيلَا،
وَهُمَا يَضْحَكَانِ سَاخِرَيْنِ مِنْ خَبِيَّةِ بَنِي الْأَحْمَرِ، وَمُنْتَشِسِينَ بِهَذَا النَّجَاحِ، الَّذِي
قَوَّبَهُمَا كَثِيرًا مِنْ هَدَفِهِمَا النَّهَائِيَّ؛ فَقَدَتَمَّ التَّخْلُصُ مِنَ الْعَمِّ الْقَوِيِّ، وَلَمْ يَبْقَ
أَمَامَهُمَا إِلَّا هَذَا الضَّعِيفُ (بُوْعَبْدِاللَّهِ) لَكِي يَتِمَّكُنُوا مِنَ الْقَضَاءِ نِهَائِيًّا عَلَى الْعَرَبِ
وَالْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ!!

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، لَمْ يَتَمَّاكِكِ
الْهَدُودُ نَفْسَهُ، فَتَقِيًّا مَا فِي بَطْنِهِ،
وَأَنْهَارَ عَلَى الْأَرْضِ فِي مَكَانِهِ
يَزْتَجِفُ، وَيُجْهِشُ بِالْبُكَاءِ، وَهُوَ
يُرَدِّدُ: لُطْفَكَ يَا رَبِّ ... رَحْمَتَكَ يَا
رَبِّ ... لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.



رَحْلَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ

حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَمْ يَكُنِ الْهُدْهُدُ قَدْ رَأَى غَرْنَاطَةَ بَعَيْنِهِ، فَقَدْ كَانَ طَوَّافَ الْوَقْتِ يُتَابِعُ الْمُؤَامِرَةَ الَّتِي تُحَاكُّ فِي قَصْرِ فِرْدَيْنَانْدَ وَإِيزَابِيلَا فِي مَمْلَكَةِ أَرَاغُوجُونِ. وَلِذَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَوْ يَتَخَيَّلُ مَا رَأَاهُ!! لِدَرَجَةِ أَنَّهُ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى أَسْوَرِ غَرْنَاطَةَ، تَسَمَّرَ فِي مَكَانِهِ مَشْدُودًا مَسْحُورًا مِنْ رَوْعَةِ مَا رَأَاهُ، وَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ فَخَرَّ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَهُوَ يَقُولُ: تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، هَذِهِ جَنَّةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ. وَقَدْ كَانَ مُحِقًّا تَمَامًا، فَغَرْنَاطَةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ كَانَتْ أَجْمَلَ مَكَانٍ عَلَى الْأَرْضِ. فَسَلَاطِينُ بَنِي الْأَحْمَرِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَيْهَا لَمْ يَتْرُكُوا مَكَانًا فِيهَا إِلَّا حَوَّلُوهُ إِلَى حَدِيقَةٍ، وَلَمْ يَتْرُكُوا شَجَرَةً، تَبْتُ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا وَجَلَبُوهَا، وَغَرَسُوهَا فِي حَدَائِقِ بِلَادِهِمْ، حَتَّى صَارَتْ غَرْنَاطَةُ كُلُّهَا بُسْتَانًا بَدِيعًا مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْوُرُودِ وَالْحُضْرَةِ، تَتَخَلَّلُهَا الْمَنَازِلُ، وَالْمَسَاجِدُ، وَالْمَدَارِسُ، وَالْمُسْتَشْفَيَاتُ، وَالْمَكْتَبَاتُ، وَالْجَامِعَاتُ، حَتَّى صَارَتْ قِبْلَةَ الزَّائِرِينَ وَطَلَّابِ الْعِلْمِ، مِنْ كَافَّةِ أَرْجَاءِ الدُّنْيَا. وَكَانَ أَكْثَرَ مَا بَهَرَ الْهُدْهُدَ (قَصْرُ الْحَمْرَاءِ)، الَّذِي بَنَاهُ أَوَّلُ سَلَاطِينِ بَنِي الْأَحْمَرِ عَلَى تَلَّةِ خَضْرَاءَ، تُشْرِفُ عَلَى بِلَادِهِ مِنْ كُلِّ الْأَرْجَاءِ، لِكُنْيِ يَجْعَلُهُ رَمِيًّا لِمَمْلَكَتِهِ، وَمَرْكَزًا لِلْحُكْمِ، وَلِذَا أَرَادَهُ أَنْ يَكُونَ بِهَذِهِ الرَّوْعَةِ، وَقَدْ كَانَ بِالْفِعْلِ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْجَمَالِ، تَجَلَّتْ فِيهِ مَوَاهِبُ الْفَنَانِ الْمُسْلِمِ، كَأَبْدَعِ مَا تَكُونُ، فِي فَنِّ الْعِمَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَالزَّرْحَرَفَةِ، وَالْخُطُوطِ، وَتَصْمِيمِ التَّوَاظِيرِ وَالْمَسَاقِي، وَتَنْسِيَةِ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ، حَتَّى إِنَّ الدَّاخِلَ إِلَيْهِ يَمْلَأُهُ الْإِحْسَاسُ بِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ،

بِرُوعَتِهِ وَآكْتِمَالِهِ، يَكْفِيهِ وَيُغْنِيهِ عَنِ الدُّنْيَا كُلِّهَا!!

هَذَا مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ الْهُدُودُ، وَهُوَ يَتَنَقَّلُ فِي قَصْرِ الْحَمْرَاءِ، مِنْ رُكْنٍ إِلَى رُكْنٍ،
وَمِنْ شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ، وَمِنْ نَافُورَةٍ إِلَى نَافُورَةٍ، مَبْهُورًا بِكُلِّ نَقْشٍ وَبِكُلِّ تَصْمِيمٍ.
وَكَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ مُتَعَجِّبًا: كَيْفَ يَجْتَمِعُ كُلُّ هَذَا الْجَمَالِ وَالْفَنِّ وَالذَّوْقِ الرَّفِيعِ
وَكُلُّ تِلْكَ الْخِيسَةِ وَالْخِيَانَةِ فِي قُلُوبِ رِجَالِ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ؟!

وَكَانَ يُفَكِّرُ: يَبْدُو أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يُعَوِّضُوا بِهَذَا الْجَمَالِ الشَّامِخِ عَنْ ضَعْفِهِمْ
الدَّلِيلِ أَمَامَ الْأَعْدَاءِ، وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنَّ هَذَا الْجَمَالَ لَنْ يَظَلَّ شَامِخًا بَدُونَ الْقُوَّةِ
الَّتِي تَحْمِيهِ عِنْدَمَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُ الطَّامِعِينَ.



الدَّيَابُ تَتَرَبَّصُ

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ ابْنَ الْأَحْمَرِ، مُؤَسَّسَ الْمَمْلَكَةِ، لَمْ يَكُنْ يَجْهَلُ خَطَرَ أَعْدَائِهِ الدَّائِمِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُرِدْ لِهَذَا الْخَطَرِ أَنْ يَمْنَعَ غِرْنَاطَةَ مِنَ التَّقَدُّمِ وَالْإِبْدَاعِ. وَلِذَا، فَقَدْ اسْتَخْدَمَ كُلَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ مَكْرٍ وَخِدَاعٍ وَمِنَاوَرَةٍ، لِكَيْ يَنْأَى بِنَفْسِهِ عَنِ كُلِّ الصَّرَاعَاتِ، حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى مَمْلَكَتِهِ، وَأَنْ يَصْرِفَ كُلَّ جَهْدِهِ فِي الْعُمُرَانِ، وَرِعَايَةِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمَعَارِفِ. وَعِنْدَمَا مَاتَ، كَانَتْ غِرْنَاطَةُ فِي أَرْجِ مَجْدِهَا، حَتَّى إِنَّهَا كَانَتْ تُعَدُّ أَعْظَمَ مُدُنِ الْعَالَمِ حَضَارَةً، وَأَكْثَرَهَا ثَرَاءً.

وَلَكِنَّ عَيْنَ الطَّامِعِينَ لَمْ تَنَمَّ عَنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، الَّتِي أَخَذَ الضَّعْفُ وَالْوَهْنُ يَدْبُ فِي جَسَدِهَا الْجَمِيلِ، بَعْدَ مَوْتِ مُؤَسَّسِهَا ابْنِ الْأَحْمَرِ، وَمَا تَوَالَى بَعْدَهُ مِنْ فِتَنِ وَمُؤَامِرَاتٍ وَصِرَاعَاتٍ، نَشَبَتْ بَيْنَ أَبْنَائِهِ وَأَخْفَادِهِ، حَتَّى جَاءَتِ اللَّحْظَةُ الَّتِي يَتَرَقَّبُهَا الصَّلِيبِيُّونَ، بَعْدَ أَنْ

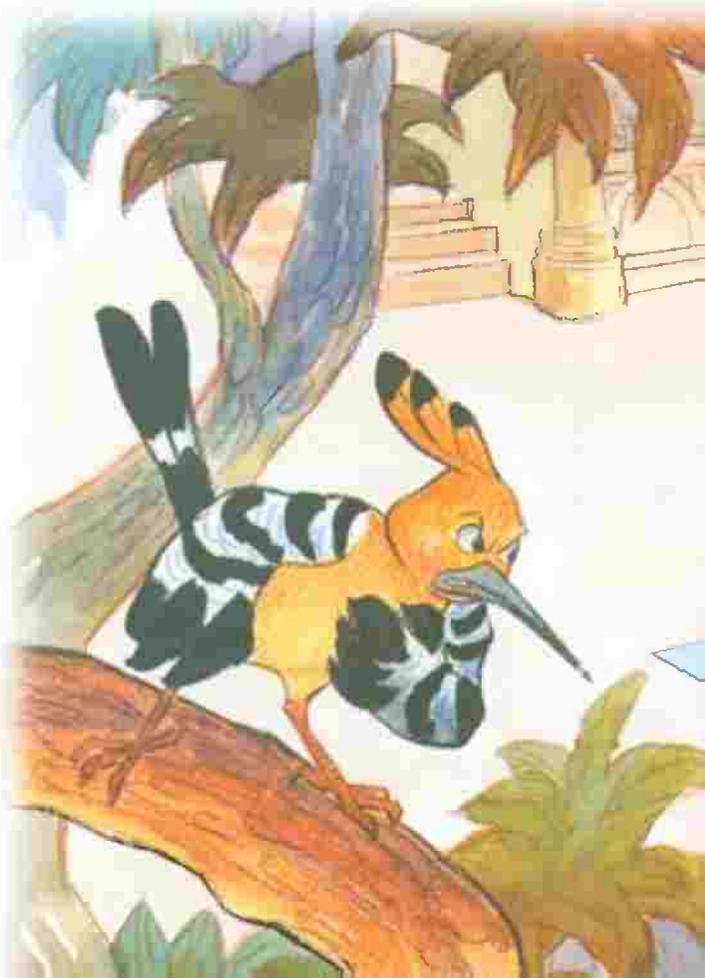


حَدَّثَ مَا حَدَّثَ، وَتَوَلَّى الْمَلِكُ (بُوْعَبْدِ اللَّهِ) الْخَائِنُ لِبِلَادِهِ، الَّذِي كَانُوا يُسْمُونَهُ (بُوْعَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرِ)!! وَالْحَقُّ أَنَّهُ كَانَ اسْمًا عَلَى مُسَمًى، فَهُوَ لَمْ يَكْبُرْ أَبَدًا لِيَصِيرَ رَجُلًا كَالرَّجَالِ، بَلْ ظَلَّ، وَهُوَ مَلِكٌ، خَاضِعًا لِأُمَّهِ (عَائِشَةَ) الْمُتَسَلِّطَةِ، تَمَامًا كَمَا كَانَ خَاضِعًا لَهَا وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ.

وَكَثِيرًا مَا رَأَاهَا الْهُدْهُدُ، وَهِيَ تَجْلِسُ مَكَانَهُ عَلَى كُرْسِيِّ الْعَرْشِ، تُؤَنِّبُهُ وَتُؤَبِّخُهُ عَنِ أَقْلٍ قَرَارٍ يَتَّخِذُهُ دُونَ إِذْنِ مِنْهَا، حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا الْقَرَارُ يَمَسُّ حَيَاتَهُ الشَّخْصِيَّةَ. أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَ يَقِفُ أَمَامَهَا مُطَاطِئَ الرَّأْسِ، مُرْتَبِكًا يَتَلَعَثُ مِثْلَ طِفْلِ خَائِبٍ خَائِفٍ، يُقَرُّ بِذَنْبِهِ، وَيَتَنَطَّرُ

الْعِقَابُ!!

وَلِذَا فَفِي عَصْرِ هَذَا الْمَلِكِ (الصَّغِيرِ)، وَقَعَتِ الْكَارِئَةُ الَّتِي كَانَتْ الْهُدْهُدُ يَتَابِعُ خَيْوَطَهَا، وَيَتَرَقَّبُ حُدُوثَهَا مِنْذُ زَمَنٍ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ عَيْنَ فَرْدِينَانَدٍ وَإِيزَابِيلَا لَمْ تَنْمَ، بَلْ هِيَ سَاهِرَةٌ تَتَرَقَّبُ اللَّحْظَةَ



الدُّنَابُ تَنْقُضُ

وَكَانَ الدُّنْبُ صَادِقًا فِي كَلَامِهِ، وَكَانَتِ الدُّنْبَةُ مَاهِرَةً فِي حِيلَتِهَا، فَقَدْ أَعَدَّتِ
الْخُطَّةَ، وَدَسَّتْ جَوَاسِيسَهَا، وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ حَتَّى تَشَاجَرَ مُسْلِمٌ مَعَ مَسِيحِيٍّ فِي
السُّوقِ، وَهُمَا يَتَسَاوَمَانِ عَلَى ثَمَنِ دَجَاجَةٍ يَبِيعُهَا الْمُسْلِمُ لِلْمَسِيحِيِّ، أَوِ الْمَسِيحِيُّ
لِلْمُسْلِمِ، فَسَبَّ الْمَسِيحِيُّ الْمُسْلِمَ، أَوْ سَبَّ الْمُسْلِمُ الْمَسِيحِيَّ، فَضْرَبَ الْمُسْلِمُ
الْمَسِيحِيَّ، أَوْ ضْرَبَ الْمَسِيحِيُّ الْمُسْلِمَ!! إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي لَا قِبَةَ
لَهَا فِي الظُّرُوفِ الْعَادِيَةِ، وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ، سُرْعَانَ مَا تَحَوَّلَتِ الْمُشَاجِرَةُ

التَّافِهَةِ، بَيْنَ شَخْصَيْنِ، إِلَى فِتْنَةٍ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ، رُفِعَتْ فِيهَا

السُّيُوفُ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ، وَتَضَخَّمَ الْأَمْرُ مِنْ جِدَالٍ عَلَى

ثَمَنِ دَجَاجَةٍ حَتَّى صَارَ صِرَاعًا بَيْنَ دِينَيْنِ سَمَاوِيِّينِ،

وَاشْتَعَلَتْ نَارُ الْفِتْنَةِ، وَعَمَّتِ الْفَوْضَى أَرْجَاءَ مَمْلَكَةٍ

غَرْنَاطَةَ!!

وَلَمْ يَكُذْ (بُو عَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرُ) يَنْهَضُ

مِنَ السَّرِيرِ، وَيَسْتَأْذِنُ أُمَّهُ فِي ازْتِدَاءِ

عِبَائَتِهِ وَسِرْوَالِهِ الْحَرِيرِ، حَتَّى كَانَتْ

قُوَّاتُ الدُّنْبِ الْمَسْعُورِ، تَقْتَحِمُ جَنَّةَ



اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ، فَتَقْتُلُ وَتَحْرِقُ وَتُدَمِّرُ، بِكُلِّ مَا تَمْلِكُ مِنْ هَمَجِيَّةٍ وَحِقْدٍ، وَحُبِّ
لِلْمَاءِ وَالْخَرَابِ!!

اسْتَبَسَلَ الْمُسْلِمُونَ، وَاسْتَمَاتُوا فِي الدِّفَاعِ عَنْ مَدِينَتِهِمْ، وَقَدَّمُوا أَرْوَاعَ الْأَمْثَلَةِ
فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفِدَاءِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْمُدُوا طَوِيلًا، فَقَدْ أَخَذَتْهُمْ الْمَفَاجَأَةُ، وَهُمْ
بِشُونَ قِيَادَةٍ أَوْ تَجْهِيْزٍ أَوْ اسْتِعْدَادٍ، بَلْ هُمْ فِي الْحَقِيْقَةِ كَانُوا يُوَاجِهُونَ الْحَدِيدَ
وَالنَّارَ بِلَحْمِهِمُ الْعَارِي. وَرَغَمَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلاِسْتِمْرَارِ فِي التَّضْحِيَّةِ
وَالْمُقَاوَمَةِ، وَلَكِنَّ حَاكِمَهُمُ الصَّغِيْرَ الْخَائِنَ التَّفَّ مِنْ خَلْفِ ظُهُورِهِمْ، وَمَضَى
تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ، يُجْرِي مَفَاوِضَاتِ سِرِّيَّةٍ مَعَ فِرْدِيْنَانْد!!

وَفِي الْمَفَاوِضَاتِ السَّرِّيَّةِ، عَرَضَ بُوعَبْدِ اللَّهِ عَلَى فِرْدِيْنَانْدِ التَّنَازُلَ عَنْ
مَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةَ، فِي مُقَابِلِ أَنْ يَتَّعَهْدَ الذُّبُّ فِرْدِيْنَانْدَ بِحِمَايَةِ الْمُسْلِمِيْنَ وَصِيَانَةَ
حُقُوْقِهِمْ!!!

عَهْدُ الذُّبِّ

وَبِالطَّبْعِ لَمْ يَكُنْ لَدَى الذُّبِّ أَيُّ مَانِعٍ مِنَ التَّعْهَدِ، بَلْ إِنَّهَا فُرْصَتُهُ الذَّهِيَّةُ، أَنْ
يُقْسِمَ، وَيَعِدَ بِحِمَايَةِ الْحَمَلِ، وَبِصِيَانَةِ حُقُوْقِهِ، وَيَتَّعَهْدَ بِكُلِّ مَا يُهْدِي مَخَاوِفَهُ،
حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنْهُ، وَيَلْتَهُمَهُ فِي هُدُوءٍ!!

وَهَكَذَا، فَتَحَ الرَّاعِي الْخَائِنُ (بُوعَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيْرُ) أَبْوَابَ غَرْنَاطَةَ لِلذُّبِّ الْجَائِعِ

فَرْدِينَانْد، الَّذِي جَلَسَ عَلَى عَرْشِ بَنِي الْأَحْمَرِ فِي قَصْرِ الْحَمْرَاءِ، مِثْلَ الطَّاوُوسِ
مَزْهُوًّا بِانْتِصَارِهِ، وَوَقَفَ أَمَامَهُ بُوعَبْدِاللَّهِ مَهْزُومًا دَلِيلًا، يَتَلَقَّى أَوْامِرَهُ بِأَنْ يُسَلِّمَ
إِلَيْهِ مَفَاتِيحَ الْمَدِينَةِ، وَيَرْحَلَ، وَأَنَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي غِرْنَاطَةَ، وَفِي الْأَنْدَلُسِ
كُلِّهَا، الْاِخْتِيَارَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؛ إِمَّا الْبَقَاءَ أَمَّا فِي غِرْنَاطَةَ بِشَرْطِ الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ لِمَلِكِهَا
الصَّلِيبِيِّ، وَإِمَّا الرَّحِيلَ عَنِ الْبِلَادِ خِلَالَ مَهَلَّةٍ مَدَّتْهَا شَهْرَانِ، يَبِيعُ فِيهَا مُمْتَلَكَاتِهِ!!
سَلَّمَ بُوعَبْدِاللَّهِ مَفَاتِيحَ الْمَدِينَةِ، وَأَذْعَنَ لِأَوْامِرِ فَرْدِينَانْد، وَخَضَعَ لَهُ صَاحِبًا.
وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، لَمْ يَضْبِرِ الذُّبُّ الْمُنْتَعِطُشُ لِلدَّمَاءِ حَتَّى يَمْضِيَ الشَّهْرَانِ، فَذَا
بِهِ يَنْقُضُ كُلَّ وُعُودِهِ وَتَعَهُّدَاتِهِ، وَيَأْمُرُ بِاجْبَارِ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ،



عَلَى تَرْكِ الْإِسْلَامِ، وَالذُّخُولِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ، وَإِلَّا تَعَرَّضَ لِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ،
وَأَبْشَعَ أَسَالِبِ الْقَتْلِ وَالتَّنْكِيلِ !!

أَخَانِي الْوَدَاعِ

فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَصِيبَةِ، لَمْ يَنْمِ الْهُدْهُدُ لِحِطَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي اللَّيْلِ أَوْ فِي النَّهَارِ،
فَقَدْ كَانَ لَا يَكْفُ عَنِ الطَّيْرَانِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ فِي غَرْنَاطَةِ، وَالتَّنْقُلِ بَيْنَ بُيُوتِهَا،
لِيَتَابَعَ أَحْزَانَ النَّاسِ وَهُمْ يُودِّعُونَ بُيُوتَهُمْ وَوَطَنَهُمْ وَحَيَاتَهُمْ، وَيَجْمَعُونَ مَلَابِسَهُمْ
وَطُبُورَهُمْ وَأَوَانِيَهُمْ، يَلْمَلِمُونَ أَحْلَامَهُمْ وَذِكْرِيَاتِهِمْ، وَيُمَعِنُونَ النَّظَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ،
وَأَتَانَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْفَظُوا صُورَتَهُ فِي قُلُوبِهِمْ. وَكَمْ تَمَنَّى بَعْضُهُمْ لَوْ يَسْتَطِيعُ حَمْلَ
بَيْتِهِ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَتَّى لَوْ اسْتَطَاعَ، فَكَيْفَ سَيَحْمِلُ بُيُوتَ الْجِيرَانِ وَالْأَحْبَابِ !!

أَمَّا عَائِشَةُ الْمُتَسَلِّطَةُ، فَأَخِرُ مَا سَمِعَهُ مِنْهَا الْهُدْهُدُ الْحَزِينُ، كَانَ أَيْضًا تَوْبِيخًا
وَأَنْبِيَا لَابْنِهَا، وَهِيَ خَارِجَةٌ مَعَهُ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ قَصْرِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ قَدْ التَّقَتَ، وَهُوَ يَتَّعِدُ عَنْ قَصْرِ آبَائِهِ، لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ نَظْرَةَ الْوَدَاعِ
الْأَخِيرَةِ. وَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ، فَبَكَى بِشِدَّةٍ، حَتَّى سَأَلَتْ دُمُوعُهُ مِنْ أَنْفِهِ، فَقَالَتْ لَهُ
بِقَسْوَةٍ وَجَفَاءٍ: أَنْتَ الْآنَ تَبْكِي مُلْكَكَ مِثْلَ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَحْفَظْهُ مِثْلَ الرَّجَالِ.
وَلِلْمَرَّةِ الْأُولَى يَرُدُّ عَلَيْهَا ابْنُهَا بِحِدَّةٍ، وَهُوَ يَبْكِي، وَيَقُولُ: بَلْ أَنْتِ مَنْ ضَيَّعَ هَذَا

الْمَلِكُ، وَضَيَّعَنِي، عِنْدَمَا جَعَلْتَنِي دُمِيَّةً تَافِهَةً فِي يَدِكَ. سَامَحَكِ اللهُ، سَامَحَكِ اللهُ.
 ذَهَلَتْ عَائِشَةُ، وَأَنْعَقَدَ لِسَانُهَا، وَكَانَتْهَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، اِكْتَشَفَتِ الْحَقِيقَةَ، كَمَا
 اِكْتَشَفَهَا الابْنُ الْبَاكِي، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ ضَاعَ كُلُّ شَيْءٍ.

سَقَطَتْ آخِرُ الْمُدْنِ، وَأَجْمَلُ الْمُدْنِ، وَبِسْقُوطِهَا تَكُونُ الْأَنْدَلُسُ كُلُّهَا قَدْ
 ضَاعَتْ، بَعْدَ ثَمَانِ مِئَةِ سَنَةٍ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالْفِكْرِ وَالْجَمَالِ وَالْإِبْدَاعِ، عَاشَ فِيهَا
 كُلُّ النَّاسِ، مِنْ أَتْبَاعِ كُلِّ الدِّيَانَاتِ، أَزْهَى عُصُورِ الْأُخُوَّةِ وَالسَّمَاوِحِ وَالْمَحَبَّةِ
 وَالسَّلَامِ، عَلِمَتْ خِلَالَهَا الْعَالَمُ كُلَّهُ كَيْفَ يَبْنِي، وَكَيْفَ يُفَكِّرُ، وَكَيْفَ يُبَدِّعُ، وَمِنْهَا
 انْطَلَقَتْ أَوْرُبَا فِي بِنَاءِ نَهْضَتِهَا وَحَضَارَتِهَا الْحَدِيثَةِ.



فَتَنَّهُدَّ، وَقَالَ بِحُزْنٍ: هُنَاكَ كَثِيرُونَ رَفَضُوا الرَّحِيلَ، وَتَشَبَّهُوا بِالْبَقَاءِ فِي وَطَنِهِمْ،
 وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ كَانَ نَصِيْبُهُمْ أَسْوَأَ، فَقَدْ ذَاقُوا أَلْوَانًا مِنَ الْمَوْتِ وَالْعَذَابِ، تَفَنَّنَ الذَّنَابُ
 فِي بَشَاعَتِهَا، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ الْحَزِينَ لَمْ يَكُنْ يَحْتَمِلُ مُجَرَّدَ وَصْفِهَا، وَكَانَ كُلَّمَا
 تَذَكَّرَهَا أَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، وَأَنْهَمَرَتْ دُمُوعُهُ، وَارْتَجَّ جَسَدُهُ، وَهُوَ يُرَدِّدُ: لَا حَوْلَ وَلَا
 قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَشَرًا وَاللَّهِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَشَرًا، وَإِلَّا فَكَيْفَ
 تَحَمَّلْتُ قُلُوبُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ بِبَشِيرٍ مِثْلِهِمْ، فَحَتَّى الْحَيَوَانَاتُ الْمُفْتَرِسَةُ، تَتَوَقَّفُ
 عَنِ عَمَلِ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَشْبَعُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَسْبَعُونَ!!

السَّقْطَةُ

عِنْدِيذِ، لَمْ أَتَمَّاكْ نَفْسِي مِنَ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ، وَلَمْ يَتَمَّاكِ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ
 فَأَخَذَ يَبْكِي بِشِدَّةٍ، وَجِسْمُهُ يَنْتَفِضُ، وَيَزْتَجُّ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ تَرْتَجُّ، وَسَقَطَ مِنْ فَوْقِ
 غُصْنِ شَجَرَةِ التُّوتِ، مُرْتَطِمًا بِالْأَرْضِ!!
 انْحَنَيْتُ عَلَيْهِ مَفْرُوعًا، وَحَمَلْتُهُ عَلَى صَدْرِي. وَأَخَذَ هُوَ يُطْمِئِنِّي، وَيَقُولُ
 بِصَوْتِهِ الْعَطُوفِ: لَا تَخَفْ يَا وَلَدِي، لَا تَخَفْ، أَنَا بِخَيْرٍ، أَنَا بِخَيْرٍ.
 قُلْتُ لَهُ بِخَوْفٍ وَلَهْفَةٍ: هَلْ أَصَابَكَ مَكْرُوهٌ؟ هَلْ تَشْعُرُ بِالْأَلَمِ؟
 ابْتَسَمَ الْهُدْهُدُ ابْتِسَامَةً خَفِيفَةً مِنْ وَرَاءِ الدُّمُوعِ، وَقَالَ: لَا، لَا شَيْءَ، وَلَكِنْ يَبْدُو
 أَنَّ حِكَايَةَ جَدِّي عَنْ سُقُوطِ الْأَنْدَلُسِ أَصَابَتْني بِالْوَهْنِ وَالْحُزْنِ، وَأَسَقَطَتْني!!

قُلْتُ لَهُ: وَأَنَا أَيْضًا أَصَابْتَنِي بِالْحُزْنِ وَالْيَأْسِ.

فَتَبَدَّلَ الْهُدْهُدُ فَجَاءَهُ، وَرَفَعَ جَنَاحَهُ السَّلِيمَ فِي وَجْهِ مُحْتَجِّجًا، وَقَالَ بِلَهْجَةٍ

خَادَّةٍ، أَرَبَكْتَنِي:

(لَا، لَا تَقُلِ الْيَأْسَ، هُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ لَا بُدَّ أَنْ تَعْرِفَهُ جَيِّدًا، فَالْحُزْنُ صِفَةٌ نَبِيلَةٌ،

تَجِدُهَا فِي كُلِّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ يَشْعُرُ وَيُحِبُّ وَيَعْطِفُ، وَلَا يَرْضَى بِالظُّلْمِ، أَمَّا الْيَأْسُ،

وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ، فَهُوَ صِفَةٌ مَذْمُومَةٌ،

لَا تَكُونُ إِلَّا فِي قَلْبِ أَعْمَى،

لَا يَعْرِفُ رَبَّهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَلَا

يَعْرِفُ تَارِيخَ أَجْدَادِهِ، وَأَنْتَ

إِنْسَانٌ طَاهِرٌ نَقِيٌّ، وَتَارِيخُ

أَجْدَادِكَ يَا وَلَدِي فِيهِ سُقُوطٌ

وَهَزَائِمٌ، وَفِيهِ أَيْضًا أَمْجَادٌ

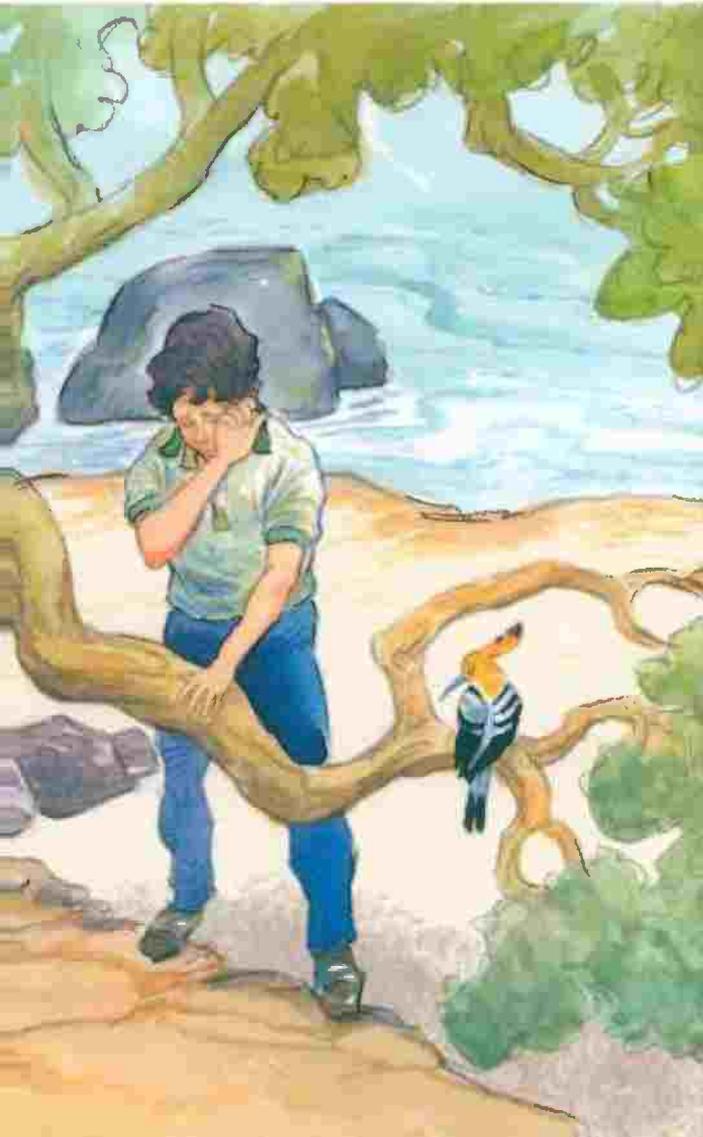
وَإِنْتِصَارَاتٌ تُفْرِحُ الْقَلْبَ الْحَزِينَ.

أَخَذْتَنِي الرَّهْبَةَ مِنْ كَلَامِ

الْهُدْهُدِ، وَعَاوَدْتَنِي مَوْجَةَ

الْبُكَاءِ، فَقُلْتُ لَهُ: وَلَكِنِّي حَزِينٌ

وَخَائِفٌ!!



أَسْفَقَ عَلَيَّ الْهُدُودُ، وَقَالَ بِصَوْتِ عَطُوفٍ: سَامِحْنِي يَا وَلَدِي، يَبْدُو أَنِّي
 أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ، وَحَمَلْتُ طُفُولَتَكَ فَوْقَ مَا تَحْتَمِلُ أُعْذِرْنِي يَا وَلَدِي، فَلَا مَانَةَ ثَقِيلَةً
 عَلَيَّ، وَقَدْ شَاءَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي يَرِيئُهَا، وَيَحْمِلُهَا عَنِّي، وَأَنَا
 أَحْكِي لَكَ كُلَّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْوَقْتَ ضَيِّقٌ، وَعُمْرِي قَصِيرٌ قَصِيرٌ. وَلِذَا فَأَنَا أَخْتَصِرُ،
 وَأَتْرِكُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَأَخْتَارُ لَكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ دُرُوسًا مُهِمَّةً، أُرِيدُكَ أَنْ
 تَتَعَلَّمَهَا، وَيَتَعَلَّمَهَا مِنْكَ كُلُّ النَّاسِ. وَلِلْأَسَفِ، هَذِهِ الْحِكَايَاتُ الْمُهْمَّةُ فِيهَا أَحْزَانٌ
 ثَقِيلَةٌ؛ لِأَنَّهَا مِثْلُ الدَّوَاءِ الْمُرِّ، وَلَكِنِّي أَعِدُّكَ أَنْ أَحْكِي لَكَ غَدًا مَا يُفْرِحُ قَلْبَكَ.

نَظَرْتُ إِلَى الشَّمْسِ، فَوَجَدْتُهَا لَأَزَالَتْ عَالِيَةً فِي السَّمَاءِ. وَفِهِمُ الْهُدُودُ مَا أُفَكَّرُ
 فِيهِ، فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً ضَعِيفَةً شَاحِبَةً، وَقَالَ لِي: مَعَكَ حَقٌّ، الشَّمْسُ لَأَزَالَتْ تُضِي عَا
 وَلَكِنِّي لَمْ تُعْذِرْ بِي طَاقَةَ عَلَيَّ الْكَلَامِ. خُذْنِي إِلَى الْبَيْتِ، وَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يَمُدَّ فِي
 عُمْرِي حَتَّى أَحْكِي لَكَ حِكَايَةَ جَدِّي (الْهُدُودِ الْمُتَفَانِلِ) الَّذِي مَاتَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ!!

العصفورة والهدد

كُنْتُ لَا أَزَالُ أَشْعُرُ بِالْقَلْقِ عَلَى الْهُدُودِ، بَعْدَ هَذِهِ السَّقْطَةِ، وَأَنَا أَحْمِلُهُ عَلَى
 صَدْرِي، وَأَشْعُرُ بِضَعْفِهِ، وَبِاضْطِرَابِ تَنْفُسِهِ. وَفِي الْمَسَافَةِ الْقَصِيرَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ
 إِلَى الْبَيْتِ، كَانَ الْهُدُودُ عَلَى صَدْرِي صَامِتًا، بَيْنَمَا الْعُصْفُورَةُ تَتَقَافَرُ حَوْلَنَا،
 وَتُرْفِزُ بِعَصَبِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَادِ، وَبِلَا تَوْقُفٍ، حَتَّى دَخَلْنَا الْبَيْتَ، وَهِيَ عَلَى

كَفَيْي، تُوجِّهُ زَفْرَقَتَهَا لِلْهُدْهُدِ، حَتَّى وَضَعْتُهُ دَاخِلَ الْقَفْصِ، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِ الْبَابَ،
فَحَطَّتْ أَمَامَهُ، وَأَدْخَلَتْ رَأْسَهَا مِنْ بَيْنِ أَعْوَادِ الْقَفْصِ، وَأَكْمَلَتْ زَفْرَقَتَهَا الْعَصِيَّةَ،
وَهُوَ يَهْزُ لَهَا رَأْسَهُ، وَيَقُولُ: مَعَكَ حَقٌّ، مَعَكَ حَقٌّ، سَأَفْعَلُ، سَأَفْعَلُ. ثُمَّ طَارَتْ مِنَ
السُّبَّابِ، عَائِدَةً إِلَى الشَّجَرَةِ.



نَظَرْتُ إِلَى الْهُدُودِ مُنْدهِشًا، وَسَأَلْتُهُ: مَاذَا كَانَتْ تَقُولُ لَكَ؟!
قَالَ الْهُدُودُ: كَانَتْ تَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أُنبِّهَكَ إِلَى شَيْئَيْنِ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ
وَالْخَطُورَةِ.

سَأَلْتُهُ مُنْدهِشًا: مَا هُمَا؟

قَالَ الْهُدُودُ: أَوَّلًا، تُرِيدُكَ أَنْ تَأْخُذَ حِذْرَكَ مِنَ الْعِرْسَةِ، فَقَدْ سَمِعْتَهَا وَهِيَ
تَتَأَمَّرُ عَلَيَّ، لِكَيْ تَقْتُلَنِي!!

قُلْتُ لِلْهُدُودِ: نَعَمْ، تَذَكَّرْتُ الْآنَ تَحْذِيرَ أُمِّي، وَلِذَلِكَ أَعْطَيْتِي هَذَا الْقَفْصَ
لِكَيْ تَنَامَ فِيهِ، وَبِالْفِعْلِ أَنَا أَرَى الْعِرْسَةَ كَثِيرًا هَذِهِ الْأَيَّامَ، وَهِيَ تُرَاقِبُنَا مِنْ بَعِيدٍ،
وَلَكِنْ لِمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَكَ؟!

تَنَهَّدَ الْهُدُودُ، وَقَالَ: هِيَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي حَتَّى لَا أَحْكِي لَكَ الْأَسْرَارَ!!

قُلْتُ مُنْدهِشًا: وَلِمَاذَا لَا تُرِيدُكَ أَنْ تَحْكِي لِي الْأَسْرَارَ؟

فَقَالَ: هَذِهِ حِكَايَةٌ أُخْرَى، سَأَحْكِيهَا لَكَ إِذَا كَانَ فِي الْوَقْتِ مُتَّسِعًا، وَلَكِنْ خُذْ

حِذْرَكَ يَا وَلَدِي، وَلَا تَغْفُلْ عَنِّي حَتَّى فِي النَّهَارِ، وَنَحْنُ عَلَى غُضَنِ الشَّجَرَةِ!!

شَعَرْتُ بِالْخَوْفِ، فَسَأَلْتُهُ: وَمَا الشَّيْءُ الثَّانِي؟!

قَالَ: الشَّيْءُ الثَّانِي هُوَ الْأَهْمُ، وَهُوَ أَنَّكَ لَا بُدَّ أَنْ تَبْدَأَ، مِنَ الْآنَ، فِي تَدْوِينِ

الْحِكَايَاتِ الَّتِي حَكَيْتَهَا لَكَ، وَكِتَابَتِهَا عَلَى الْوَرَقِ، حَتَّى لَا تَنْسَى مِنْهَا شَيْئًا، فَقَدْ كَثُرَتْ

الْحِكَايَاتُ وَتَشَعَّبَتْ، وَلَا زَالَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ. وَذَاكِرْتُكَ لَنْ تَحْمِلَ كُلَّ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ.

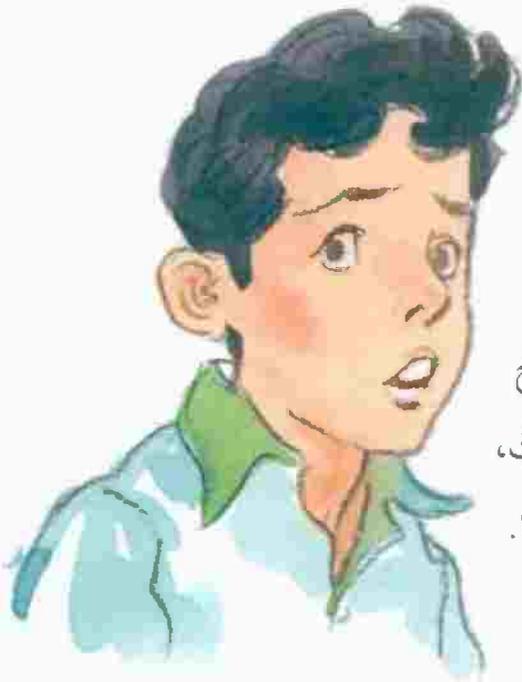
كَانَ الْهُدْهُدُ يَقُولُ ذَلِكَ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى قِمَّةِ التَّعَبِ، حَتَّى أَنْ صَوْتَهُ كَانَ
ضَعِيفًا خَافِتًا، أَكَادُ لَا أَسْمَعُهُ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ شَعَرْتُ بِحَرَكَةٍ فِي الْخَارِجِ، خَلْفَ
أَسْبَاكِ، فَسَرْتُ قَشْعِرِيرَةً فِي بَدَنِي، وَقُمْتُ بِسُرْعَةٍ لَأَرَى، فَوَجَدْتُ الْعُرْسَةَ تَجْرِي
مُبْتَعِدَةً!!

أَغْلَقْتُ الْأَسْبَاكِ بِإِحْكَامٍ، وَعُدْتُ إِلَى الْهُدْهُدِ لِأَكْمِلَ كَلَامِي مَعَهُ، وَلَكِنِّي
وَجَدْتُهُ قَدْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَنَامَ، رَغِمَ أَنْ الشَّمْسَ لَا زَالَتْ فِي السَّمَاءِ!!

لُغَةٌ لَا يَفْهَمُهَا الْكِبَارُ

ظَلَلْتُ وَقْتًا طَوِيلًا وَإِقْفًا أَمَامَ الْقَفْصِ، أَنْظَرُ إِلَى الْهُدْهُدِ وَهُوَ نَائِمٌ بِهُدُوءٍ، بَيْنَمَا
أَنَا قَلِقٌ، أَفَكَّرُ فِي كَلَامِهِ: يَا تُرَى لِمَاذَا تُرِيدُ الْعُرْسَةَ أَنْ تَقْتُلَهُ؟!!
وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، اقْتَرَبَتْ أُمِّي، وَوَقَفَتْ
بِأَبِ الْعُرْفَةِ، وَقَالَتْ مُبْتَسِمَةً: عُدْتُ مُبَكَّرًا
الْيَوْمَ، أَنْتَ وَصَدِيقُكَ، كَيْفَ حَالُهُ الْآنَ؟ أَلَمْ
يَتَحَسَّنْ جَنَاحُهُ؟

وَقَبْلَ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْهَا، فُوجِئْتُ بِالْهُدْهُدِ يَفْتَحُ
عَيْنَيْهِ، وَيَقُولُ لِي: قُلْ لِمَاذَا لَدَيْكَ إِنِّي تَحَسَّنْتُ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَبَلَّغَهَا سُكْرِي عَلَى كَرَمِهَا وَعَظْفِهَا.



اقْتَرَبْتُ مِنَ الْهُدُودِ، وَقُلْتُ لَهُ هَامِسًا: مَا دُمْتَ صَاحِبًا، كَلَّمَهَا أَنْتَ، فَسَوْفَ
تَسْعُدُ بِذَلِكَ.

فَاتَّبَعْتَنِي، وَرَدَّ هَامِسًا: لَنْ تَسْمَعَنِي، وَلَنْ تَفْهَمَ كَلَامِي.

- لِمَاذَا؟!

- أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَحِيدُ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِي يَسْمَعُنِي وَيَفْهَمُنِي!!

- وَلَكِنَّهَا أُمِّي. أَطِيبُ أُمَّ فِي الدُّنْيَا.

- هَذِهِ مَشِيئَةُ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ يَا وَلَدِي، حَتَّى لَا تَكُونَ الْأَسْرَارُ مَكْشُوفَةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا.

- لِمَاذَا؟!

- حَتَّى يُحَاسِبَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى عَمَلِهِ وَاخْتِيَارِهِ.

- وَلِمَاذَا لَا يَفْهَمُكَ كُلُّ النَّاسِ؟!

- لَوْ كَانَ النَّاسُ يَفْهَمُونَ لُغَتِي، وَيَطَّلِعُونَ عَلَى الْأَسْرَارِ، مَا كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ

الْعَزِيزِ مَاتَ مَسْمُومًا، وَلَا مَاتَ طَارِقٌ مَظْلُومًا مَقْهُورًا، وَلَا سَقَطَتِ الْأَنْدُلُسُ،

وَلَا وَقَعَتْ كُلُّ هَذِهِ الْمُؤَامَرَاتِ، وَلَا حَدَّثَتْ كَوَارِثُ كَثِيرَةٍ فِي التَّارِيخِ!! سَتَتَكَلَّمُ

فِي هَذَا فِيمَا بَعْدُ. لَكِنْ، أَبْلِغِ وَالِدَتَكَ، أَرْجُوكَ.

- سَأَبْلِغُهَا، وَلَكِنْ مَاذَا لَوْ.

وَقَبِلَ أَنْ أَكْمَلَ سُؤَالَي، قَاطَعَنِي أُمِّي، وَقَالَتْ: سَلَامَتُكَ يَا بَنِي، هَلْ تُكَلِّمُ نَفْسَكَ؟!

قُلْتُ: لَا يَا أُمِّي، أَنَا أَكَلَّمُ الْهُدُودَ، إِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَى عَطْفِكَ وَكَرَمِكَ.

إِنْتَسَمَتْ أُمِّي وَقَالَتْ: قُلْ لِصَاحِبِكَ: لَا شُكْرَ عَلَيَّ وَاجِبٍ، فَهُوَ عَزِيزٌ عَلَيْنَا

جَمِيعًا، وَهَذَا أَقَلُّ مَا يَجِبُ أَنْ نُقَدِّمَهُ لِلطَّائِرِ الْحَكِيمِ، جُنْدِي سَيِّدِنَا سَلِيمَانَ،
وَصَاحِبِ الْأَسْرَارِ الْعَظِيمَةِ.

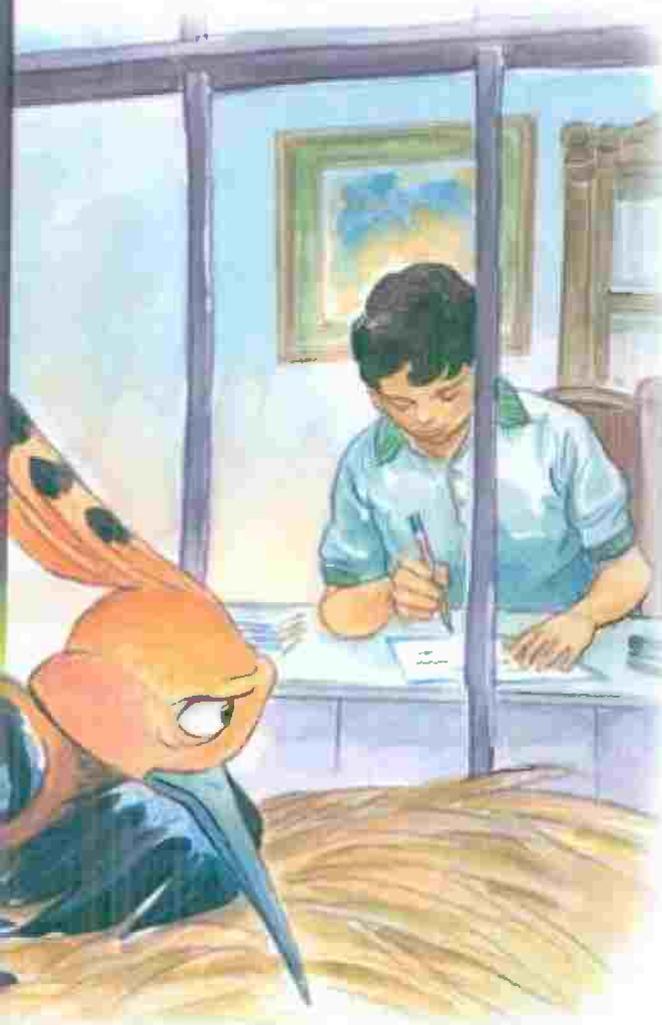
ذَهَلْتُ مِنْ كَلَامِ أُمِّي، وَسَأَلْتُهَا: كَيْفَ عَرَفْتَ كُلَّ ذَلِكَ؟!
إِبْتَسَمَتْ أُمِّي، وَهِيَ تَهْمُّ بِالْإِنْصِرَافِ، وَتَقُولُ: هَلْ تَنْظُرُ أَنَّكَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَعْرِفُ؟!
تَسْمَرْتُ فِي مَكَانِي، وَقَدْ أَخَذَتْنِي الدَّهْشَةُ وَالْمُفَاجَأَةُ؛ فَكَيْفَ عَرَفَتْ أُمِّي
كُلَّ هَذَا عَنِ الْهُدُودِ؟ كَيْفَ عَرَفَتْ؟! هَلْ كَلَّمَهَا وَحَكَى لَهَا؟! هَلْ كَانَ يَضْحَكُ
عَلَيَّ عِنْدَمَا قَالَ لِي: إِنِّي الْوَحِيدُ الَّذِي يُكَلِّمُهُ وَيَفْهَمُ كَلَامَهُ؟! هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ
الْهُدُودُ كَذَابًا وَمُخَادِعًا؟!



التفت إلى الهدهد غاضبا، لكي أسأله، لكنني وجدته يغط في نوم عميق!!
فكرت أن أدخل يدي من بين أغواد القفص لألكزه بإصبعي في صدره،
وأوقظه، ولكنني وجدته ضعيفا هزيبا منكمسا على نفسه، فتراجعت، وتحول
غضبي منه إلى إشفاق عليه!!

التفت بقلق إلى الشباك فوجدته مغلقا، وخلفه في البعيد شجرة التوت منحنية
بأغصانها على النيل، وخلفها في البعيد البعيد، كانت شمس الغروب قرصا أحمر،
يتخفى وراء الأشجار البعيدة.

اتجهت إلى باب غرفتي
فأغلقتة بإحكام، وجلست على
مكتبي بغض الوقت حتى هدأت،
ثم أخرجت قلبي، ودفترتي،
وكتبت في وسط السطر: «بسم
الله الرحمن الرحيم» ثم كتبت
تحتها بخط كبير: (أسرار
الهدهد)، وانطلقت أكتب،
محاوِلا تسجيل كل ما حدث
بينني وبين الهدهد، وكل ما حكاه
لي عن أجداده بكل تفصيله.

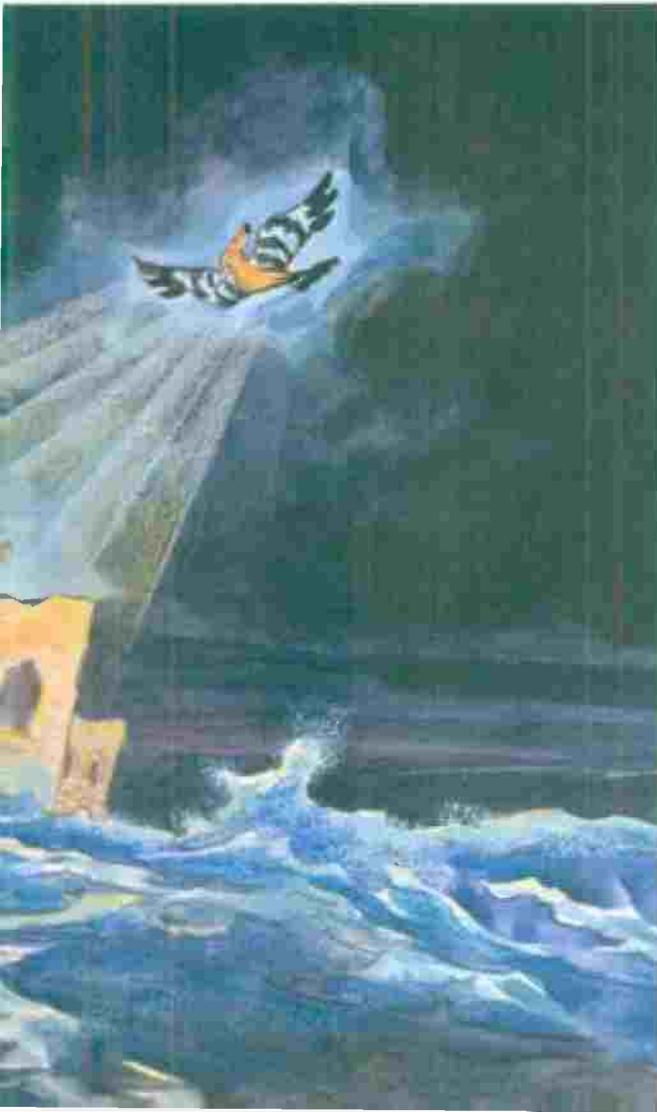


حُلْمُ الطُّوفَانِ

وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، لَمْ أَعْرِفْ مَتَى نِمْتُ، وَلَا كَيْفَ نِمْتُ، وَلَكِنِّي نِمْتُ، وَحَلُمْتُ.
وَفِي الْحُلْمِ، رَأَيْتُ نَفْسِي وَاقِفًا عَلَى سَطْحِ بَيْتِنَا، أَنَا وَأُمِّي وَأَبِي، وَجَدِّي
وَجَدَّتِي، وَإِخْوَتِي جَمِيعًا. كُنَّا خَائِفِينَ مَرْعُوبِينَ، نَنْظُرُ إِلَى النَّيْلِ وَقَدْ زَادَ مَاؤُهُ
وَرْتَفَعَ، وَفَاضَ عَنِ شَاطِئَتَيْهِ، وَغَطَّى الْأَرْضَ، وَعَلَا فَوْقَهَا، وَلَا زَالَ يَرْتَفِعُ، وَيُغَطِّي
الْأَشْجَارَ، حَتَّى لَمْ يَعُدَّ ظَاهِرًا مِنْهَا إِلَّا أَغْصَانٌ قَلِيلَةٌ، تَتَزَاخَمُ عَلَيْهَا عَصَافِيرُ كَثِيرَةٌ.
وَاقْتَرَبَ الْمَاءُ مِنْ سَطْحِ الْبَيْتِ. وَفَجْأَةً، ارْتَجَّ بَيْتُنَا ذُو الْجُدْرَانِ الْحَجْرِيَّةِ
الصَّخْمَةِ، مُحْدِنًا صَرِيرًا وَضَجِيجًا، وَتَكَسَّرَا شَدِيدًا، ثُمَّ انْخَلَعَ مِنْ جُذُورِهِ، وَأَخَذَ
يُصْفُو عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَيَنْجِرِفُ سَرِيعًا مَعَ النَّيَّارِ الْهَادِرِ!!

كَانَ الْمَنْظَرُ مَهِيبًا رَهيبًا، فَالذُّنْيَا كُلُّهَا بَحْرٌ مُتَلَاطِمٌ، بِلا شَوَاطِئَ أَوْ حُدُودٍ، فَوْقَهُ
سَمَاءٌ بِلا شَمْسٍ، تَجْرِي غُيُومُهَا السُّودَاءُ فَوْقَنَا سَرِيعَةً مُتَلَاحِقَةً، لَا نَكَادُ نَرَاهَا.
وَفَجْأَةً، يَلْمَعُ الْبُرُوقُ، وَيُولَدُ مِنْهُ طَائِرٌ أَبْيَضٌ يُلُوحُ فِي الْبُعِيدِ، وَلَا يَزَالُ الطَّائِرُ
يَقْتَرِبُ وَيَقْتَرِبُ، وَالْعَاصِفَةُ تَهْدَأُ وَتَهْدَأُ، حَتَّى ظَهَرَ الطَّائِرُ وَاضِحًا، فَإِذَا هُوَ الْهُدْهُدُ
بِعِبَاءَةِ جَدِّي الْبَيْضَاءِ الْهَفْهَفَةِ، وَفِي مَنْقَارِهِ حَبْلٌ طَوِيلٌ، يَرِبُطُ أَحَدَ طَرْفَيْهِ فِي حَدِيدِ
سُبَّاكِي، وَيَسْحَبُ الْبَيْتَ مِنْ طَرَفِهِ الْآخَرِ، فَيَسَابُ الْبَيْتُ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ هَادِنًا
مِثْلَ مَرْكَبٍ كَبِيرٍ بِلا أُسْرِعَةٍ، وَلَا يَزَالُ الْمَاءُ يَهْبِطُ وَيَهْبِطُ، حَتَّى رَسَا الْبَيْتُ عَلَى

الأرضِ، فَإِذَا بِنَا فِي الصَّحْرَاءِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَإِذَا بَجَدِّي وَأَقِفُ يُصَلِّي بِنَا
 إِمَامًا، يَتَلَوُ بِصَوْتِهِ الْخَاشِعِ الْجَمِيلِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَنَحْنُ وَاقِفُونَ خَلْفَهُ حُفَاءً عَلَى
 الرَّمَالِ، فِي الْمَكَانِ نَفْسِهِ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيهِ طَارِقُ بْنُ زَيْادٍ، وَهُوَ يَحْلُمُ بِالْأَنْدَلُسِ!
 وَصَحَّوتُ مِنَ الْحُلْمِ، وَأَنَا أُرَدِّدُ مِثْلَ جَدِّي، وَهُوَ يَتَمَتُّ بِعَدَاةِ الصَّلَاةِ: يَا عَلِيُّ،
 يَا عَظِيمُ، جَلَّ الْبَاقِي، سُبْحَانَكَ، سُبْحَانَ اللَّهِ.



كَانَتِ الْغُرْفَةُ لَا تَزَالُ غَارِقَةً
 فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَلَكِنِّي لَمْ أَعَاوِدِ
 النَّوْمَ، وَقَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْعُصْفُورَةُ
 لِتَنْقِرَ زُجَاجَ شُبَّانِي، كُنْتُ قَدْ
 فَتَحْتُ الشُّبَّانَ، وَوَقَفْتُ أَنْظُرُ
 إِلَى الْأَفْقِ الْبَعِيدِ، إِلَى النَّيْلِ، إِلَى
 شَجَرَةِ التُّوتِ، وَالضُّبَابِ يُلْفُ
 كُلَّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِي.

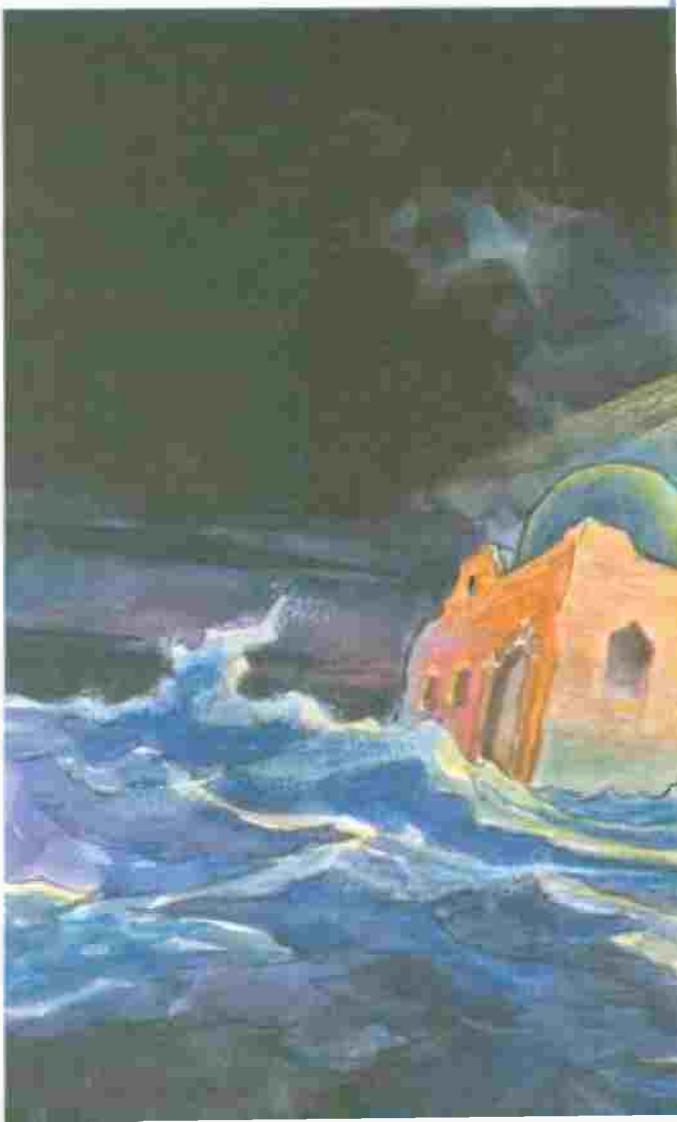
شَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِي أَنْ
 أَخْرُجَ وَحَدِي، وَأَجْلِسَ عَلَى
 غُصْنِ شَجَرَةِ التُّوتِ، وَأَذِلِّي

بِرِّجْلِي فِي تَبَارِ الْمَاءِ الْجَارِي، كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ دَائِمًا، دُونَ أَنْ يَكُونَ الْهُدْهُدُ مَعِي.
وَمَا كَدْتُ أَبْتَعِدُ عَنِ الشُّبَّانِكِ حَتَّى انْطَلَقَتِ الْعُصْفُورَةُ مِنْ عُشِّهَا، وَأَقْبَلَتْ نَحْوِي
بِرَّقَرَّتْهَا الْعَصِيَّةَ، فَالْتَقَيْتُ إِلَى الْهُدْهُدِ فَيَا ذَا بِهِ يَبْتَسِمُ، وَيَقُولُ لِي بِصَوْتِ حُنُونٍ:
أَتُرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى النَّيْلِ وَحَدِّكَ يَا أَحْمَدَ الْأَمِينُ؟!

شَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ وَهُوَ يُنَادِينِي بِهَذَا الْأَسْمِ، وَلَكِنْ أَخَذْتَنِي الدَّهْشَةُ الشَّدِيدَةُ
مِنْ مَعْرِفَتِهِ مَا يَدُورُ بِخَاطِرِي،
وَسَأَلْتُهُ: كَيْفَ عَرَفْتَ؟

فَابْتَسَمَ، وَقَالَ: أَنَا أَعْرِفُ
عَنْكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُ أَنْتَ عَنْ
نَفْسِكَ. هَيَّا يَا وَلَدِي، هَيَّا،
فَالْوَقْتُ أَمَامَنَا قَصِيرٌ، وَالْأَيَّامُ
قَلِيلَةٌ، هَيَّا.

قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ يَعْتَدِلُ مُتَاهَبًا،
فَفَتَحْتُ الْقَفْصَ، وَمَدَدْتُ يَدِي
لَأَحْمِلَهُ عَلَى صَدْرِي، وَأَنْطَلِقُ
بِهِ إِلَى مَكَانِنَا الْمَعْهُودِ.



رَائِحَةُ الْأَحْبَابِ

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الشَّجَرَةِ، فَاجَانِي الْهُدُودُ، وَسَأَلَنِي سُؤَالَ غَرِيبًا: هَلْ أُشْرَقَتْ
الشَّمْسُ يَا وَلَدِي؟!

أَجَبْتُهُ مُنْدهِشًا: نَعَمْ أُشْرَقَتْ، أَلَا تَرَاهَا!!
فَتَلَعْتُمْ قَلِيلًا، وَقَالَ: الْحَقِيقَةُ.. أَشْعُرُ أَنَّ نَظْرِي قَدْ ضَعُفَ
كَثِيرًا، وَلَمْ أَعُدْ أَرَى جَيِّدًا كَمَا كُنْتُ أَرَى!!

وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا إِلَى الشَّاطِئِ، وَأَنْزَلْتُهُ عَلَى الْأَرْضِ، فَاجَانِي بِمَا هُوَ أَغْرَبُ،
فَقَدْ وَقَفَ مُتَّصِبًا رَافِعًا رَأْسَهُ، وَأَخَذَ يَدُورَ حَوْلَ نَفْسِهِ، وَيَسْتَمُّ الْهَوَاءَ بِعُمُقٍ، ثُمَّ
قَالَ بِذُهُولٍ: إِنِّي أَشُمُّ رَائِحَةَ وَلَدِي!!

تَعَجَّبْتُ، وَقُلْتُ: وَلَدُكَ؟! أَلَمْ تَقُلْ لِي إِنَّهُ مَاتَ تَحْتَ
أَنْقَاضِ الْبَيْتِ الَّذِي هَدَمَهُ الصَّهَابُ عَلَى سُكَّانِهِ؟!
فَاجَابَنِي بِذُهُولٍ غَرِيبٍ: وَلَكِنِّي أَشُمُّ رَائِحَةَ
وَلَدِي!!

وَرَغِمَ تَعَاطُفِي مَعَهُ، وَإِسْفَاقِي عَلَيْهِ، فَقَدْ كُنْتُ أَشْعُرُ
أَنَّهُ يَتَمَكَّرُ عَلَيَّ، وَيُرِيدُ أَنْ يَشْغَلَنِي بِشَيْءٍ آخَرَ حَتَّى لَا أَسْأَلَهُ
عَمَّا حَدَّثَ بِالْأَمْسِ، وَكَيْفَ عَرَفَتْ أُمِّي هَذِهِ الْأَسْرَارَ:
وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ أَتَجَاهَلَ كُلَّ كَلَامِهِ هَذَا، وَأَنْ أَسْأَلَهُ.

وَيَبْدُو أَنَّهُ، كَعَادَتِهِ، قَدْ فَهِمَ مَا يَجُولُ بِخَاطِرِي، فَلَمْ يَتْرُكْ لِي الْفُرْصَةَ، وَمَا
إِنْ بَدَأْتُ فِي تَقْلِيْبِ التُّرْبَةِ أَمَامَهُ بِغُضَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسِ، حَتَّى بَدَأَ يَتَكَلَّمُ، وَدُونَ
مُقَدِّمَاتٍ، أَخَذَ يَقْصُّ عَلَيَّ حِكَايَةَ جَدِّهِ، وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ !!



الهُدُودُ الْمُتَفَائِلُ

بَدَأَ الْهُدُودُ يَحْكِي، وَهُوَ يَأْكُلُ، وَيَقُولُ:

الْغَرِيبُ فِي شَخْصِيَّةِ الْهُدُودِ الْمُتَفَائِلِ هَذَا، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا، وَلَا مُتَفَائِلًا، فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ حُزْنًا وَتَعَاسَةً مِنَ الْهُدُودِ الْحَزِينِ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ، وَلَا بِبَالِ غَيْرِهِ، أَنَّ قِصَّتَهُ الَّتِي بَدَأَتْ حَزِينَةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ، سَتَنْتَهِي نَهَايَةً سَعِيدَةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ!!

نَشَأَ هَذَا الْهُدُودُ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ، فِي عَشْرِ بَنَاءٍ لَهُ أَبُوهُ فَوْقَ قِمَّةِ مِئْذَنَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، فَكَانَ مِنْ مَوْقِعِهِ هَذَا، يَرَى عَنِ يَمِينِهِ قِبَةَ الصَّخْرَةِ، وَيَرَى عَنِ شِمَالِهِ أَرْوَقَةَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَسَاحَاتِهِ، وَعِنْدَمَا يَمُدُّ بَصَرَهُ إِلَى الْأَفْقِ الْمَفْتُوحِ أَمَامَهُ، فَإِنَّهُ يَرَى مَدِينَةَ الْقُدْسِ كُلَّهَا، بِشَوَارِعِهَا الْمُتَعَرِّجَةِ

صُعُودًا وَهُبُوطًا، وَبُيُوتِهَا الْحَجَرِيَّةِ الْبَيْضَاءِ، ذَاتِ الْحَدَائِقِ وَالْأَسْوَارِ. بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ، بِبَصَرِهِ الْحَادِّ، رُؤْيَةَ الصَّغَارِ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الشَّوَارِعِ وَالْحَدَائِقِ، وَفَوْقَ أَسْطُحِ الْبُيُوتِ الْبَعِيدَةِ.

مَوَاكِبُ السَّلَامِ

وَكَانَ يَحْلُو لِهَذَا الصَّغِيرِ أَنْ يُرَاقِبَ، مِنْ مَوْعِيهِ هَذَا، حَرَكََةَ النَّاسِ فِي
 الْمَدِينَةِ، وَخَاصَّةً فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ، عِنْدَمَا يَصْعَدُ الْمُؤَذِّنُ إِلَى أَعْلَى الْمِنْدَنَةِ،
 فَبُكُونُ وَاقِفًا تَحْتَ الْعُشِّ مُبَاشِرَةً، يَرَاهُ الْهُدُودَ وَهُوَ يُتَمِّتُ بِالِدُعَاءِ، قَبْلَ أَنْ يَصْدَحَ
 بِالْأَذَانِ، فَتَسْتَيْقِظُ كُلُّ حَوَاسِيهِ، وَيَمُدُّ بَصَرَهُ الْحَادُّ إِلَى كُلِّ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، لِتَبَاعِ
 حَرَكَةِ الْمُصَلِّينَ، الَّتِي تَتَّبِعُ مَعَ انْطِلَاقِ الصَّوْتِ الْخَاشِعِ الْجَمِيلِ. كَانَ يَتَابِعُهُمْ
 بِشَعْفٍ مُنْذُ الْبِدَايَةِ، وَهُمْ يَخْرُجُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ الْبَيْضَاءِ،
 تَجْمَعُهُمُ الطَّرْفَاتُ الضَّيِّقَةُ الْمُتَعَرِّجَةُ، فَيَسْلَمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَسِيرُونَ مَعًا
 فِي جَمَاعَاتٍ صَغِيرَةٍ، وَيَتَابِعُ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ الصَّغِيرَةَ وَهِيَ تَتَلَقَّى مَعَ غَيْرِهَا
 مِنَ الْجَمَاعَاتِ عِنْدَ تَقَاطُعِ الطَّرِيقِ، فَيَتَضَاعَفُ عَدْدُهُمْ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى
 يَتَرَبَّوْا مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَقَدْ أَصْبَحُوا جُمُوعًا بِالْمِائَاتِ وَالْآلَافِ، وَجُوهُهُمْ
 هَادِئَةٌ مُسْرِقَةٌ، يَخْتَلِطُ وَقَعَ أَقْدَامِهِمُ الْمُطْمَئِنَّةِ عَلَى الْأَرْضِ الْحَجْرِيَّةِ، مَعَ أَصْوَاتِهِمْ
 الْهَادِئَةِ وَهُمْ يَتَمْتَمُونَ بِالْحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ.

يَحْدُثُ هَذَا كُلَّ يَوْمٍ، وَخُصُوصًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ. أَمَّا فِي يَوْمِ الْأَحَدِ، فَقَدْ كَانَ
 يُرَاقِبُ بِالْمِثْلِ حَرَكََةَ جُمُوعِ الْمُصَلِّينَ وَالتَّحْجَاجِ الْمَسِيحِيِّينَ، الْوَافِدِينَ إِلَى كَنِيسَةِ
 الْقِيَامَةِ، وَكَنِيسَةِ الْمَهْدِ، وَهُمْ يَتَحَرَّكُونَ فِي هُدُوءٍ وَسَكِينَةٍ، عَلَى إِيقَاعِ الْأَجْرَاسِ،
 وَهِيَ تَصْدَحُ فِي السَّمَاءِ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ وَالِدُهُ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ، يَقِفُ إِلَى جَانِبِهِ سَعِيدًا، وَيَقُولُ لَهُ:

وَجَعَلَ فِيهَا رُجُومًا يُرْمَىٰ بِهَا مِنَ الَّذِينَ يَبْغُونَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو جُنْدٍ عَدِيدٍ ۗ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ۗ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ۗ



وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ۗ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ ۗ

جُرْحًا بَلِيغًا، وَلَكِنَّهُ قَاوَمَ الْجُرْحِ وَالْأَلَمِ، وَظَلَّ يَرْفِرُ، وَيُجَاهِدُ بِكُلِّ مَا بَقِيَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْعُشِّ، وَهُوَ يَنْزِفُ، وَيَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ.

وَفِي السَّاعَاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي بَقِيَتْ لَهُ فِي الْحَيَاةِ، جَلَسَ بِصَوْتِهِ الْمُتَقَطِّعِ اللَّاهِثِ، يَحْكِي لَوْلَدِهِ الطِّفْلِ كُلِّ مَا حَدَّثَ، وَيَحْمَلُهُ الْأَمَانَةَ، وَيَأْخُذُ عَلَيْهِ الْعَهْدَ. وَلَكِنْ، قَبْلَ أَنْ يُجِيبَهُ طِفْلُهُ الْبَاكِي بِقَسَمِ الْعَهْدِ وَالْوَفَاءِ، كَانَ قَدْ أَسْلَمَ الرُّوحَ إِلَى بَارِيهَا!!
(وَلِذَلِكَ سَيَظَلُّ هَذَا الْهَذْهُدُ، طَوَالَ حَيَاتِهِ، يُرَدُّ الْكَلِمَةَ الَّتِي لَمْ يَسْمَعْهَا مِنْهُ أَيْبُهُ: أَعَاهِدُكَ أَمَامَ اللَّهِ يَا أَبِي.

امْتِلًا قَلْبَ الطِّفْلِ بِالْأَحْزَانِ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يُعَادِرَ الْعُشَّ. وَالْآنَ، صَارَ وَحِيدًا يَتِيمًا، لَيْسَ أَمَامَهُ إِلَّا أَنْ يَعْتَبِي بِنَفْسِهِ، وَيُوجِّهَ الدُّنْيَا بِمُفْرَدِهِ، وَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ عَلَيْهِ أَنْ يُوجِّهَهُ، أَنْ يَتَعَلَّمَ الطَّيْرَانَ وَحْدَهُ، وَإِلَّا فَسَوْفَ يَمُوتُ جُوعًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْعُشِّ!!

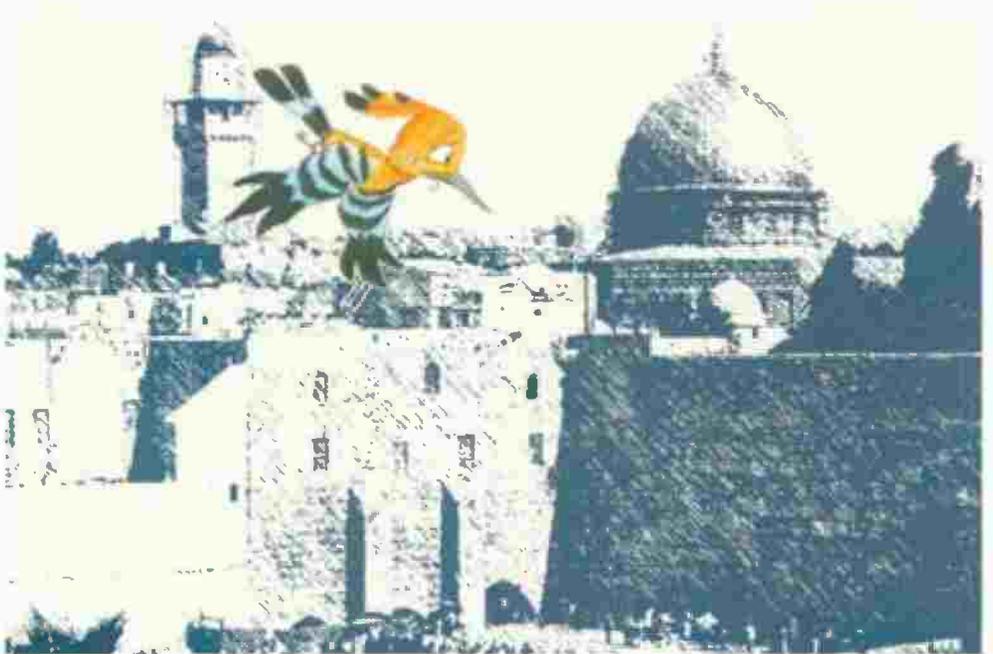
مَدَّ الْهَذْهُدُ الصَّغِيرُ رَقَبَتَهُ، وَنَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ، فَوَجَدَهَا بَعِيدَةً بَعِيدَةً، وَتَحَيَّلَ نَسَهُ وَهُوَ يَسْقُطُ مِنْ هَذَا الِازْتِفَاعِ، فَارْتَعَشَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشَعَرَ بِالِدُّوَارِ، وَأَخَذَ يَتَرَنَّحُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ عَلَى رِجْلَيْهِ، فَجَلَسَ فِي الْعُشِّ مُنْهَارًا يَبْكِي.
بَعْدَ وَقْتٍ، هَدَأَ الْهَذْهُدُ، وَأَخَذَ يُشَجِّعُ نَفْسَهُ: لَسْتُ أَوَّلَ طَائِرٍ يَطِيرُ، وَلَيْسَ أَمَامَكَ خِيَارٌ، لَا بُدَّ أَنْ تَفْعَلَ. فَإِمَّا أَنْ تَطِيرَ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ.

وَأَخَذَ يَتَذَكَّرُ كَلِمَاتِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَنْصَحُهُ: مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الْأَرْضِ، يَهْبِطُ وَيَسْقُطُ، وَمَنْ يَتَطَلَّعُ إِلَى السَّمَاءِ، يَرْتَفِعُ فِي الْأَعَالِي. وَعَلَى الْفَوْرِ، مَسَحَ دُمُوعَهُ، وَنَهَضَ

الرَّهْبِيَّةَ، عَلَى عَكْسِ أَيِّ كَائِنٍ آخَرَ يَقِفُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَرَى إِلَّا جَانِبًا وَاحِدًا
هُوَ الْجَانِبُ الْقَرِيبُ مِنْهُ. وَلِذَا فَقَدْ كَانَ التَّأْيِيرُ عَنِيفًا عَلَى الْهُدُودِ، إِلَى دَرَجَةٍ لَا
تُصَدَّقُ.

كَانَ الْهُدُودُ يَطِيرُ فَوْقَ الْمَكَانِ، عَلَى ارْتِفَاعٍ مُنْخَفِضٍ، وَيَرَى كُلَّ قَطْرَةِ دَمٍ،
وَكُلَّ دَمْعَةٍ، وَكُلَّ صَرَخَةٍ، وَكُلَّ يَدٍ حَاقِدَةٍ تَهْوِي بِسَيْفِهَا الْغَادِرِ عَلَى رَقَبَةِ بَرِيءٍ،
وَرَأْفِئُ وَجْوهَ السَّفَاحِينِ، وَنَظَرَ اتِّهَمَ، وَيَتَعَجَّبُ: كَيْفَ يَتَحَوَّلُ بَعْضُ الْبَشَرِ وَحُوشًا
مُفْتَرِسَةً!! وَيَتَذَكَّرُ كَلِمَاتٍ سَمِعَهَا مِنْ أَبِيهِ فِي لَحْظَاتِهِ الْأَخِيرَةِ:

(اعْلَمْ يَا وَلَدِي أَنَّ خَسَارَةَ الْقَاتِلِ أَكْبَرُ مِنْ خَسَارَةِ الْمَقْتُولِ؛ فَالْمَقْتُولُ يَفْقِدُ
حَيَاتَهُ، أَمَّا الْقَاتِلُ فَيَفْقِدُ إِنْسَانِيَّتَهُ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ أَعْلَى مِنَ الْحَيَاةِ، يَا وَلَدِي.



ثُمَّ يَرْتَفِعُ قَلِيلًا، وَيَدُورُ فِي الْفَضَاءِ، فَيَرَى صُورَةَ أَكْبَرَ لِلْمَكَانِ؛ يَرَى الْمَسْجِدَ
الْأَقْصَى، بَيْتَ اللَّهِ، الَّذِي طَالَ مَا ضَمَّ هَؤُلَاءِ الْأَبْرِيَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ عَلَى
الْإِيمَانِ وَالسَّلَامِ وَالْمَحَبَّةِ، وَهَاهُمْ الْآنَ يُذْبِحُونَ، فِي نَفْسِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ
يَسْجُدُونَ!!

ثُمَّ يَرْتَفِعُ فِي الْفَضَاءِ أَكْثَرَ، فَيَرَى كَنِيسَةَ الْمَهْدِ، وَكَنِيسَةَ الْقِيَامَةِ، فَتَكْتَمِلُ صُورَةُ
الْمَأْسَاةِ فِي عَيْنَيْهِ، وَيَعْتَصِرُ قَلْبُهُ الْأَلَمَ؛ فَهَؤُلَاءِ الْقَتْلَةُ الْمُجْرِمُونَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَتَبِعُ
هَذِهِ الْكَنِيسَةَ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ يَوْمًا إِلَّا مَهْدًا لِلْمَحَبَّةِ وَالسَّلَامِ!! وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ جَاءُوا
دِفَاعًا عَنِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَعَنِ الصَّلِيبِ، رَمَزِ الْخَلَاصِ مِنَ الْآثَامِ وَالْآلَامِ،
وَهَاهُمْ يَدُوسُونَ بِأَقْدَامِهِمُ الْمُدْنَسَةَ عَلَى كِتَابِ الْمَحَبَّةِ، وَيَنْزِعُونَ الصَّلِيبَ،
وَيَتَّخِذُونَهُ، بِأَيْدِيهِمْ سَيْفًا يَذْبِحُونَ بِهِ الْأَبْرِيَاءَ!!

لَمْ يَحْتَمِلْ قَلْبُ الْهُدْهُدِ الصَّغِيرِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَانْهَارَتْ فُؤَاهُ، وَسَقَطَ مِنْ
الْفَضَاءِ، عَلَى قُبَّةِ الصَّخْرَةِ، مَغْشِيًا عَلَيْهِ، فَاقْدَا الْوَعْيَ بِكُلِّ مَا حَوْلَهُ!!

السُّؤَالُ الصَّعْبُ

عِنْدَ ذَلِكَ، لَمْ أَحْتَمِلْ أَنَا أَيْضًا، وَشَعَرْتُ بِالِاخْتِنَاقِ، فَكَيْفُتُ بِسِدَّةٍ، وَقَاطَعُتُ
صَاحِبِي الْهُدْهُدَ صَارِحًا: وَلَكِنْ، لِمَاذَا نَحْنُ دَائِمًا؟! لِمَاذَا يَأْتِي الْأَعْدَاءُ دَائِمًا
لِيَعْتَدُوا عَلَيْنَا نَحْنُ؟! وَعَلَى بِلَادِنَا نَحْنُ؟! وَعَلَى أَبْرِيَانِنَا نَحْنُ؟! لِمَاذَا؟!!!

صَمَتَ الْهُدُودُ لِحِظَّةٍ، وَدُمُوعُهُ الصَّغِيرَةُ تَسَاقُطُ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ التَفَّتْ
إِلَيَّ، وَقَالَ: لَيْسَ دَائِمًا يَا وَلَدِي، لَيْسَ دَائِمًا، وَلَكِنْ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ هِيَ أَرْضُ
الْخَيْرَاتِ، وَمَهْدُ الدِّيَانَاتِ، وَمَنْبَعُ الْفِكْرِ وَالْحَضَارَةِ وَالضَّمِيرِ؛ فَهِيَ مَحَلُّ أَطْمَاعِ
الْعِزَّةِ الطَّامِعِينَ، وَهُمْ لَا يَتَجَرَّأُونَ عَلَى عِزِّهِ إِلَّا عِنْدَمَا نَكُونُ ضِعَافًا مُتَفَرِّقِينَ
مُسْتَسْتَبِينَ، فَنَصِيرٌ مِثْلَ الْجِسْمِ الضَّعِيفِ، الَّذِي تَنْجَحُ الْجِرَائِمُ فِي عِزِّهِ بِالْأَمْرَاضِ؛
لِأَنَّهُ جِسْمٌ ضَعِيفٌ !!

وَصَمَتَ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيَّ، وَقَالَ: وَلَكِنْ، اعْلَمْ يَا وَلَدِي، أَنَّ الضَّعْفَ
وَالْمَرَضَ أَنْوَاعٌ وَدَرَجَاتٌ، فَالضَّعْفُ الَّذِي أَصَابَ الْأَنْدُلُسَ كَانَ شَدِيدًا شَدِيدًا،
وَلِذَلِكَ كَانَ الْمَرَضُ فَتَاكَ قَاتِلًا، فَضَى عَلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُنَاكَ،
وَأَزَالَهَا. أَمَّا الضَّعْفُ الَّذِي أَصَابَ مِصْرَ، فَقَدْ كَانَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ
وَأَهْوَنَ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَنْجَحِ الصَّلِيبِيُّونَ فِي الْاِسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا،
وَبَاءَتْ حَمَلَاتُهُمْ عَلَيْهَا بِالْفِشْلِ. أَمَّا بِلَادُ الشَّامِ، فَكَانَ
الْمَرَضُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهَا، فَغَزَاهَا الصَّلِيبِيُّونَ، وَاسْتَوْلَوْا
عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مُدُنِهَا، وَكَانَ أَهْمُهَا جَمِيعًا مَدِينَةُ الْقُدْسِ
الشَّرِيفِ، الَّتِي شَهِدَ الْهُدُودُ الْمُتَفَائِلُ سُقُوطَهَا،
وَرَأَى بِعَيْنَيْهِ كُلَّ الْمَذَابِحِ وَالْفُطَاعَاتِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا
الصَّلِيبِيُّونَ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ الْأَبْرِيَاءِ.



ثُمَّ تَنَهَّدَتْ تَنْهِيدَةً عَمِيقَةً، وَقَالَ: لَنْ أَحْكِي لَكَ مَا حَكَاهُ الْهُدْهُدُ عَنْ هَذِهِ الْمَذَابِيحِ وَالْفِطَاعَاتِ الَّتِي رَأَاهَا، حَتَّى لَا أَثْقَلَ عَلَيْكَ بِالْأَحْزَانِ. وَلَكِنِّي أُرِيدُكَ أَنْ تَعْمَ أَنْ هَذَا الْهُدْهُدَ التَّعِيسَ، رَغِمَ كُلُّ مَا رَأَاهُ، وَكُلُّ مَا عَايَشَهُ، لَمْ يَبْسُ، وَلَمْ يَسْتَسِمِ لِأَحْزَانِهِ، وَمَضَى يَجُوبُ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبِهَا، بَحْثًا عَنِ الْأَمْلِ.

إِلَى بَلَدِ الْمَحْبُوبِ

بَعْدَ تَفْكِيرٍ وَبَحْثٍ وَاسْتِقْصَاءٍ، هَدَاهُ ذَكَوُّهُ، وَدَلَّتْهُ بَوْصَلَةُ الْأَمْلِ فِي قَلْبِهِ إِلَى قَاهِرَةِ الْمُعِزِّ!! فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهَا بِجَنَاحَيْهِ الْمُتَعَبِينَ، قَاصِدًا حَيًّا مِنْ أَحْيَائِهَا، عَلَى مَشَارِفِ مَدِينَةِ الْفُسْطَاطِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي بَنَاهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا فَتَحَ مِصْرَ. فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَانَتْ بِيُوتِ الْمِصْرِيِّينَ أَعْجُوبَةٌ مِنَ الْأَعَاجِيبِ، فَقَدَّ كَانُوا يَبْنُونَهَا عَالِيَةً مِنْ عِدَّةِ طَوَابِقٍ، وَيَمْلَأُونَ سُطُوحَهَا بِطَمِي النَّيْلِ، وَيَغْرِسُونَ فِيهَا النَّخِيلَ وَأَشْجَارَ الْفَوَاكِهِ وَالْأَعْنَابِ، فَتَتَحَوَّلُ هَذِهِ الْأَسْطُحُ الْعَالِيَةُ إِلَى حَدَائِقَ غَنَاءٍ كَاسِيَةٍ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ، نَظَرَ مِنَ الْفُضَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ الْحَدَائِقِ الْخَضِرَاءِ، وَلَمْ يَرِ بَشَرًا وَلَا بَيُوتًا وَلَا أَسْوَاقًا، فَأَخَذَ يَتَسَاءَلُ: أَيْنَ الْمَدِينَةُ؟! وَأَيْنَ الْبُيُوتُ؟! وَأَيْنَ الْمِصْرِيُّونَ، الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ بِالْمَلَائِينَ!!؟

ظَنَّ الْهُدْهُدُ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَى الْقَاهِرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ مُوَاصَلَةَ الطَّيْرَانِ، فَقَدَّ أَجْبَرَهُ التَّعَبُ عَلَى التُّزُولِ مِنَ الْفُضَاءِ؛ لِكَيْ يَزْتَاحَ قَلِيلًا، ثُمَّ يُعَاوِدُ السَّفَرَ.

اِنْدَهَسَ الْهُدْهُدُ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ اَوَّلَ مَرَّةٍ يَسْمَعُ فِيهَا عَنْ قَائِدِ
 اَوْ مَلِكٍ بِهَذَا الْاِسْمِ، وَكَيْفَهُ شَعَرَ بِبَارِقَةِ اَمَلٍ فِي قَلْبِهِ. وَلَمْ تَطُلْ حَيْرَتُهُ، فَقَدْ بَادَرَ
 اَصْغَرَ الْاَبْنَاءِ يَسْأَلُ اَبَاهُ: مَنْ يُوسُفُ الْاَمِينُ هَذَا يَا اَبِي؟
 فَاَبْتَسَمَ الْاَبُ اِبْتِسَامَةً حَايِيَةً، وَقَالَ: اِنَّهُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ، التَّقِيُّ الزَّاهِدُ، الَّذِي
 اَصْبَحَ الْيَوْمَ مَلِكًا عَلٰى مِصْرَ، اِنَّهُ صَلاَحُ الدِّينِ الْاَيُّوبِيِّ يَا وَلَدِي، الَّذِي اَقْسَمَ اَللّٰهُ
 يَنَامَ، وَلَا يَزْنٰحُ، حَتّٰى يُحَرَّرَ الْقُدْسَ، اَوْ يَمُوتَ شَهِيدًا.

الْهُدْهُدُ الشَّاعِرُ

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، نَسِيَ الْهُدْهُدُ كُلَّ تَعْبِهِ، وَانْتَفَضَ مِنْ مَكَانِهِ، وَهُوَ يَهْتَفُ
 بِحَمَاسَةٍ شَدِيدَةٍ: اَللّٰهُ اَكْبَرُ، هَذَا هُوَ، هَذَا مَنْ جِئْتُ اُبْحَثُ عَنْهُ، هَذَا هُوَ!!
 وَلَمْ يَتَمَالِكْ نَفْسَهُ، فَوَقَفَ مَمْسُوقًا، وَمَدَّ رَقَبَتَهُ اِلَى اَعْلٰى، وَاَخَذَ يَرْقُصُ،
 وَيَضْحُكُ بِصَوْتِهِ الْجَمِيلِ، وَيُنْشِدُ:

يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ

انصُرْ صَلاَحَ الدِّينِ

سُبْحَانَكَ اَللّٰهُمَّ يَا خَالِقَ الْاَمَلِ

يُزِيلُ كُلَّ هَمٍّ وَيُزْحِزِحُ الْجَبَلِ

يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ
أَنْصُرْ صَاحِبَ الدِّينِ
قَلْبِي لَحْمٍ وَدَمٍ كَانَ، وَلَمْ يَزَلْ
يُغَالِبُ الْأَلَمَ وَسِوَاكَ مَا سَأَلَ

يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ
اجْعَلْ صَاحِبَ الدِّينِ
أَمَلِ الْمُسْتَضْعَفِينَ
وِدْرَعِ الْمُؤْمِنِينَ
وَفَرْحَةَ الْحَزِينِ
يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ

ثُمَّ انْطَلَقَ يُرْفِرِفُ فِي الْفَضَاءِ، دُونَ أَنْ يَلْتَقِيَ أَحَدًا مِنَ
الْجَالِسِينَ تَحْتَ التَّعْرِيشَةِ إِلَى أَنْشُودَتِهِ الرَّائِعَةِ، فَقَدْ
كَانَتْ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، مُجَرَّدَ تَغْرِيدِ طَائِرٍ جَمِيلٍ
الصَّوْتِ، مِنْ آفِ الطُّيُورِ، الَّتِي تَحُطُّ عَلَى
الْأَغْصَانِ، ثُمَّ تَطِيرُ!!



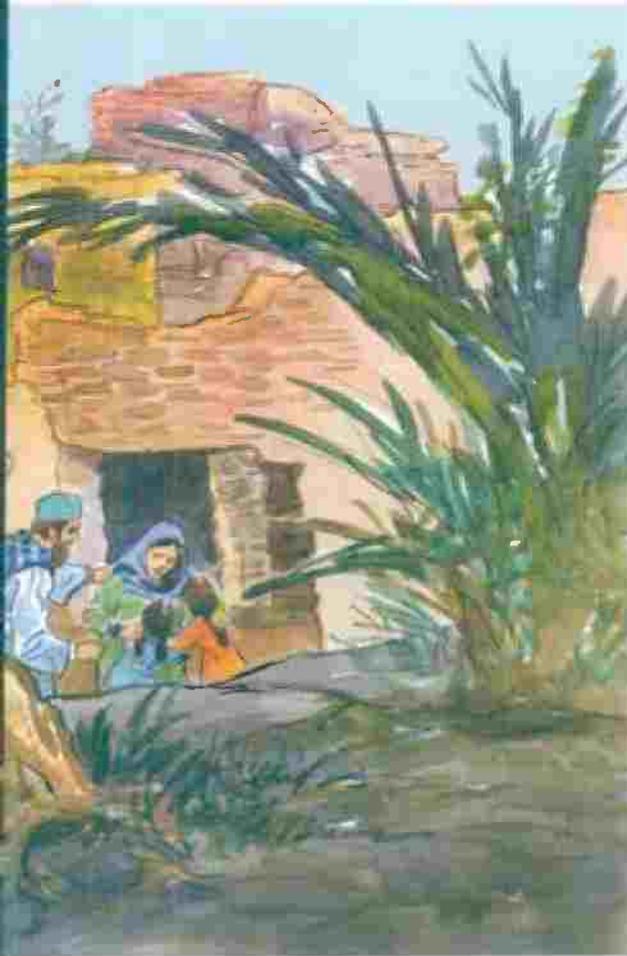
أَيْنَ الْمَحْبُوبِ؟!

فِي طَرِيقِ بَحْثِهِ عَنِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَهُوَ يَحْمِلُ كُلَّ هَذَا الْأَمَلِ وَالتَّقَاوُلِ، صَادَفَ
الْهُدْهُدُ أَشْيَاءَ غَرِيبَةً، جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِالْحَيْرَةِ وَالِاضْطِرَابِ!!

فَأَوَّلُ بَيْتٍ وَقَفَ عِنْدَهُ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى قَلْعَةِ صَلَاحِ الدِّينِ، كَانَ كُوخَ فَلَاحٍ
فَقِيرٍ، مَبْنِيًّا بِالطِّينِ، نِصْفُهُ مَسْقُوفٌ بِسَعْفِ النَّخِيلِ، وَأَعْوَادِ حَطَبِ الذَّرَّةِ، وَنِصْفُهُ

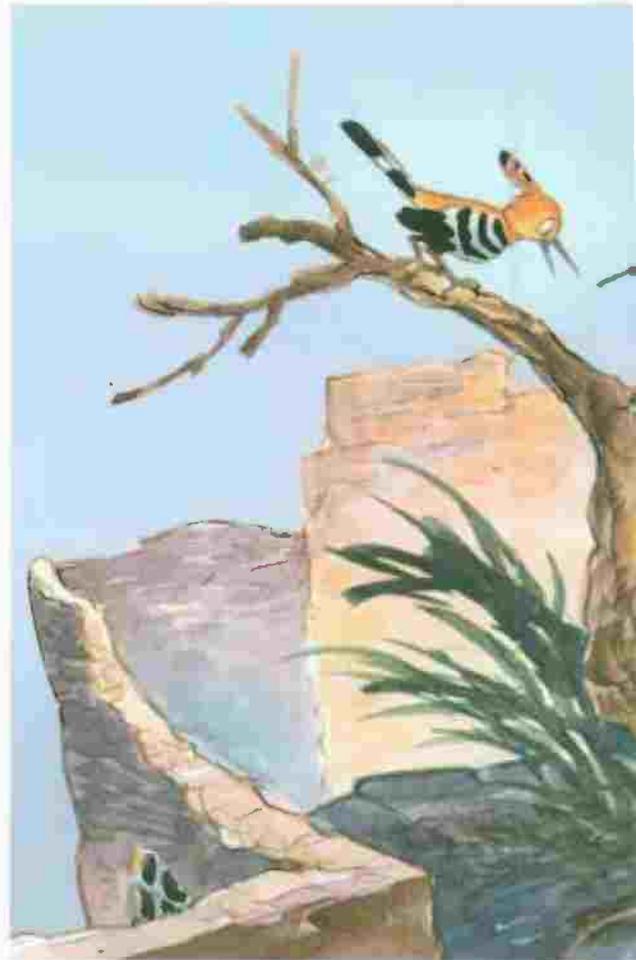
الْآخِرُ مَكْشُوفٌ لِلسَّمَاءِ. نَظَرَ الْهُدْهُدُ
مِنْ خِلَالِهِ، فَرَآى الْفَلَاحَ وَأُسْرَتَهُ،
فِي حَالَةٍ بَائِسَةٍ؛ كَانَتِ الزَّوْجَةُ تَبْكِي
بِحُزْقَةٍ، وَهِيَ تَحْتَضِنُ أَطْفَالَهَا،
وَالزَّوْجُ وَقَفَ حَزِينٌ مُرْتَبِكٌ،
يُحَاوِلُ تَهْدِئَتَهَا، وَيَقُولُ: اصْبِرِي،
وَلَا تَحْزَنِي، فَهَذَا أَمْرُ اللَّهِ.

فَتَضَرَّخُ الزَّوْجَةُ: لَيْسَ أَمْرُ اللَّهِ،
فَاللَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِالظُّلْمِ، بَلْ هَذَا أَمْرُ
صَلَاحِ الدِّينِ، وَهَذَا عَمَلُ جُنُودِهِ،
الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِيَسْلُبُونَا آخِرَ رَغِيفِ
خُبْزِ فِي بَيْتِنَا، وَيَتْرُكُوا أَوْلَادَنَا



يَمُوتُونَ جُوعًا، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!! ثُمَّ تَعُودُ
 لَيْكِي بِحُرْقَةٍ. وَلَا يَتِمَّاكَ الزَّوْجُ نَفْسُهُ، فَيَسْرُكُهَا، وَيَخْرُجُ بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ، أَوْ
 يَرَاهُ أَطْفَالَهُ، وَهُوَ يَيْكِي!!

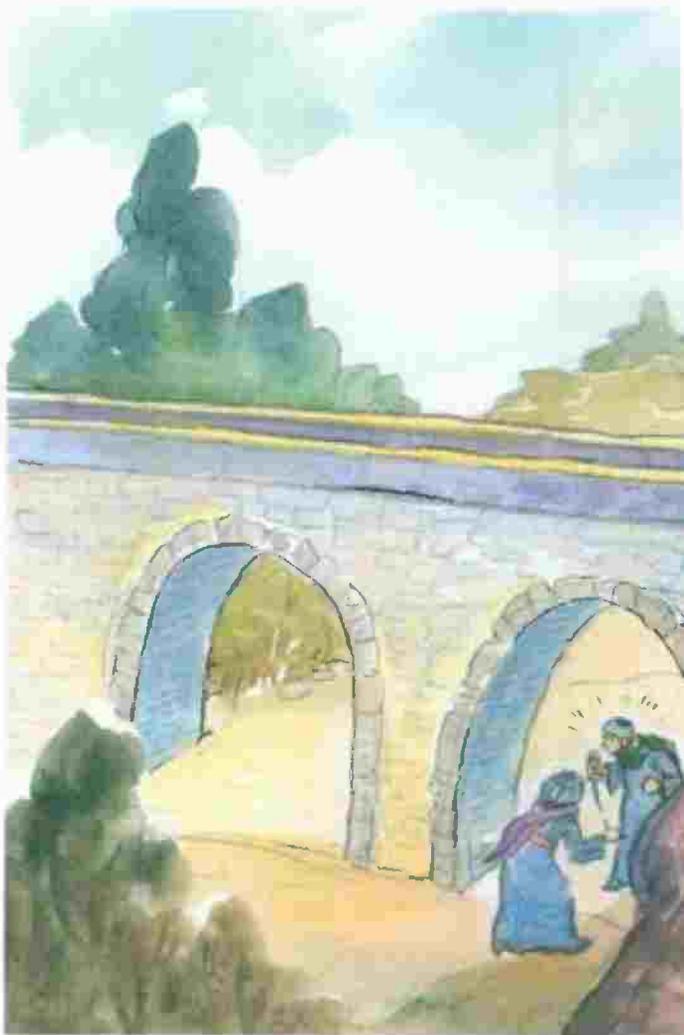
طَارَ الْهُدْهُدُ وَهُوَ يَشْعُرُ بِمَرَارَةٍ فِي حَلْقِهِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَفْحِ الْقَلْعَةِ، فَحَطَّ
 عَلَى مَجْرَى الْعُيُونِ، الَّذِي يَصِلُ بَيْنَ الْقَلْعَةِ وَبَيْنَ النَّيْلِ، وَيَمُدُّهَا بِالْمَاءِ، وَقَفَّ
 الْهُدْهُدُ يَشْرَبُ، وَيَتَأَمَّلُ، بِإِعْجَابٍ
 وَدَهْشَةٍ، هَذَا الْمَجْرَى الْمَائِي الَّذِي
 بُنِيَ بِالْحَجَرِ عَلَى شَكْلِ أَقْوَاسٍ
 ضَخْمَةٍ، مُتَدَرِّجَةِ الِازْتِفَاعِ، مِثْلِ
 دَرَجَاتِ السَّلَمِ، يُمَثِّلُ كُلُّ مِنْهَا
 مُسْتَوًى أَفْقِيًّا، وَضِعَتْ عِنْدَ نَهَائَتِهِ
 سَاقِيَةٌ عَلَى شَكْلِ قُرْصٍ بِهِ قَوَادِيسُ،
 تَدُورُ فَتَرْفَعُ الْمَاءَ إِلَى الْمُسْتَوًى
 الْأَعْلَى، الَّذِي يَلِيهِ. وَهَكَذَا، حَتَّى
 يَصِلَ الْمَاءُ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْقَلْعَةِ
 الْمُبْنِيَّةِ فَوْقَ التَّلَّةِ الْمُرْتَفِعَةِ.



- لَوْ كُنْتَ مَكَانِي لَفَعَلْتَ مِثْلِي، لَوْ هَدَمَ الْجُنُودُ بَيْتَكُمْ، وَالْقَوَا بِكُمْ فِي الْعَرَاءِ،
وَأَخَذُوا أَبَاكَ فَأَلْقَوْهُ فِي ظِلَامِ السَّجْنِ ظَلْمًا وَعُدْوَانًا، مَا كُنْتَ تَقُولُ إِنِّي
مَجْنُونٌ.

- أَبُوكَ لَيْسَ الْوَحِيدَ، هُنَاكَ الْكَثِيرُونَ غَيْرُهُ، وَلَيْسَ الْحَلُّ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ أَيْضًا
سَجِينًا أَوْ قَبِيلًا، فَيَضِيعُ كُلُّ أَمَلٍ
لَأَسْرَتِكَ أَنْ يَعِيشُوا مَسْتُورِينَ،
حَتَّى يَفُكَّ اللَّهُ قَيْدَ أَبِيكَ، وَيَأْتِي
بِالْفَرَجِ مِنْ عِنْدِهِ.

لَمْ يَسْتَطِعِ الْهُدُودُ الْإِنْتِظَارَ
أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَزَفَرَ صَاعِدًا
بِمَحَاذَةِ مَجْرَى الْعُيُونِ، حَتَّى
وَصَلَ إِلَى سُورِ الْقَلْعَةِ، وَهُوَ
يَشْعُرُ فِي حَلْقِهِ بِمَرَارَةٍ أَشَدَّ،
فَقَدْ أَدْرَكَ الْآنَ، بِوُضُوحٍ، أَنَّ
هُنَاكَ نَارًا تَحْتَ الرَّمَادِ!!



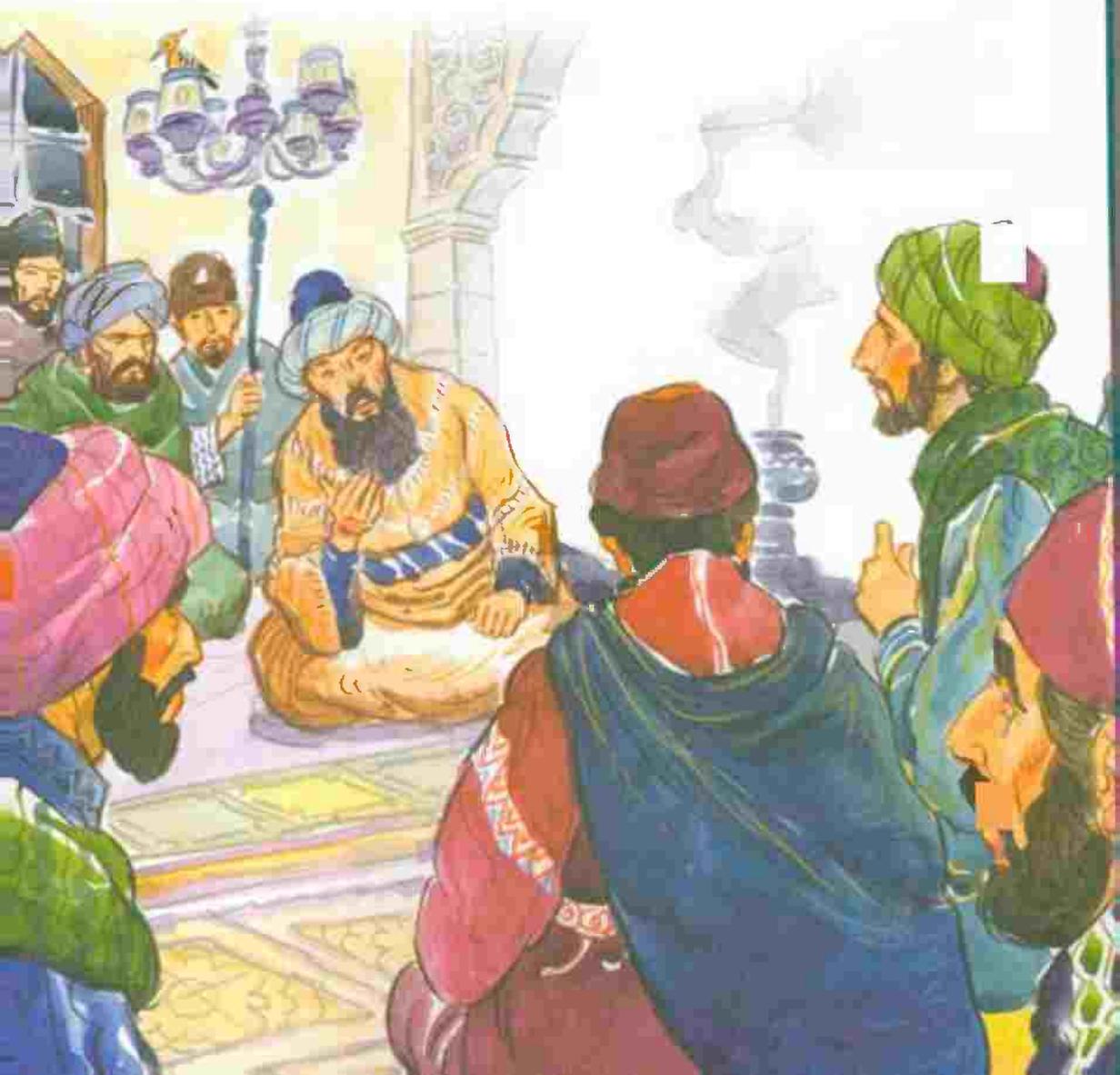
أَيْنَ صَلَاحِ الدِّينِ؟

حَطَّ الْهُدْهُدُ فَوْقَ قِمَّةِ بُرْجِ الْمُرَاقِبَةِ، وَأَخَذَ يَمْسَحُ الْمَكَانَ بِنَظَرَاتِهِ، وَلَمْ يَسْتَعْرِقْ وَقْتًا طَوِيلًا فِي الْبَحْثِ، فَالْوَقْتُ وَقْتُ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَصَلَاحُ الدِّينِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهَذَا هُوَ الْمَسْجِدُ بِمَنَارَتِهِ الْعَالِيَةِ، فِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ حَدِيقَةِ الْقَلْعَةِ.

عِنْدَمَا حَطَّ الْهُدْهُدُ عَلَى الثَّرِيَّاتِ الْكَبِيرَةِ فِي وَسْطِ الْمَسْجِدِ، كَانَ الْمُصَلُّونَ قَدْ فَرَعُوا مِنَ الصَّلَاةِ، وَأَخَذُوا يَخْرُجُونَ فِي هُدُوءٍ. وَلَكِنْ، أَيْنَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ بَيْنِ كُلِّ هَؤُلَاءِ؟ لَيْسَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يَلْبَسُ تَاجًا، أَوْ تَبْدُو عَلَيْهِ الْعِظَمَةَ وَالْأَبَهَةَ، أَوْ يُحِيطُ بِهِ الْحُرَّاسُ، هُنَاكَ حُرَّاسٌ قَلِيلُونَ فَقَطْ، يَقْفُونَ فِي الْخَارِجِ، وَهَذَا هُمْ يُغْلِقُونَ الْأَبْوَابَ، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ كُلُّ الْمُصَلِّينَ!! كَادَ الْهُدْهُدُ يَنْطَلِقُ، لِيُبْحَثَ عَنْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَلَكِنَّهُ التَّفَتَّ إِلَى دَاخِلِ الْمَسْجِدِ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ جَالِسُونَ عَلَى الْأَرْضِ قَرِيبًا مِنَ الْمِحْرَابِ. وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، عَرَفَ الْهُدْهُدُ صَلَاحَ الدِّينِ، إِنَّهُ ذَلِكَ النَّحِيلُ الْجَالِسُ فِي صَدَارَةِ الْمَجْلِسِ، مَهْمُومًا مُقَطَّبَ الْجَبِينِ، مَهِيئًا رَغْمَ مَظْهَرِهِ الْمُتَوَاضِعِ، تَتَجَلَّى فِي مَلَامِحِهِ عَلَامَاتُ الرِّعَامَةِ وَالْفُرُوسِيَّةِ.

كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ وَرِجَالُهُ يَتَحَدَّثُونَ بِصَوْتِ خَفِيضٍ، حَتَّى

أَنَّ الْهُدَاهِدَ لَمْ يَكُنْ يَسْمَعُهُمْ جَيِّدًا رَغَمَ وُقُوفِهِ عَلَى الثَّرِيَا الَّتِي تَتَدَلَّى فَوْقَهُمْ
مُتَاشِرَةً، وَلَكِنَّهُ فَهَمَ مِنَ الْكَلَامِ الْقَلِيلِ الَّذِي التَّقَطَهُ أَنَّهُمْ يَتَدَارَسُونَ بَعْضَ الْخُطَطِ
الْحَزْبِيَّةِ، وَأَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْقُدْسِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ هُمْ وُزَرَاءُ صَلَاحِ الدِّينِ
وَمُسْتَشَارُوهُ وَقَادَةُ جَيْشِهِ.



صَرَخَةُ النَّارِ

وَبَيْنَمَا يُحَاوِلُ الْهُدْهُدُ أَنْ يَفْتَحَ أُذُنَيْهِ إِلَى آخِرِهَا لِكَيْ يَسْمَعَ، ارْتَجَّ الْمَسْجِدُ
بِصَرَخَةٍ مُدَوِّيَةٍ، كَادَتْ تُوقِعُهُ مِنْ فَوْقِ الثَّرِيَابِ!!

- يَا يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ!!

الْتَفَتَ الْهُدْهُدُ مَفْرُوعًا، فَإِذَا بِهَذَا الصَّوْتِ الرَّهيبِ، صَادِرٌ مِنْ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ،
ضَيْلَةَ الْحَجْمِ، تَلْبَسُ أُمْلَالًا بَالِيَةً، وَفِي يَدِهَا غُصْنُ شَجَرَةٍ تَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ، وَتَمْشِي
بِطُءٍ بِاتِّجَاهِ مَجْلِسِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَهِيَ تَصْرُخُ غَاصِبَةً مِثْلَ جَمْرَةٍ مُشْتَعِلَةٍ!!
- يَا يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ!!

كَيْفَ مَرَّتْ مِنْ بَيْنِ الْحُرَّاسِ الْوَاقِفِينَ بِالْخَارِجِ؟! وَكَيْفَ دَخَلَتْ مِنْ أَبْوَابِ
الْمَسْجِدِ الْمُغْلَقَةِ؟! وَكَيْفَ لَمْ يَلْحَظْهَا أَحَدٌ عِنْدَمَا دَخَلَتْ، وَلَا وَهِيَ تَسِيرُ كُلَّ هَذِهِ
الْمَسَافَةِ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى صَحْنِ الْمَسْجِدِ؟! لِدَرَجَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ تَمَلَّكَهُ شُعُورٌ
غَرِيبٌ أَنَّهُا لَمْ تَدْخُلْ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، بَلْ إِنَّ الْأَرْضَ انشَقَّتْ فَجَاءَتْ، وَأَخْرَجَتْهَا
مِثْلَ الْحِمَمِ الْبُرْكَانِيَّةِ!!

انْتَفَضَ صَلَاحُ الدِّينِ وَرِجَالُهُ وَاقِفِينَ، وَقَدْ عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ أَلْسِنَتَهُمْ لِلْحَظَائِرِ
وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، ثُمَّ شَرَعَ بَعْضُهُمْ يَزْعُقُ فِيهَا، وَيَسْأَلُهَا: مَنْ أَنْتِ؟ وَكَيْفَ
دَخَلْتِ؟ وَكَيْفَ وَصَلْتِ إِلَى هُنَا؟! وَلَكِنَّ صَلَاحَ الدِّينِ أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ، دُونَ
أَنْ يُحَوِّلَ بَصَرَهُ عَنْهَا، فَصَمْتُوا، وَوَقَفُوا مُتَسَمِّرِينَ فِي أَمَاكِنِهِمْ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَيْهَا، وَقَدْ
زَالَتْ عَنْ وَجْهِهِ مَلَامِحُ الْجِدِّيَّةِ وَالتَّجْهِمِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهَا رَقِيقًا مُتَوَاضِعًا، بِوَجْهِهِ



سَمَحَ بِشُوشٍ، وَصَوْتِ عَطُوفٍ، يَقُولُ لَهَا: لَبَّيْكَ يَا أُمَّ.

- أَنْتَ يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ!!؟

- نَعَمْ، أَنَا الْعَبْدُ الضَّعِيفُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ.

- لِمَاذَا تُعِدُّ الْعُدَّةَ لِقِتَالِ الصَّلِيبِيِّينَ،

يَا بَنَ أَيُّوبَ؟

- لِأَرْفَعَ الظُّلْمَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَنِ

الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَتْبَاعِ كُلِّ دِينٍ.

- كَيْفَ، وَأَنْتَ مَنْ يَظْلِمُهُمْ، وَيَقْهَرُهُمْ، يَا صَاحَّ الدِّينِ!!

تَغَيَّرَ وَجْهُ صَاحَّ الدِّينِ، وَنَفَرَ عِرْقُ الْعَضْبِ فِي

حَبِينِهِ، فَهَمَّ بَعْضُ الْوَاقِفِينَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِالْمَرْأَةِ

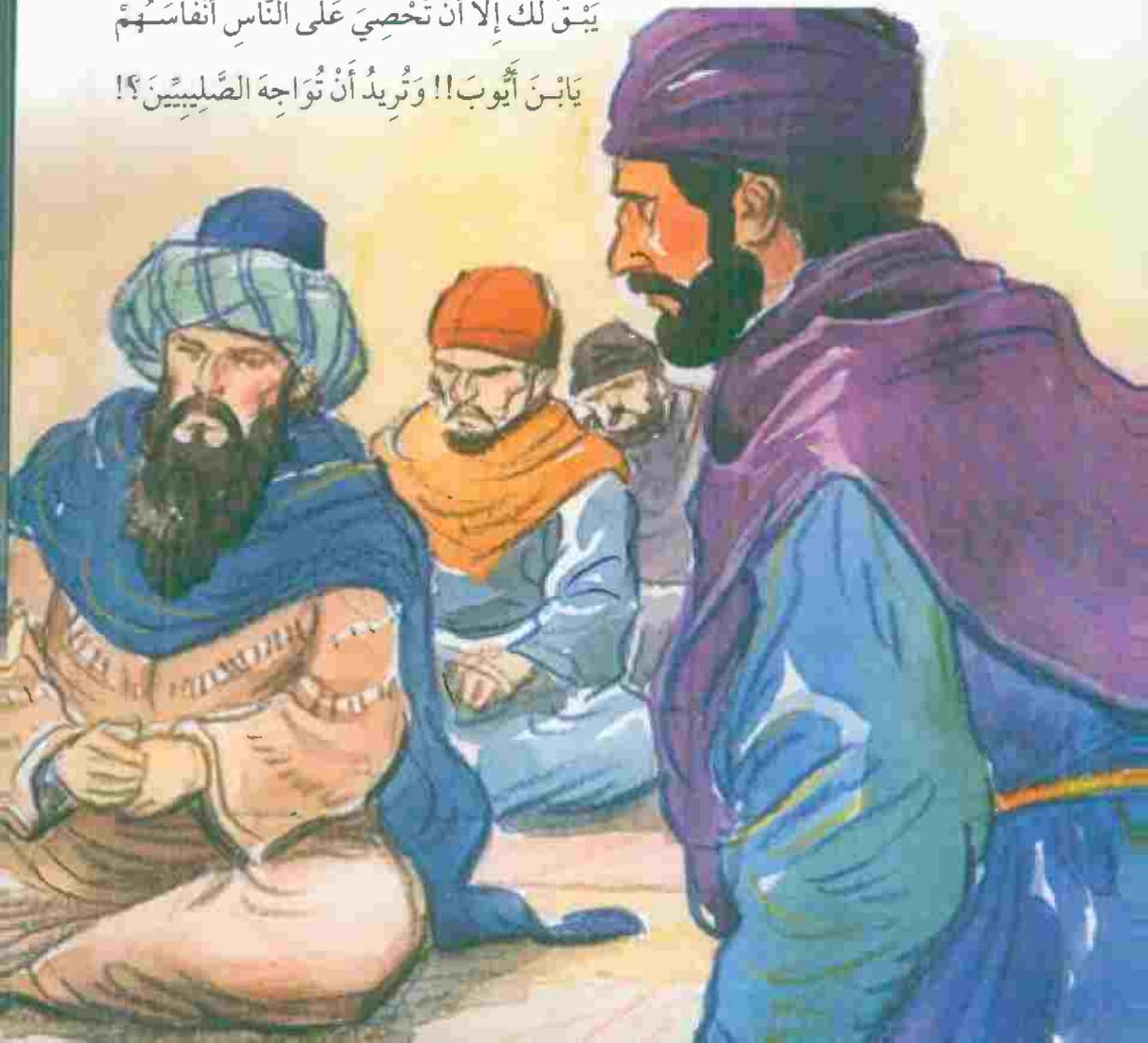
الْعَجُوزِ، أَوْ يَقْبِضَ عَلَيْهَا فَيُلْقِيهَا خَارِجَ الْمَسْجِدِ، وَلَكِنَّهُ

أَسَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ، وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْهَا أَكْثَرَ، وَقَدْ

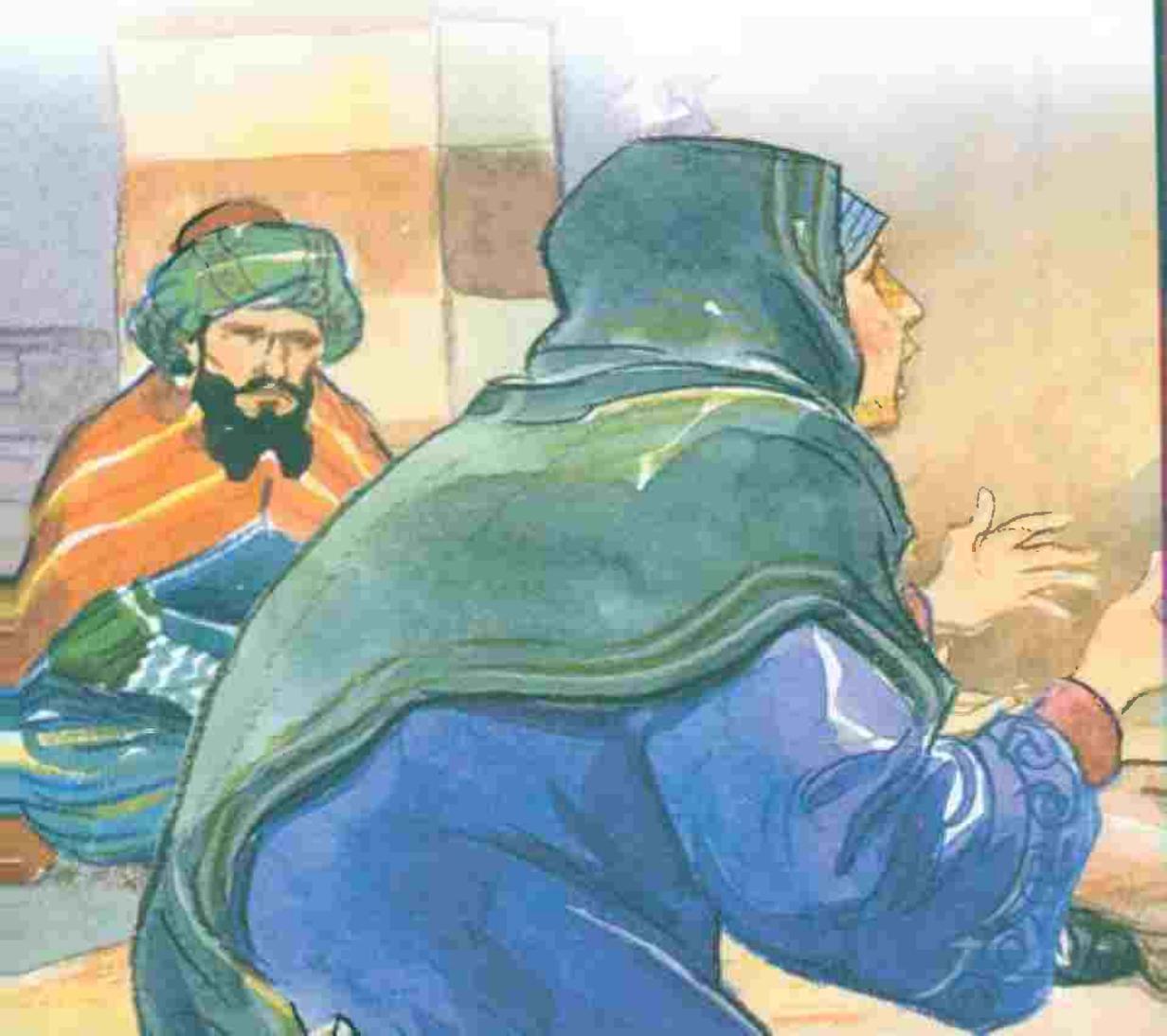
إِدَادَ حُنُوقًا وَعَطْفًا، وَقَالَ لَهَا: كَيْفَ

أَظْلَمْتَهُمْ يَا أُمَّ!!؟

قَالَتِ الْمَرْأَةُ بِصَوْتِهَا النَّارِيِّ: أَعْلَمُ أَنَّكَ سَتُلْقِي بِي فِي ظُلُمَاتِ سِجْنِكَ، كَمَا
فَعَلَ بِي مَنْ سَبَقُوكَ، وَلِكِنِّي عَاهَدْتُ اللَّهَ أَلَّا أُسْكَتَ عَنْ كَلِمَةٍ حَقٍّ أَقُولُهَا فِي وَجْهِ
حَاكِمٍ ظَالِمٍ، وَأَنْتَ ظَالِمٌ يَا بَنَ آيُوبَ، سَجُونُكَ مَمْلُوءَةٌ بِالْأَبْرِيَاءِ، وَجُنُودُكَ يَقْتَحِمُونَ
كُلَّ بَيْتٍ لِكَيْ يُحْصِلُوا الضَّرَائِبَ الَّتِي فَرَضْتَهَا غَضَبًا عَلَى الْفُقَرَاءِ، ضَرَائِبَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ غَيْرُ الْهَوَاءِ الَّذِي يَتَنَفَّسُهُ الْفُقَرَاءُ، وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُ صَرِيئَةً. لِمَ
يَبْقَ لَكَ إِلَّا أَنْ تُحْصِيَ عَلَى النَّاسِ أَنْفُسَهُمْ
يَا بَنَ آيُوبَ!! وَتُرِيدُ أَنْ تُوَاجِهَ الصَّلِيبِيِّينَ!؟



تَوَاجِهُهُمْ بِمَنْ؟! تَوَاجِهُهُمْ بِالرِّجَالِ الَّذِينَ أَفْقَرَتْهُمْ، وَسَجَنَتْهُمْ، وَأَخْنَيْتَ رُؤُوسَهُمْ
ذُلًّا وَخُضُوعًا؟! فَهَلْ تَنْتَصِرُ بِالْأَذْلَاءِ؟! لا، لَنْ تَنْتَصِرَ يَا بَنَ أَيُّوبَ، لَنْ تَنْتَصِرَ!!
إِمْتِنِعْ وَجْهَ صَلاَحِ الدِّينِ، وَاحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْعُجُوزِ الْمِسْكِينَةِ،
الَّتِي تَوَاجِهُهُ مِثْلَ جَمْرَةِ نَارٍ مُسْتَعْلِيَةٍ. ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى رِجَالِهِ، فَإِذَا بِهِمْ جَمِيعًا مُنْكَمِشِينَ
مَدْعُورِينَ، يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَرْضِ!!



لَحْظَةً صَمَتْ رَهَيْبٍ، يَقْطَعُهَا، فَجَاءَتْ، صَوْتُ صَلَاحِ الدِّينِ، مِثْلَ سَيْفٍ حَادٍ،
شَعَرَ بِهِ الْهُدْهُدُ، وَكَأَنَّهُ يَشُقُّ قَبَّةَ الْمَسْجِدِ، وَيَخْرُجُ مُجَلْجِلًا إِلَى السَّمَاءِ، وَهُوَ
يَصْرُخُ فِي رِجَالِهِ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ مَنْ أَمَرَ بِهَذَا؟

وَيَعُودُ الصَّمْتُ الرَّهَيْبُ، تَقْطَعُهُ الْعُجُوزُ بِصَوْتِ حَزِينٍ سَاخِرٍ:

إِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ

أَوْ كُنْتَ تَدْرِي، فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ!!

ظَلَّ صَلَاحُ الدِّينِ فِي مَكَانِهِ مُتَحَفِّزًا، يَصُبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنَيْهِ نَارَ غَضَبِهِ، مِثْلَ
أَسَدٍ جَرِيحٍ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ اللَّاهِئَةَ، قَبْلَ أَنْ يَبْطِشَ بِطُشَّةِ جَبَّارٍ، وَقَالَ لَهُمْ بِصَوْتِ أَمِيرٍ
مُخِيفٍ، مِثْلِ الزَّرِيرِ، مَسْحُونٍ بِالْوَعِيدِ: الْآنَ، تُهْدَمُ كُلُّ الشُّجُونِ، وَيُفْرَجُ عَنْ كُلِّ مَنٍّ
فِيهَا، وَتُلْغَى الضَّرَائِبُ عَنِ الْفُقَرَاءِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجُنُودُ بَيْنَنَا إِلَّا

بِأَمْرِ الْقَاضِي. ثُمَّ صَرَخَ فِيهِمْ: أَنْصِرُوا. وَنَفَّذُوا الْآنَ، فَوَزَّ،

وَأَعْلَنُوا ذَلِكَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، أَنْصِرُوا. فَجَرَى الْجَمِيعُ،

صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، مُسْرِعِينَ، خَارِجِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ

وَصَلَاحُ الدِّينِ يَجْلِدُ ظُهُورَهُمْ بِنَظَرَاتِهِ الْغَاضِبَةِ!!

أَمَّا الْعُجُوزُ، فَكَانَتْ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، قَدْ تَحَوَّلَتْ

مِنْ جَمْرَةٍ مُسْتَعْلَةٍ، إِلَى جَمْرَةٍ أَطْفَأَهَا الْمَاءُ!! وَهِيَ



الآن مُنْكَمِشَةً بِأَيْسَةٍ ضِعِيفَةً، تَبْكِي مِثْلَ أُمِّ، وَتَمْسَحُ دُمُوعَهَا بِكُمِّ جِلْبَابِهَا، وَتَقُولُ
وَهِيَ مَحْنِيَّةُ الرَّأْسِ، وَكَأَنَّهَا تُكَلِّمُ نَفْسَهَا:

أَعَزَّكَ اللهُ يَا وَلَدِي، وَأَعَزَّ بِكَ الإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَنَصَرَ بِكَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ،
وَأَنْصَفَ بِكَ الْمُقْتَهُورِينَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ.

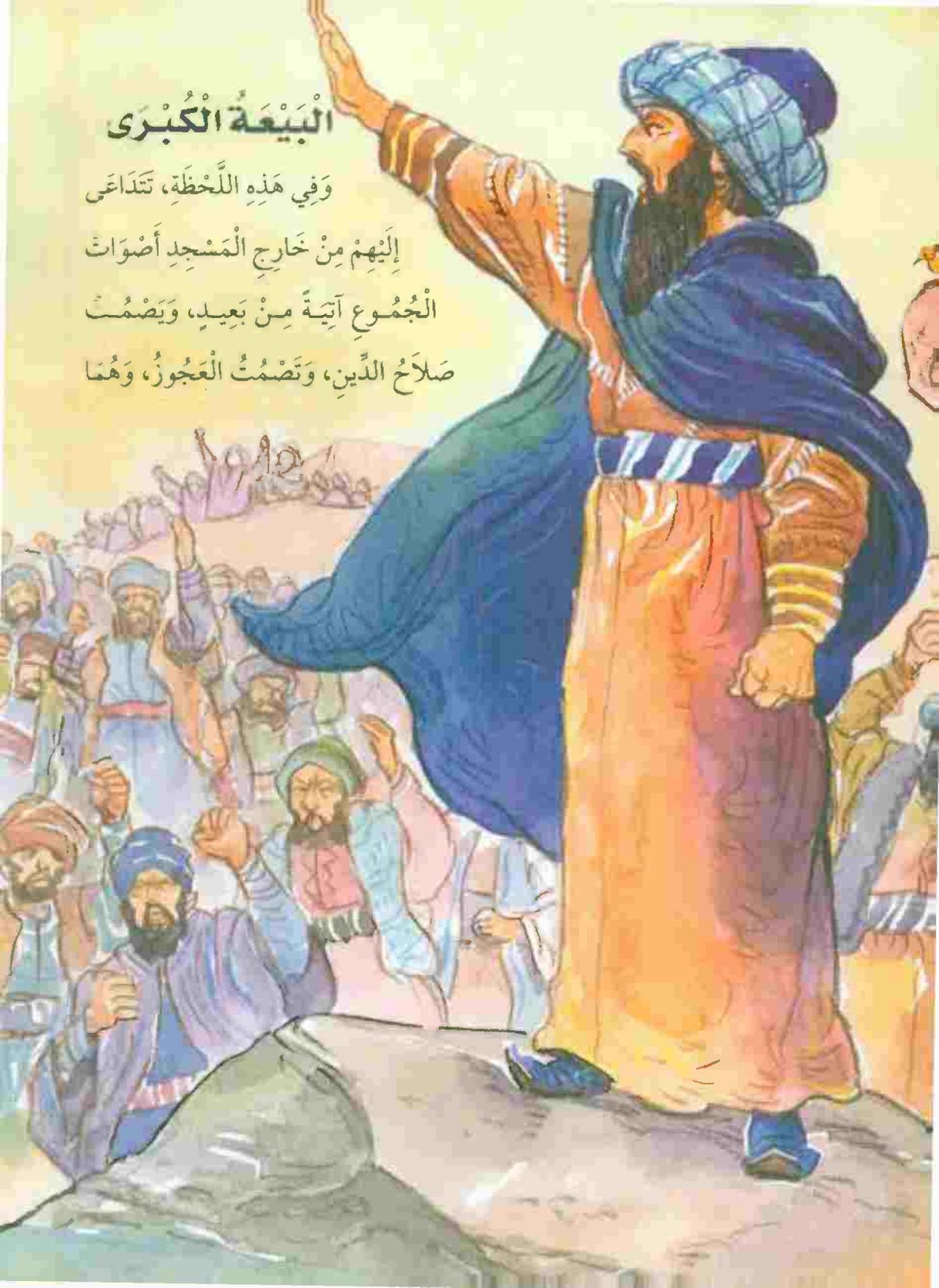
وَبِشَهَامَةِ الْفَارِسِ النَّبِيلِ، يَنْحَنِي صِلَاحَ الدِّينِ لِلْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ، وَهُوَ يَقُولُ
بِصَوْتٍ تَخْنُقُهُ الْعِبْرَاتُ: سَامِحِينِي يَا أُمَّ، سَامِحِينِي، وَاطْلُبِي لِي الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّ
الْغُفْرَانِ، فَقَدْ شَغَلَنِي الْجِهَادُ عَنِ شُؤُونِ النَّاسِ، وَمَا الْجِهَادُ إِلَّا مِنْ أَجْلِ كَرَامَةِ
النَّاسِ، فَيَا وَبِلِي مِنْ غَضَبِ اللهِ!

وَلَا يَمْلِكُ الْهُدْهُدُ نَفْسَهُ، فَيَجْهَشُ بِالْبُكَاءِ، وَتَسَاقُطُ دُمُوعُهُ الصَّغِيرَةُ عَلَى
نُحَاسِ الثَّرِيَا. وَلَا تَتَمَالِكُ الْعَجُوزُ نَفْسَهَا، فَتَنْهَارُ عَلَى الأَرْضِ، فَيُسْنِدُهَا صِلَاحُ
الْمَدِينِ بِيَدَيْهِ الْحَانِئِيَّيْنِ، حَتَّى تَجْلِسَ. وَيَجْلِسُ هُوَ أَمَامَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَالْدُمُوعُ
تَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَوْ مَنَحْتُكَ نِصْفَ عُمْرِي مَا كَافَأْتِكِ، يَا مَنْ نَجَّيْتِنِي مِنْ
غَضَبِ اللهِ وَعَذَابِهِ.

فَتَقُولُ الْعَجُوزُ بِصَوْتِهَا الْبَاكِي: بَلْ يَا لَيْتَنِي أَمْلِكُ أَنْ أَهَبَ لِكَ عُمْرِي كُلَّهُ
يَا وَلَدِي.

الْبَيْعَةُ الْكُبْرَى

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَتَدَاعَى
إِلَيْهِمْ مِنْ خَارِجِ الْمَسْجِدِ أَصْوَاتُ
الْجُمُوعِ آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ، وَيَضْمُتُ
صَلَاخُ الدِّينِ، وَتَضْمُتُ الْعُجُوزُ، وَهَمَّا



يَسْمَعَانِ الصَّيْحَاتِ وَالْهَتَافَاتِ تَعَالَى، وَتَقْتَرِبُ: عَاشَ صَلاَحُ الدِّينِ ... عَاشَ
صَلاَحُ الدِّينِ ... عَاشَ السُّلْطَانُ العَادِلُ ... عَاشَ السُّلْطَانُ النَّاصِرُ !!

وَتَقُولُ العَجُوزُ، وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهَهَا بِالبُشْرَى: هَكَذَا تَسْتَطِيعُ فَهَرَ الصَّلِيبِيِّنَ يَا
وَلَدِي، هَكَذَا تَسْتَطِيعُ؛ فَلَيْسَ السُّلْطَانُ القَوِيُّ، مَنْ يُخْضِعُ رِقَابَ النَّاسِ بِالسَّيْفِ
وَالْمَدْلَةِ، بَلْ مَنْ يَمْلِكُ قُلُوبَ النَّاسِ بِالعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ. وَهِيَ البِدَايَةُ؛ قُلُوبُ
النَّاسِ مَعَكَ، فَكُنْ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّهِمْ بِكَ، كُنْ ابْنًا لِكَبِيرِهِمْ، وَأَبًا لَصَغِيرِهِمْ، وَأَخًا
لِسَبَابِهِمْ، وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكَ حِجَابًا؛ فَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَا وَلَدِي لَيْسَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ اللّهِ حِجَابٌ. فَاتَّقِ اللّهِ فِيهِمْ حَتَّى تَنَالَ تَأْيِيدَهُ وَرِضَاهُ، فَمَا النَّصْرُ يَا وَلَدِي
إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللّهِ. انْهَضْ يَا وَلَدِي، انْهَضْ واخْرُجْ لِلنَّاسِ الَّذِينَ جَاءُوا يُبَايِعُونَكَ،
وَيُعَلِّقُونَ عَلَيْكَ الأَمَلَ بَعْدَ اللّهِ.

وَيَنْهَضُ صَلاَحُ الدِّينِ، وَيَتَقَدَّمُ بِخُطُوبٍ بَطِينَةٍ نَحْوَ البَابِ، لِيُخْرِجَ إِلَى النَّاسِ،
وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ قَدَمَيْهِ لَا تَلْمِسَانِ الأَرْضَ !!

وَيَنْطَلِقُ الهُدُودُ خَارِجًا مِنْ شَبَاكِ المَسْجِدِ، وَعِنْدَمَا يَرَى الجُمُوعَ الحَاشِدَةَ،
تَمَلُّوهُ النَّشْوَةَ، وَتَمَلِّكُهُ الرَّغْبَةَ العَارِمَةَ فِي أَنْ يَطِيرَ وَيَطِيرَ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى
السَّحَابِ.

احتفال الهدد

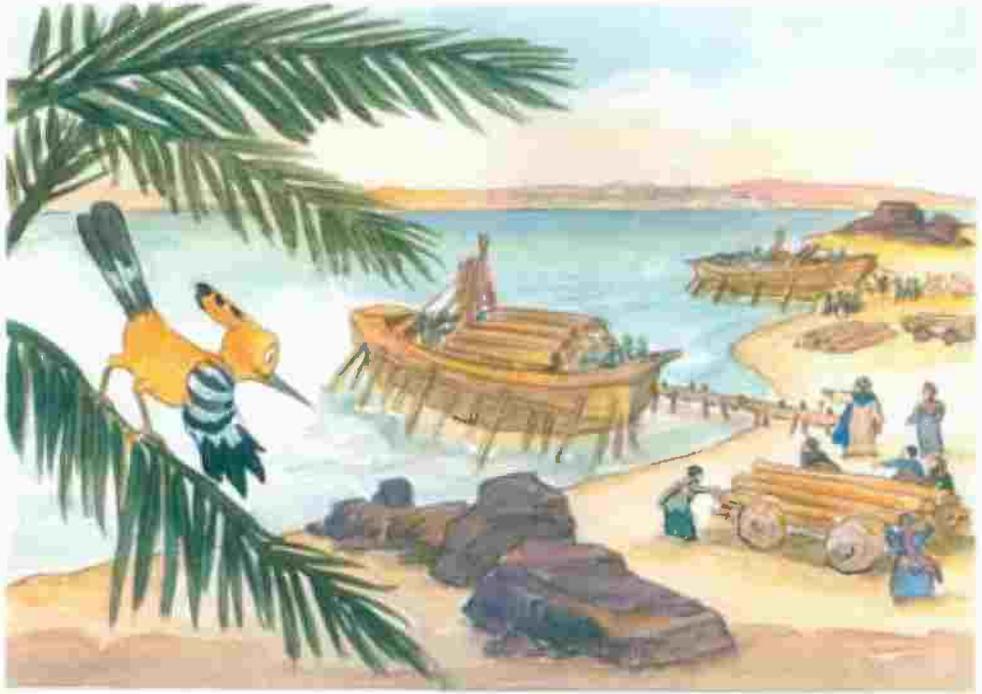
وَهَذَا مَا صَنَعَهُ فِعْلًا، فَقَدِ انْطَلَقَ طَائِرًا مِنْ فَوْقِ الْجُمُوعِ، مُرْتَفِعًا إِلَى الْأَعْلَى،
وَلَا زَالَ يُرْفَرُ وَيُرْفَرُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى ارْتِفَاعِ يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ،
ثُمَّ ضَمَّ جَنَاحَيْهِ، وَتَرَكَ جِسْمَهُ يَهْوِي، وَهُوَ يَدُورُ وَيَتَقَلَّبُ فِي الْفَضَاءِ، بِحَرَكَاتٍ
بَهْلَوَانِيَّةٍ عَجِيبَةٍ، شَاعِرًا أَنَّ كُلَّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَيَتَابِعُونَ حَرَكَاتِهِ بَدَهْشَةٍ
وَإِعْجَابٍ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَكُنْ يُلَاحِظُهُ، أَوْ يَلْتَمِثُ إِلَيْهِ، فَبِ
هَذِهِ اللَّحْظَةِ، كَانَتْ قُلُوبُ النَّاسِ وَعُيُونُهُمْ شَاخِصَةً إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، الَّذِي يَقِفُ
أَمَامَهُمُ الْآنَ، يُحَدِّثُهُمْ حَدِيثَ الْقَلْبِ إِلَى الْقَلْبِ.

لَمْ يَلْتَمِثُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى الْهُدُودِ، الَّذِي ظَلَّ يُودِّي حَرَكَاتِهِ الْبَهْلَوَانِيَّةَ بِكُلِّ
حَمَاسَةٍ وَإِخْلَاصٍ، وَنَسِيَ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى أَنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنَ الْأَرْضِ!!
وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ لَطَفَ بِهِ، فَسَقَطَ عَلَى شَجَرَةٍ أَغْصَانُهَا مُتَشَابِكَةٌ لَيْتَةً، لَكَانَ هَذَا
الْعَرَضُ قَدْ انْتَهَى بِمَأْسَاةٍ تُودِي بِحَيَاةِ الْهُدُودِ، وَلَا تَقْطَعُ عَنَّا أَخْبَارُ أَهَمِّ انْتِصَالٍ
حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ الْمُعْتَدِينَ فِي تَارِيخِهِمْ كُلِّهِ!!

تَرَكَّتِ السَّقَطَةُ نُدْبَةً سَوْدَاءَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ مِنْ مِثْقَالِ الْهُدُودِ، وَخَلَقَتْ
الْمَا فِي كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ، ظَلَّ يَلَازِمُهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَلْتَمِثُ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ
أَوْ يَهْتَمُّ بِهِ، فَقَدْ كَانَ يَمَلُؤُهُ الشُّعُورُ بِأَنَّهُ، فِي هَذَا الْيَوْمِ، وُلِدَ مَوْلِدًا جَدِيدًا، وَكَانَ

يَقُولُ دَائِمًا: فِي هَذَا الْيَوْمِ، مَحَا اللَّهُ مِنْ قَلْبِي كُلَّ أَحْزَانِ الْمَاضِي، وَوَضَعَ مَكَانَهَا
الْأَمَلَ وَالْتَفَاؤُلَ!!

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَمْ يُفَارِقِ الْهُدُودَ صَلاَحِ الدِّينِ لِحِظَّةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَدْ كَانَ
يُرَافِقُهُ وَهُوَ يَصِلُ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ، لِيَتَابِعَ بِنَفْسِهِ بِنَاءَ الْجَيْشِ، وَتَدْرِيبَاتِهِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ،
وَيُشْرِفُ عَلَى حَرَكَةِ الْإِصْلَاحِ وَالْبِنَاءِ الدَّاخِلِيِّ، دُونَ أَنْ يَنْسَى وَاجِبَاتِهِ كَحَاكِمٍ
عَادِلٍ، يَهْتَمُّ بِأَدَقِّ شُؤُونِ النَّاسِ، وَيَسْتَمِعُ إِلَى شَكَوَاهُمْ، وَيَرُدُّ عَنْهُمْ الْمَظَالِمَ،
وَيُقِيمُ بَيْنَهُمُ الْعَدْلَ، وَكَانَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِثَالًا لِلْقَائِدِ الشَّجَاعِ الصُّلْبِ، وَلِلْمُسْلِمِ
الْحَكِيمِ الْعَادِلِ، الَّذِي لَا يَظْهَرُ مِنْهُ لِلنَّاسِ إِلَّا جَانِبُ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ وَالْحَزْمِ.



الأسد الرقيق

أَمَا الْهَذْهُدُ فَهُوَ مَنْ كَانَ يَعْرِفُ رِقَّةَ قَلْبِ هَذَا الْأَسَدِ، وَكَانَ
كَثِيرًا مَا يَرَاهُ فِي اللَّحْظَاتِ الَّتِي يَتَحَوَّلُ فِيهَا إِلَى إِنْسَانٍ ضَعِيفٍ،
كَثِيرِ الْبُكَاءِ مِثْلِ طِفْلِ، كُلَّمَا خَلَا إِلَى نَفْسِهِ، وَوَقَفَ أَمَامَ اللَّهِ
خَاشِعًا ذَلِيلًا، يُصَلِّي، وَيَدْعُو، وَيَبْتَهِلُ، وَكَانَ دُعَاؤُهُ دَائِمًا: اللَّهُمَّ
إِنِّي عَبْدُكَ الضَّعِيفُ، فَلَا تَخْذُلْنِي أَمَامَ أَعْدَائِكَ. ثُمَّ تَنْهَمِرُ
مِنْهُ الدُّمُوعُ!!

وَأَكْثَرُ مَرَّةٍ رَأَاهُ فِيهَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، كَانَتْ عِنْدَمَا أَعْلَنَ
أَحَدُ مُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ أَنَّهُ سَيَقُودُ جَيْشَهُ لاختِلالِ مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ
وَالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ!!

كَانَ هَذَا الصَّلِيبِيُّ وَاسْمُهُ (أَرْنَاطُ)
مَلِكًا عَلَى مَدِينَةِ (الْكَرْكِ)، وَكَانَ
مَغْرُورًا أَحْمَقَ، شَدِيدَ الْكِرَاهِيَةِ
وَالْحِقْدِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ،
وَكَانَ خَائِنًا لِعَهْدِهِ مَعَ صَلَاحِ
الدِّينِ؛ فَهُوَ وَاحِدٌ



بِنَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ عَقَدُوا مَعَهُ هُدًى مَدَّتْهَا أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ، وَهَآ هُوَ الْآنَ
يُرِيدُ حَرْقَ هَذِهِ الْهُدْيَةِ، لَيْسَ فَقَطْ، بَلْ إِنَّهُ يُرِيدُ الْاِعْتِدَاءَ عَلَى أَقْدَسِ بَقَاعِ الْأَرْضِ؛
مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَهُوَ مَا جَعَلَ صِلَاحَ الدِّينِ يَصْرُخُ مِثْلَ أَسَدٍ جَرِيحٍ: إِلَّا هَذِهِ يَا عَدُوَّ
لِلَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ فَعَلَهَا لَنَقَاتَلْتَهُ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دِمَائِنَا!!

وَكَانَ صِلَاحُ الدِّينِ فِي قَسَمِهِ هَذَا يُعَبِّرُ عَنِ الْغَضَبِ الَّذِي يَغْلِي فِي قَلْبِ كُلِّ
مُسْلِمٍ، حَتَّى الْهُدْمُ نَفْسِهِ كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ قَلْبَهُ سَيَخْرُجُ مِنْ صَدْرِهِ مِنْ شِدَّةِ الْاِنْفِعَالِ
وَالْحِمَاسَةِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ رَفَعَ سَيْفَهُ عَالِيًا، وَوَقَفَ أَمَامَ النَّاسِ وَفَقَّ الْقَائِدَ
لِبَطْلِ الشَّامِخِ، يُقْسِمُ عَلَى الدَّفَاعِ عَنِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ بِدَمِهِ وَرُوحِهِ، وَيَأْمُرُ
لِنَاسٍ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

هَكَذَا كَانَ صِلَاحُ الدِّينِ جَبَلًا شَامِحًا أَمَامَ النَّاسِ، وَظَلَّ هَكَذَا وَالْهُدْمُ
يَتَابِعُهُ بِكُلِّ الْحُبِّ وَالْاِنْبِهَارِ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، وَانْقَرَدَ بِنَفْسِهِ، فَوَقَفَ لَهُ عَلَى
الشُّبَّاكِ، لِيَرَى مِنْهُ مَا يَزِيدُهُ حُبًّا وَاِنْبِهَارًا فَهَاهُوَ مَنْ كَانَ أَمَامَ النَّاسِ جَبَلًا، يُعُودُ
أَمَامَ اللَّهِ طِفْلًا ضَعِيفًا خَائِفًا، يَخِرُّ عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدًا، وَهُوَ يَبْكِي، وَيَبْتِهَلُ إِلَى
اللَّهِ وَيَرْجُوهُ أَنْ يُعِينَهُ وَيَنْصُرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ الْجَبَّارِ، وَأَنْ يَحْفَظَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ
وَدِمَاءَ جَمِيعِ الْأَبْرِيَاءِ.

الصَّبْرُ الْمُرُّ

كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ قُوَّةَ عَدُوِّهِ الْمَغْرُورِ، تَتَفَوَّقُ كَثِيرًا عَلَى قُوَّتِهِ .
وَيَعْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ الْخَبِيثَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ هَذَا أَنْ يُفَوِّتَ عَلَيْهِ فُرْصَةَ اسْتِغْلَالِ سَنَوَاتِ
الْهُدْنَةِ الْأَرْبَعِ فِي تَدْرِيبِ جَيْشِهِ وَتَجْهِيزِهِ . لِذَا يُرِيدُ أَنْ يُورِّطَهُ الْآنَ فِي مَعْرَكَةٍ غَيْرِ
مُتَكَافِئَةٍ، يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ لَنْ يَتَأَخَّرَ عَنِ خَوْضِهَا دِفَاعًا عَنِ أَقْدَسِ
مُقَدَّسَاتِهِ حَتَّى لَوْ كَلَّفَتْهُ حَيَاتَهُ، بَلْ إِنَّهَا حَتْمًا سَتُكَلِّفُهُ حَيَاتَهُ، وَحَيَاةَ الْأَلْفِ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ .

فِيمَا تَلَا ذَلِكَ مِنَ الْأَيَّامِ، كَثَّفَ صَلَاحُ الدِّينِ جُهُودَهُ، وَاسْتَخْدَمَ كُلَّ حِيلِهِ
وِدَعَايَتِهِ، فِي الْإِيحَاءِ لِأَرْنَاطِ أَنْ إِمْدَادَاتٍ كَثِيرَةً قَدْ جَاءَتْهُ مِنْ كُلِّ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ،
وَأَنَّ قُوتَاتٍ كَثِيرَةً قَدْ بَدَأَتْ تَتَحَرَّكُ، لِتُدَافِعَ عَنِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، فَخَافَ وَتَرَاجَعَ
عَنْ تَهْدِيدِهِ . أَمَّا صَلَاحُ الدِّينِ فَقَدْ اسْتَوْعَبَ الدَّرْسَ الْقَاسِيَّ، وَمِنْ يَوْمِهَا لَمْ يَنْمَ !!
حَكَى الْهُدْهُدُ كَثِيرًا عَنِ صَلَاحِ الدِّينِ، فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرُدُّ
بِدَهْشَةٍ وَأَنْبَهَارٍ: فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ، لَا أَذْكَرُ أَنِّي رَأَيْتُ صَلَاحَ الدِّينِ نَائِمًا، إِلَّا
لِحَضَاتٍ قَلِيلَةٍ، مُعْظَمُهَا كَانَ عَلَى حَصِيرِ الْمَسْجِدِ، بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَفِي مُعْظَمِ
هَذِهِ الْمَرَّاتِ، كَانَ هُنَاكَ مِنْ رِجَالِهِ وَمُسَاعِدِيهِ مَنْ يُوقِظُهُ لِأَمْرِ مُهِمٍّ !!

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ هُوَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يُتَابَعَ بِنَفْسِهِ

تَلَّ صَغِيرَةً وَكَبِيرَةً، فِي بِنَاءِ الْجَيْشِ وَتَدْرِيهِهِ
وَتَسْلِيحِهِ، وَإِصْلَاحِ أَحْوَالِ الْبِلَادِ الدَّاخِلِيَّةِ
مِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ، وَشَقِّ التُّرْعِ،
وِإِنِّشَاءِ الْمَصَانِعِ، وَتَمْهِيدِ الطُّرُقِ، وَتَوْفِيرِ الْأَمْنِ،
بِنَاءِ الْأَسْوَارِ وَالْقِلَاعِ وَالتَّحْصِينَاتِ وَالْأَبْرَاجِ.

وَكَانَ يُرَدِّدُ دَائِمًا عَلَى مَسَامِعِ رِجَالِهِ: لَا بُدَّ

أَنَّ نُبِّمَ كُلَّ اسْتِعْدَادَاتِنَا قَبْلَ انْقِضَاءِ سَنَوَاتِ

لِهَذِهِ الْأَرْبَعِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصَّلِيبِيِّينَ،

لِكَيْ نَشْرَعَ فِي الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ

تَحْرِيرِ الْقُدْسِ.

وَكَانَ يُشَدِّدُ عَلَيْهِمْ فِي

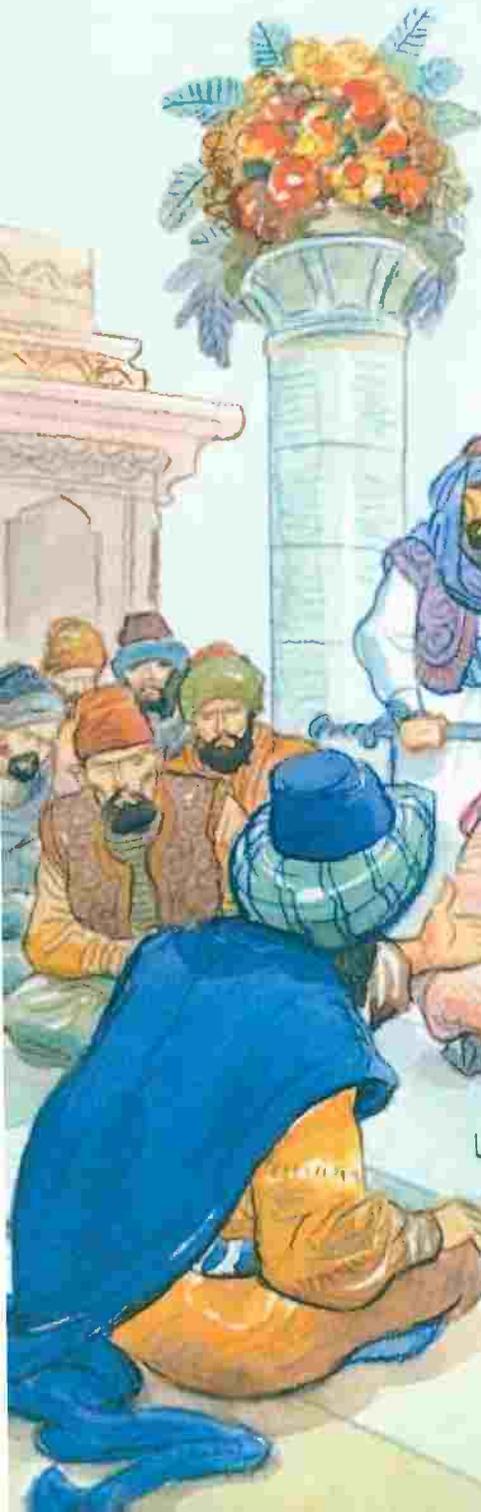
الْقَوْلِ: سَتَكُونُ خُطُوتُنَا

الْأُولَى تَوْحِيدِ مِصْرَ وَالشَّامِ،

فَبِدُونِ تَوْحِيدِهِمَا لَنْ نَسْتَطِيعَ عَمَلَ شَيْءٍ؛ فَهَمَا مَعًا

مِثْلُ الْفَكَّيْنِ، وَبِدُونِ الْفَكَّيْنِ لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نُنْطِيقَ

عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ، وَنُحَرِّرَ الْقُدْسَ.



سَنُ السُّيُوفِ

قَبْلَ انْقِضَاءِ السَّنَوَاتِ الْأَرْبَعِ، كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ أْتَمَّ اسْتِعْدَادَاتِهِ، وَوَحَّدَ مِصْرَ وَالشَّامَ تَحْتَ رَايَتِهِ، وَلَكِنَّهُ الْفَارِسُ الْمُسْلِمُ النَّبِيلُ، الَّذِي لَا يَنْقُضُ عَهْدَهُ حَتَّى مَعَ أَعْدَائِهِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَبْدَأْ بِالهُجُومِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَحَرَّشْ بِهِمْ، وَظَلَّ مُنْتَظِرًا حَتَّى تَأْتِيَهُ الْفُرْصَةُ.

وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَ صَلَاحِ الدِّينِ، فَجَاءَتْهُ الْفُرْصَةُ دُونَ تَأْخِيرٍ، وَمِنْ الْأَحْمَقِ الْمَغْرُورِ نَفْسِهِ، الْمَلِكِ الصَّلِيبِيِّ (أَرْنَاطُ)، مَلِكِ مَدِينَةِ الْكُرْكِ الْوَاقِعَةِ عَلَى الطَّرِيقِ بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ. فَقَدْ شَاءَ بِحِمَاقَتِهِ الْأَيُّورُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ يَنْعَمُونَ بِتِلْكَ الْهُدْنَةِ، وَأَنْ يُقَدِّمَ لِمُصْلِحِ الدِّينِ الْمُبَرَّرِ الدِّيْنِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ لِكَيْ يَتَحَرَّرَ مِنْ عِبَاءِ هَذِهِ الْمُعَاهَدَةِ الَّتِي ثَقِيْلَةٌ. فَقَدْ أَقْدَمَ عَلَى عَمَلِ طَائِفٍ نَقَضَ الْهُدْنَةَ وَأَشْعَلَ الْحَرْبَ، عِنْدَمَا اسْتَوْلَى عَلَى قَافِلَةٍ تِجَارِيَّةٍ مُتَّجِهَةٍ مِنْ مِصْرَ إِلَى دِمَشْقَ، وَأَسْرَ حَامِيَتَهَا وَرَجَالَهَا، وَأَلْقَى بِهِمْ أَسْرَى فِي حِصْنِ الْكُرْكِ.

حَاوَلَ صَلَاحُ الدِّينِ أَنْ يَتَدَرَّعَ بِالصَّبْرِ فَبَعَثَ إِلَى أَرْنَاطُ يُلُوْمُهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَيُهَدِّدُهُ إِذَا لَمْ يَرُدَّ أَمْوَالَ الْقَافِلَةِ وَيُطْلِقَ سَرَاحَ الْأَسْرَى. وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبَ أَرْنَاطُ أَسَاءَ الرَّدِّ، وَاعْتَرَّ بِقُوَّتِهِ، وَرَدَّ عَلَى رُسُلِ صَلَاحِ الدِّينِ بِكَلَامٍ فِيهِ جَفَاءٌ وَكِبْرٌ وَتَحْقِيرٌ لَهُمْ وَلِصَلَاحِ الدِّينِ، وَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ يَهُونُ لَوْ وَقَفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، وَخُصُوصًا مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ صَاحِبِ النَّفْسِ السَّامِيَةِ الْمُتَسَامِحَةِ الَّتِي تَغْفِرُ لِلنَّاسِ، وَتَسَامُحُ مَعَ هَفَوَاتِهِمْ، وَلَكِنْ أَنْ يُسِيءَ هَذَا الْمُتَعَجِّزُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَذَا مَا أَشْعَلَ الْغَضَبَ فِي قَلْبِ صَلَاحِ الدِّينِ، عِنْدَمَا سَمِعَهُ مِنْ رُسُلِهِ، فَهَبَّ صَارِحًا شَاهِرًا سَيْفَهُ، وَكَأَنَّهُ يَرَى أَرْنَاطَ أَمَامِهِ، وَيَصْرُخُ فِي وَجْهِهِ: إِلَّا هَذَا يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَقْتُلَنَّكَ بِسَيْفِي هَذَا!!

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَغْضَبُ فِيهَا صَلَاحُ الدِّينِ هَذِهِ الْغَضَبَةَ، وَيَطْلُقُ بِهَا عَلَى (أَرْنَاطَ) لَقَبَ عَدُوِّ اللَّهِ، وَالْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يُقْسِمُ فِيهَا عَلَى قَتْلِهِ، وَالْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَرَاهُ فِيهَا الْهُدْهُدُ، وَهُوَ مُتَفَرِّدٌ فِي غُرْفَتِهِ يَبْكِي فِي صَلَاتِهِ بِكَاءٍ شَدِيدًا،

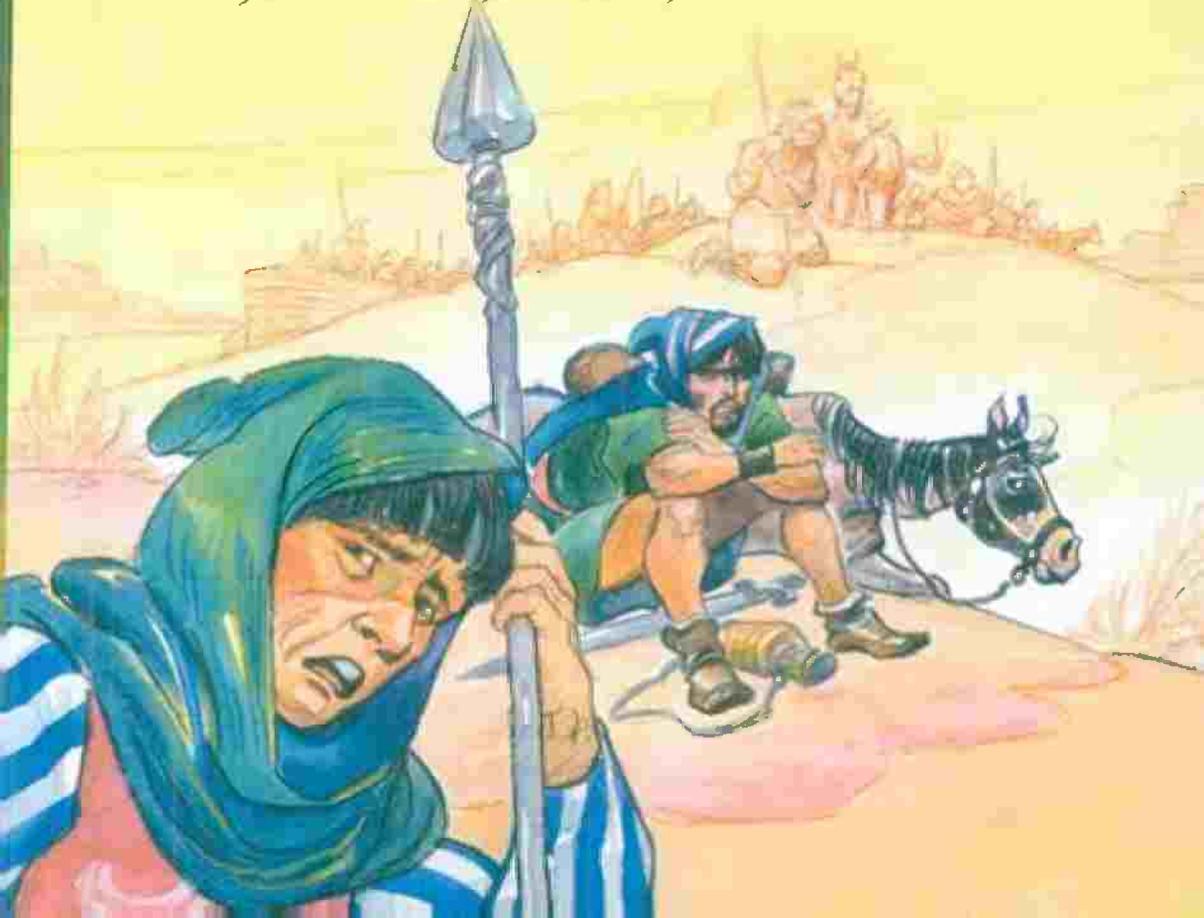
وَيَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَهَبَ لَهُ الصَّبْرَ وَالْعَوْنَ، وَالنَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ.

وَشَعَرَ كَثِيرٌ مِنْ مُلُوكِ لَصَلِيْبِيِّينَ وَكُبَرَائِهِمْ بِالْخَطَرِ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَتَدَارَكُوا الْمَوْقِفَ، وَلَكِنَّ أَرْنَاطَ الْمُتَعَجَّرِ أَصْرًا عَلَى مَوْقِفِهِ، وَرَفَضَ إِعَادَةَ أَمْوَالِ الْقَافِلَةِ وَإِطْلَاقِ الْأَسْرَى، فَزَادَ الْأَمْرَ تَعْقِيدًا، وَلَمْ يَتَّقِ أَمَامَ صَلَاحِ الدِّينِ سِوَى الْحَرْبِ وَالْقِصَاصِ.



المَعْرَكَةُ الكُبْرَى

عَبَّأَ صَلاَحُ الدِّينِ قُوَاهُ وَاسْتَعَدَّ لِمُنَازَلَةِ الصَّلِيبِيِّينَ وَخَوَّضَ مَعْرَكَةَ الجِهَادِ
الْكُبْرَى الَّتِي ظَلَّ يُعِدُّ لَهَا سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ مُنْتَظِرًا الفُرْصَةَ.
وَلَمْ تَكُنْ تَصْرُفَاتٍ (أَرْنَاط) الحَمَقَاءِ سِوَى مُبَرَّرٍ وَسَبَبٍ ظَاهِرِيٍّ لِإِشْعَالِ
حَمَاسَةِ صَلاَحِ الدِّينِ، وَإِعْلَانِ الحَرْبِ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ.
فِي دِمَشْقَ، تَجَمَّعَتِ جُيُوشُ المُسْلِمِينَ مِنْ مِصرَ وَجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَمِنْ دِيَارِ
بِكرٍ وَحَلَبَ، وَمِنْ دِمَشْقَ انْطَلَقَتْ جَحَافِلُهَا، مُتَّجِهَةً إِلَى حِصْنِ الكَرْكِ، فَحَاصَرَتْهُ.
وَدَمَّرَتْهُ، وَفَرَّ أَرْنَاطُ مَدْعُورًا، لِيَلْجَأَ إِلَى مَلِكِ الصَّلِيبِيِّينَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ.



۱۱. خَيْرٌ لَّكُمْ فِيهَا مِمَّا كَفَرْتُمْ لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۲. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۳. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۴. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۵. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۶. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۷. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۸. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۱۹. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۲۰. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۲۱. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

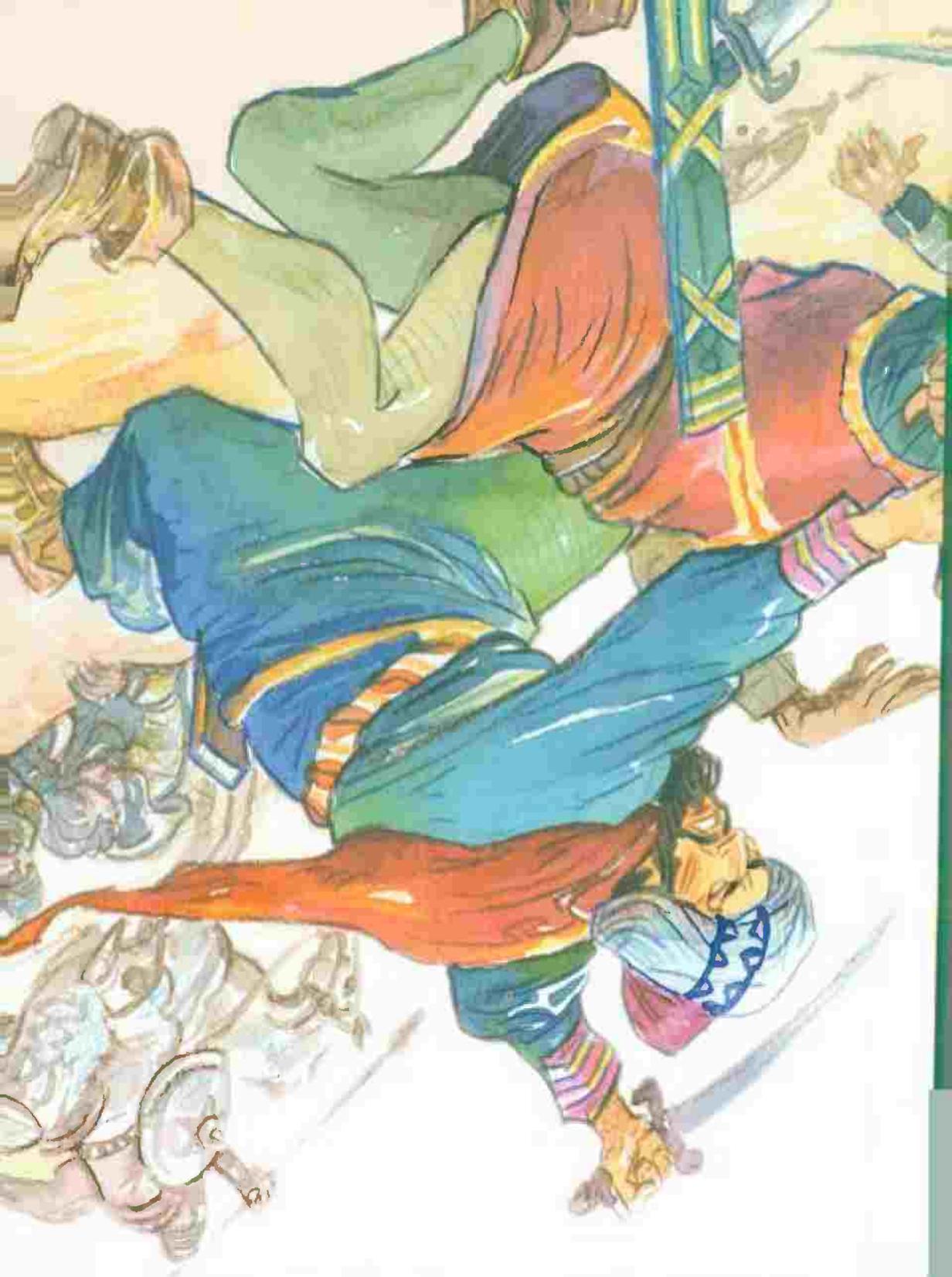
۲۲. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۲۳. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۲۴. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۲۵. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۲۶. لِيُكْفِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ



أَوَّلُ الْإِنْتِصَارَاتِ

تَحَرَّكَتْ قُوَاتُ صَلَاحِ الدِّينِ، فَاقْتَحَمَتْ مَدِينَةَ طَبْرِيَّةَ اقْتِحَامًا سَاحِقًا، وَضَرَبَتْ حِصَارًا مُشَدَّدًا عَلَى قَلْعَتِهَا، فَاسْتَبَدَّ الْغَضَبُ وَالذُّعْرُ بِمُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ، الَّذِينَ انْتَمَوْا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَعَقَدُوا اجْتِمَاعًا يُنَاقِشُونَ فِيهِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عَمَلُهُ. وَبِالطَّبَعِ، كَانَ الْهُدْهُدُ حَاضِرًا هَذَا الْاجْتِمَاعَ!!

بَعْضُ الصَّلِيبِيِّينَ فَهِمَ حِيلَةَ صَلَاحِ الدِّينِ، وَطَلَبَ الْإِنْتِظَارَ وَالتَّرْتِيبَ، مُحَذِّرًا مِنْ صُعُوبَةِ الطَّرِيقِ وَقِلَّةِ الْمَاءِ. وَبَعْضُهُمْ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ، وَاتَّهَمَ الْآخَرِينَ بِالْجُبْنِ وَالضَّعْفِ، وَطَالَ بِسُرْعَةِ الْخُرُوجِ لِمَلَاقَاةِ صَلَاحِ الدِّينِ فِي طَبْرِيَّةَ. وَاحْتَدَّ بَيْنَهُمْ اجْتِدَالٌ، وَاحْتَدَمَ الْخِلَافُ.

وَفِيمَا بَعْدُ، عِنْدَمَا كَانَ الْهُدْهُدُ يَحْكِي عَنِ هَذَا الْاجْتِمَاعِ، كَانَ يَضْحَكُ، وَيَقُولُ سَاحِرًا: وَبِفَضْلِ مِنَ اللَّهِ، كَانَتْ الْعَلْبَةُ، فِي نِهَآيَةِ هَذَا الْاجْتِمَاعِ، لِلْعُرُورِ وَالْعَجْرَفَةِ!! عِنْدَمَا عَلِمَ صَلَاحُ الدِّينِ بِخُرُوجِهِمْ إِلَيْهِ، لَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ مِنَ السَّعَادَةِ، فَحَرَّ سَاجِدًا لِلَّهِ يَشْكُرُهُ عَلَى نِعْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَقَدْ ظَلَّ طَوَالَ أَيَّامٍ يُصَلِّي، وَيَدْعُو اللَّهَ أَنْ تَنْجَحَ خُطَّتُهُ، لَكِنِّي يَجْعَلُهَا مَعْرَكَةً حَاسِمَةً، يَقْضِي فِيهَا عَلَى شَوْكَةِ الصَّلِيبِيِّينَ، بِأَقْلٍ تَضْحِيَّةٍ مُمَكِّنَةٍ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَهَا هِيَ الْأُمُورُ تَسِيرُ كَمَا تَمَّانَهَا.....

بَدَأَ الصَّلِيبِيُّونَ زَحْفَهُمْ فِي ظُرُوفِ بِالِغَةِ الصُّعُوبَةِ؛ تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ حَرَارَةً
شَمْسِ الصَّيْفِ الْحَارِقَةِ، وَيَعَانُونَ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ مِنْ قَلَةِ الْمَاءِ وَوُعُورَةِ الطَّرِيقِ،
وَيُبْعَدُ الْمَسَافَةَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَجُنُودُهُ يَنْعَمُونَ بِالرَّاحَةِ
وَالْمَاءِ وَالظَّلِّ وَالطَّعَامِ، مُدْخِرِينَ قُورَاهُمْ لِسَاعَةِ الْمَعْرَكَةِ.

وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ، بِعَبْقَرِيَّتِهِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْقُدَّةِ، قَدْ دَرَسَ الْمَكَانَ دِرَاسَةً دَقِيقَةً
وَاخْتَارَ لِحُجُودِهِ الْمَوْقِعَ الَّذِي يَمْنَحُهُمُ التَّفُوقَ وَالسَّيْطِرَةَ عَلَى مَصَادِرِ الْمِيَاهِ
وَيُمْكِنُهُمْ مِنْ حِرْمَانِ عَدُوِّهِمْ مِنْهَا، إِلَى جَانِبِ مَيْزَةٍ أُخْرَى لَمْ يُدْرِكْهَا الْكَثِيرُونَ
إِلَّا عِنْدَمَا وَصَلَتِ الْقُوَاتُ الصَّلِيبِيَّةُ، وَأَمَرَ صَلَاحُ الدِّينِ جُنُودَهُ بِإِسْعَالِ النَّارِ فِي
الْأَعْشَابِ وَالشَّجِيرَاتِ وَالْحَطَبِ الَّذِي يَمْلَأُ الْمَكَانَ، وَفُوجِيَ الْجَمِيعُ بِالْفِكْرَةِ
الْبَسِيطَةِ الْعَبْقَرِيَّةِ، فَقَدْ كَانَتِ الرِّيحُ تَهُبُّ بِاتِّجَاهِ قُوَاتِ الصَّلِيبِيِّينَ حَامِلَةً إِلَيْهِمْ
حَرَ النَّارِ وَالِدُخَانَ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ فِي هَذَا الْجَوْ الْخَانِقِ، يُعَانُونَ التَّعَبَ وَالْعَطَشَ
وَالِاخْتِنَاقَ، وَهُمْ يَسْمَعُونَ تَكْبِيرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَتَهْلِيلَهُمُ الَّذِي يَقْطَعُ سُكُونَ
اللَّيْلِ، وَيَهْزُ أَرْجَاءَ الْمَكَانِ، وَيُشِيرُ الْفَزَعَ فِي قُلُوبِهِمْ. كُلُّ ذَلِكَ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ
قُوَاتِ صَلَاحِ الدِّينِ ظَلَّتْ طَوَالَ اللَّيْلِ تَسَلَّلُ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ، وَتُعِيدُ انْتِشَارَهَا،
لِتَضْرِبَ حَوْلَهُمْ حِصَارًا مُحْكَمًا عَلَى شَكْلِ فِكْرَيْنِ، إِنَّهُمَا الْفِكَانِ نَفْسُهُمَا اللَّذَانِ كِلَانِ
صَلَاحِ الدِّينِ يَصِفُهُمَا دَائِمًا لِرِجَالِهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: هَذَانِ الْفِكَانِ هُمَا مِصْرٌ وَالسَّامُ*.

الْقَرْيَةُ الْعَظِيمَةُ

كَانَ هَذَا الْمَوْقِعُ الْفَرِيدُ، الَّذِي اخْتَارَهُ صَلَاحُ الدِّينِ بِإِلْهَامِ عَبْقَرِيٍّ، يَقَعُ عَلَى
أَرْضِ قَرْيَةٍ عَادِيَّةٍ، لَا تَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ آلَافِ الْقُرَى الْجَبَلِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ. وَلَمْ
يَكُنْ لَهَا، حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ، مَا يُمَيِّزُهَا أَوْ يَمْنَحُهَا الشُّهُرَةَ، وَلَكِنَّهَا مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ،
سُتُصِحُّ أَشْهُرُ قَرْيَةٍ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ اسْمَهَا سَيَكُونُ رَمْزًا وَعُنْوَانًا لِأَكْبَرِ مَعْرَكَةٍ،

وَأَعْظَمِ انْتِصَارٍ، يُحَقِّقُهُ

الْمُسْلِمُونَ فِي

تَارِيخِهِمْ عَلَى

الصَّلِيبِيِّينَ الْمُعْتَدِينَ.

إِذَا قَرْيَةُ (حِطِّينَ).

عِنْدَمَا أُشْرِقَتْ

شَمْسُ الصَّبَاحِ، اكْتَسَفَ

الصَّلِيبِيُّونَ حَقِيقَةَ مَوْقِفِهِمْ،

وَالْحِصَارَ الْمَضْرُوبَ عَلَيْهِمْ،

وَأَدْرَكُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ خَطَرٍ،

وَلَمْ يُمَهِّلْهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ

لَحْظَةً لِلتَّفَكِيرِ، فَقَدْ قَامَ مِنْ

سُجُودِهِ وَدُعَائِهِ لِلَّهِ ، قَافِرًا



عَلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ، شَاهِرًا سَيْفَهُ، مُطْلَقًا صِيْحَتَهُ الْمُدْوِيَّةَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ). وَخَلْفَهُ آلَافُ
 الْحَنَاجِرِ تَهْتِفُ: (اللَّهُ أَكْبَرُ). وَآلَافُ السُّيُوفِ تَلْمَعُ تَحْتَ أَشِعَّةِ شَمْسِ الصَّبَاحِ!!
 كَانَ هَذَا الْهُجُومُ الْكَاسِحُ كَفِيْلًا بِتَمْزِيْقِ صُفُوفِ الصَّلِيْبِيِّينَ، وَزَعْرَعَةِ قُوَاهِبِ
 وَكُلَّمَا تَرَا جَعُوا شَدَّدَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، بِكُلِّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إِيْمَانٍ بِاللَّهِ وَبِحَقِّهِمْ
 الْمَسْلُوبِ، وَبِكُلِّ مَا فِي هَذِهِ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ مِنْ كَرَاهِيَةِ لِلظُّلْمِ وَالتَّجْبُرِ.
 قُتِلَ الْآلَافُ، وَامْتَلَأَتْ بِهِمْ أَرْضُ الْمَعْرَكَةِ، حَتَّى ظَنَّ الْبَعْضُ أَنَّ الْجَمِيْعَ قَدْ
 قُتِلُوا، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ!!

وَأَسِرَ الْآلَافُ وَامْتَلَأَتْ بِهِمْ سَاحَاتُ حِطِّينَ حَتَّى ظَنَّ الْبَعْضُ أَنَّ الْجَمِيْعَ قَدْ
 أُسِرُوا، وَلَمْ يُقْتَلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ!!
 وَلَكِنَّ الْحَقِيْقَةَ أَنَّ آلَافًا قُتِلُوا، وَآلَافًا أُسِرُوا، وَآلَافًا آخَرِينَ فَرُّوا مِنَ الْمَعْرَكَةِ
 نَاجِينَ بِحَيَاتِهِمْ، عِنْدَمَا أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ.

عِنْدَمَا تَرَى بِقَلْبِكَ

خَمَدَتِ النَّارُ، وَتَوَقَّفَتِ السُّيُوفُ، وَوَقَّفَ صِلَاحُ الدِّينِ، وَهُوَ فَوْقَ حِصَانِهِ
 يَمْسُحُ بِعَيْنَيْهِ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي فُرِشَتْ بِأَكْدَاسِ الْقَتْلِ، فَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ حُزْنًا
 وَإِسْفَاقًا. وَفَاضَ قَلْبُهُ النَّبِيْلُ دُمُوعًا تَجْرِي فِي عَيْنَيْهِ!!

كَانَ وَزِيرُهُ إِلَى جَانِبِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَرَى فِيهَا أَحَدٌ دُمُوعَ صِلَاحِ الدِّينِ.
 فَاقْتَرَبَ مِنْهُ خَائِفًا مُسْفِقًا، يَقُولُ لَهُ: لَا تَحْزَنْ عَلَى أَبْنَائِنَا يَا سَيِّدِي، فَقَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ

وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ، وَهَذِهِ أَقْلُ تَضَحِيَّاتٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدِّمَهَا جَيْشٌ يَخُوضُ مِثْلَ هَذِهِ
الْمَعْرَكَةِ، لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِنَصْرِ عَظِيمٍ، يُفْرِحُ الْقَلْبَ يَا سَيِّدِي.

وَدُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ صَلَاحُ الدِّينِ، يَقُولُ لَهُ بِصَوْتٍ مَبْحُوحٍ:

أَنَا حَزِينٌ مِنْ أَجْلِهِمْ جَمِيعًا. أَنْظِرْ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ فِي الْمَوْتِ، كُلُّهُمْ أَبْنَاءُ آدَمَ،
كُلُّهُمْ قَتْلَى، كُلُّهُمْ فُقَرَاءُ كُلُّهُمْ شَبَابٌ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ ابْنٌ، أَوْ أَبٌ، أَوْ زَوْجٌ،
أَوْ أُخٌ أَوْ حَيِّبٌ. مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ حُلْمٌ أَهْلِهِ، وَأَمْلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ. هَذِهِ الْأَعْيُنُ
الْمُطْفَأَةُ، وَهَذِهِ الْأَيْدِي الْخَامِدَةُ، كَانَ حَرِيًّا بِهَا أَنْ تَزْرَعَ، وَتَبْنِي، وَتَزْعَى، وَتَحْمِلَ
صِغَارَهَا. وَلِمَاذَا قُتِلُوا؟ إِنَّهُمْ ضَحَايَا أَطْمَاعِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ الْمُتَجَبِّرِينَ،

وَرِجَالِ الْكَنِيسَةِ الْخُبَاءِ. الَّذِينَ يُرِيدُونَ السَّيْطَرَةَ عَلَى

الْبِلَادِ وَإِذْلالِ الْعِبَادِ. لَقَدْ اسْتَعْلَمُوا مَشَاعِرَ هَؤُلَاءِ

الْبِسْطَاءِ، وَأَوْهَمُوهُمْ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَنَا دِفَاعًا عَنِ

الْمَسِيحِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْكَنِيسَةِ وَالصَّلِيبِ، وَزَرَعُوا

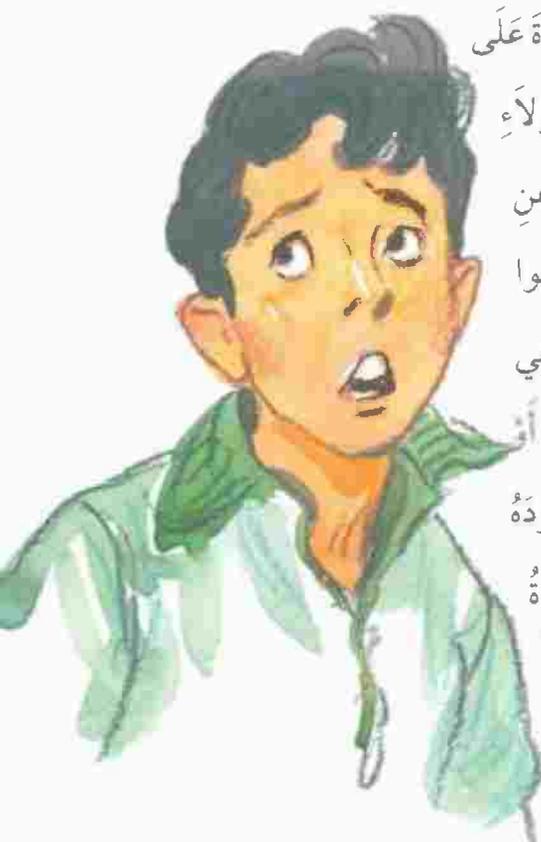
فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ لَهُمْ، وَحَدَهُمْ، الْحَقَّ الْمُقَدَّسَ فِي

هَذِهِ الْأَرْضِ. وَأَنَّ مَنْ سِوَاهُمْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ أَوْ

كَرَامَةٌ، بَلْ إِنَّ مِنْ وَاجِبِهِمْ سَخْفَهُ وَإِذْلالَهُ وَطَرْدَهُ

مِثْلَهَا؛ تَطْهِيرًا لَهَا، وَصَوْنًا لِقَدَاسَتِهَا!! إِنَّهَا الْفِكْرَةُ

الْخَبِيثَةُ الشَّرِيرَةُ الَّتِي مَا دَخَلَتْ قَلْبَ إِنْسَانٍ إِلَّا



حَوَّلَتْهُ إِلَى مُعْجِرٍ قَاتِلٍ. وَكُلُّ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ البُسَطَاءِ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى حَقٍّ،
وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، كُتِبَتْ لَهُمْ ضَحَايَا هَذِهِ الفِكرَةِ السَّوْدَاءِ، وَقَبْلَهُمْ آلاَفُ آلاَفِ
القَتْلَى وَالْمُسْرَدِينَ وَالْمَبْذُورِينَ وَالْمُسْتَعْبِدِينَ فِي كُلِّ العُصُورِ.

صَرَخَةُ الأُمِّ

- يَا صَلَاحَ الدِّينِ... يَا سُلْطَانَ المُسْلِمِينَ.

صَرَخَةُ امْرَأَةٍ صَلِيبِيَّةٍ نَائِحَةٍ تَقَطَّعُ عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ، وَتَأْتِي مُسْرِعَةً تَجْرِي
إِلَيْهِ، يَقِفُ لَهَا الحُرَّاسُ لِيَمْنَعُوهَا، وَلَكِنَّهُ يُسِيرُ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ، وَيَنْزِلُ لَهَا مِنْ فَوْقِ
حِصَانِهِ، فَتَفَعُّ المَرْأَةُ عَلَى رِجْلَيْهِ بَاكِئَةً مُتَوَسِّلَةً: وَلَدِي يَا سُلْطَانَ المُسْلِمِينَ .
وَلَدِي.. أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ وَلَدِي.

وَيَمُدُّ لَهَا صَلَاحُ الدِّينِ يَدَهُ الحَانِيَّةَ لِكَيْ يُوقِفَهَا، وَهُوَ يَقُولُ: مَاذَا جَرَى

لِوَلَدِكَ!؟

فَتَقُولُ المَرْأَةُ الصَلِيبِيَّةُ: جُنُودُكَ أَخْلَنُوهُ
أَسِيرًا، وَلَيْسَ لَنَا سِوَاهُ، فَمَنْ سَيُطْعِمُنِي
وَيُطْعِمُ الصَّغَارَ، أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ أَنْ...
وَيَرْفَعُ صَلَاحُ الدِّينِ يَدَهُ الحَانِيَّةَ أَمَامَ وَجْهِهَا



لَيْسَكِنَّهَا، وَهُوَ يَقُولُ: لَا تَسْتَحْلِفِينِي. فَلَسْتُ ظَالِمًا وَلَا جَبَّارًا وَلَا مُنْتَقِمًا، وَمَا
صَعَلْتُ كُلَّ هَذَا إِلَّا إِنْصَافًا لِكُلِّ مَظْلُومٍ.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى الْحُرَّاسِ وَيَأْمُرُهُمْ: أَكْرِمُوا الْأُمَّ، وَرُدُّوا إِلَيْهَا وَلَدَهَا.

وَيَمْضِي صَلاَحُ الدِّينِ مُبْتَعِدًا، وَصَوْتُ الْمَرْأَةِ الصَّلِيبِيَّةِ وَرَاءَهُ، يَدْعُو لَهُ

بِلْتَضْرٍ!!

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ صَلاَحَ الدِّينِ لَمْ يَكُنْ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، يَسْمَعُ صَوْتَ الْمَرْأَةِ

الصَّلِيبِيَّةِ، بَلْ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتًا آخَرَ، يَأْتِيهِ مِنْ أَعْمَاقِ الذَّاكِرَةِ: إِنَّهُ صَوْتُ الْعَجُوزِ،

أَبِي دَخَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسْجِدَ فَجَاءَهُ، مُنْذُ سَنَوَاتٍ، وَكَانَهَا خَرَجَتْ لَهُ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ،

لِكَيْ تُوقِظَهُ مِنْ غَفْلَتِهِ. ثُمَّ ذَهَبَتْ وَاخْتَفَتْ فَجَاءَهُ، كَمَا ظَهَرَتْ فَجَاءَهُ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ

اسْتَقَّتْ وَابْتَلَعَتْهَا، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا فِي الدُّنْيَا أَثَرٌ، اسْتَيْقَظَتْ فِي قَلْبِهِ ذِكْرَاهَا، وَشَعَرَ

بِحَيْنٍ غَرِيبٍ إِلَيْهَا، وَتَمَنَّى مِنْ أَعْمَاقِ أَعْمَاقِهِ لَوْ كَانَتْ مَعَهُ الْآنَ!!

وَالْغَرِيبُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنَّ الْهُدْهُدَ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَيْهَا، أَوْ

مَعْرِفَةَ أَيِّ شَيْءٍ عَنْهَا. وَالْحُرَّاسُ أَنْفُسُهُمْ أَقْسَمُوا أَمَامَ صَلاَحِ الدِّينِ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا

أَحَدًا يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، مِمَّا جَعَلَ الْهُدْهُدُ، طَوَالَ حَيَاتِهِ، مُقْتَنِعًا تَمَامًا أَنَّ

هَذِهِ الْمَرْأَةُ لَيْسَتْ سِوَى جَبِيَّةٍ صَالِحَةٍ مُؤْمِنَةٍ، مِنْ سُكَّانِ الْخَفَاءِ!!

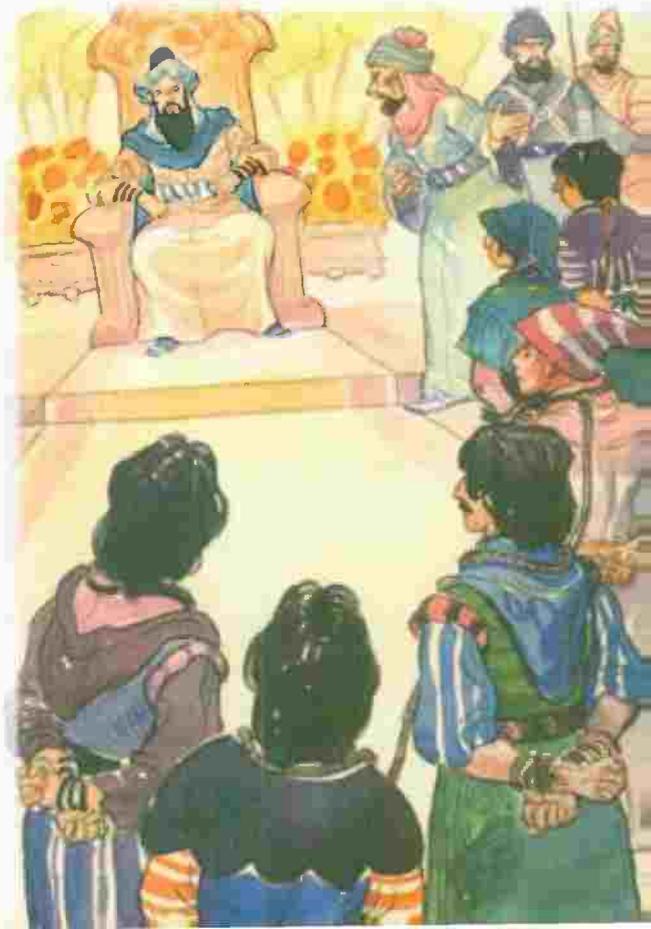
العقاب

عَادَ صَلاَحُ الدِّينِ إِلَى خَيْمَتِهِ، وَمَا كَادَ يَجْلِسُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ جُنُودُهُ، وَهُمْ يَسْوَفُونَ مِثَّةً وَخَمْسِينَ أَسِيرًا مِنْ مُلُوكِ وَكُبْرَاءِ الصَّلِيبِيِّينَ، عَلَى رَأْسِهِمْ مَلِكُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمَعَهُ أَرْنَاطُ، الَّذِي لَقَبَهُ صَلاَحُ الدِّينِ بَعْدُوَ اللهُ، وَأَقْسَمَ مَرَّتَيْنِ إِنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ أَنْ يَقْتُلَهُ.

اسْتَقْبَلَ صَلاَحُ الدِّينِ أَسْرَاهُ بِمَا تُمْلِيهِ عَلَيْهِ أَخْلَاقُ الْفَارِسِ الْمُسْلِمِ، مِنَ الْاِحْتِرَامِ وَالْاِكْرَامِ، وَأَمَرَ لَهُمْ بِالْمَاءِ الْمُتَلَجِّ، بَلْ إِنَّهُ قَامَ بِنَفْسِهِ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَكْوَابَ الْمَاءِ

بِيَدِهِ، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَّا أَرْنَاطًا، ثُمَّ يُعْطِيهِ الْمَاءَ، حَتَّى لَا يَكُونَ قَدْ أَعْطَاهُ الْأَمَانَ. وَفَهُمَ الْجَمِيعُ مَا يَنْوِيهِ صَلاَحُ الدِّينِ، وَحَاوَلَ مَلِكُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الْاِحْتِيَالَ عَلَى الْمَوْقِفِ، فَلَمَّا شَرِبَ، أَعْطَى أَرْنَاطَ الْكُوتِ لِيَشْرَبَ مَا تَبَقِيَ مِنْهُ، فَغَضِبَتْ صَلاَحُ الدِّينِ، وَهَمَّ وَاقْفًا وَفِي يَدِهِ سَيْفُهُ الْمَسْلُورُ، وَقَالَ:

إِنَّ عَدُوَّ اللهِ هَذَا لَمْ يَشْرَبِ الْمَاءَ



بِذَنِّي، فَيَنَالَ أَمَانِي، لَا أَمَانَ لَهُ عِنْدِي، فَيَسْبِيهِ، وَيَسْبِبُ أَمْثَالَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ
الْمُتَعَصِّبَةِ السُّودَاءِ، أُرِيقتُ كُلَّ هَذِهِ الدِّمَاءِ الْبَرِيئَةِ. وَأَنَا لَسْتُ مُتَّقِمًا وَلَا جَبَّارًا، إِنَّمَا
أَنَا حَاكِمٌ مُسْلِمٌ، يُقِيمُ شَرْعَ اللَّهِ، وَيَسْعَى لِثَبَاتِ أَرْكَانِ عَدْلِهِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، لِكَيْ
يَصُونَ كَرَامَةَ خَلْقِهِ مِنْ كُلِّ الْأَجْنَاسِ وَالْأَدْيَانِ. وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمُجْرِمُ عَدُوًّا لِي أَنَا
لَسَامَحْتُهُ، وَعَفَوْتُ عَنْهُ، وَلَكِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، الَّذِي أَرَادَ الْإِعْتِدَاءَ عَلَيَّ حُرْمَاتِهِ فِي مَكَّةَ
وَالْمَدِينَةِ، وَالَّذِي نَقَضَ عَهْدَهُ مَعِي، وَنَهَبَ الْقَافِلَةَ، شَانَهُ شَأْنُ أَيِّ مُجْرِمٍ،

قَاطِعِ طَرِيقٍ، مُفْسِدِ فِي الْأَرْضِ. وَلَمْ يَتَوَقَّفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ
إِنَّمَا تَعَالَى وَتَجَبَّرَ، وَأَسَاءَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي الْمَرَّتَيْنِ، أَفْسَمْتُ، وَنَذَرْتُ لِلَّهِ أَنْ أَقْتُلَهُ إِنْ أَنَا
ظَفِرْتُ بِهِ، أَمَا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مَنِّي الْأَمَانُ، فَمَنْ تَابَ عَن حِقْدِهِ
وَكَرَاهِيَتِهِ وَتَعَالَيْهِ، وَنَبَذَ الْعَدَاوَةَ، فَلَهُ الْحَقُّ فِي الْعَيْشِ مَعَنَا،
أَمِنًا مَوْفُورَ الْكِرَامَةِ، لَهُ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا. أَمَا عَدُوُّ اللَّهِ
هَذَا، فَلَا أَمَانَ لَهُ عِنْدِي. وَإِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَكُونَ آخِرَ مَنْ
أُرِيقُ دَمَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ.

وَفِي غَمْضَةِ عَيْنٍ، كَانَتْ رَأْسُ أَرْنَاطٍ
تَدَخَّرُ عَلَى أَرْضِ الْحَيْمَةِ!!

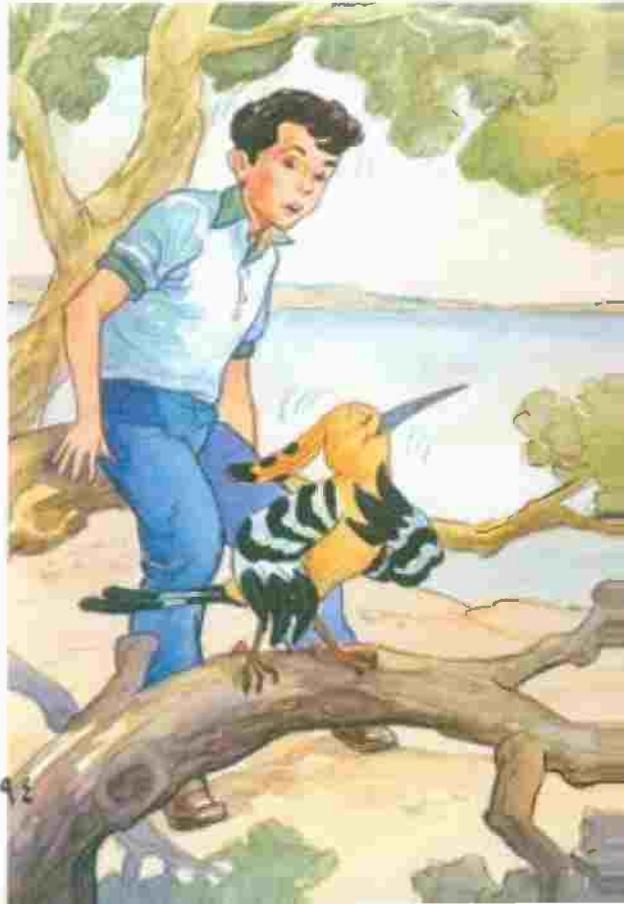


وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ

مَضَى الصَّيْفُ بِحَرِّ شَمْسِهِ، وَصِرَاعِهِ الدَّامِي، وَجَاءَ الشِّتَاءُ بِأَمْطَارِهِ الْعَزِيزِ
لِيُغْسِلَ مَا تَبَقِيَ عَلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنَ الدَّمِ وَالذُّمُوعِ، وَيَرْوِي بِهَا أَزْهَارَ الْمَحَبَّةِ
وَالسَّلَامِ، الَّتِي عَادَتْ لِتَتَفَتَّحَ فِي الْقُلُوبِ، وَتُزْهِرَ فِي الْحَدَائِقِ، وَفِي الشُّوَارِعِ،
وَعَلَى شُرُفَاتِ الْبُيُوتِ.

وَعَادَ الْهُدْهُدُ إِلَى سَعَادَتِهِ الْأُولَى، لِيَقِفَ وَبِجَانِبِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فِي عَشِّ
الْقَدِيمِ، فَوْقَ مَنَارَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، يَرْفُبُ أَسْرَابَ الْحَمَامِ، وَهِيَ تَتَقَلَّبُ حُرَّةً فِي
الْفَضَاءِ عَلَى صَوْتِ أَجْرَاسِ الْكِنَائِسِ،
مَا أَرْوَعَ عَوْدَةَ السَّلَامِ إِلَى أَرْضِ
السَّلَامِ، وَمَا أَجْمَلَ عَوْدَةَ الْمُؤَذِّنِ إِلَى
مَكَانِهِ الْقَدِيمِ، فَوْقَ مَنَارَةِ الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى، لِيَقِفَ كَعَادَتِهِ تَحْتَ الْعُشِّ
مُبَاشِرَةً، يُنْتِمِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ، قَبْلَ
أَنْ يَصْدَحَ بِالْأَذَانِ، فَيَبْعَثَ الْحَيَاةَ فِي
شُورَاعِ الْقُدْسِ النَّائِمَةِ.

وَطَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ، كَانَ صَدِيقِي
الْهُدْهُدُ يَحْكِي بِلَا تَوْقُفٍ، وَدُونَ أَنْ





يُرْتِي عَلَى سِيرَةِ وَلَدِهِ الْغَائِبِ!! وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، تَوَقَّفَ
فَجَاءَهُ عَنِ الْكَلَامِ، وَمَطَّ رَقَبَتَهُ، وَأَخَذَتْ عَيْنَاهُ تَزْبِغَانِ فِي كُلِّ
أَجْزَاءِهِ، وَهُوَ يَتَسَمَّمُ الْهَوَاءَ بَعْمَقٍ وَتَسَارِعٍ، وَيَسْأَلُنِي: هَلْ
تَرَى شَيْئًا؟!

قُلْتُ خَائِفًا مُنْذِهَشًا: أَيُّ شَيْءٍ تَقْصِدُ؟!

فَقَالَ: وَلَدِي، إِنِّي أَشْمُ رَائِحَةَ وَلَدِي!!

تَعَجَّبْتُ مِنَ الْهُدُودِ، وَشَعَرْتُ بِالْخَوْفِ وَالْإِسْفَاقِ عَلَيْهِ. فَبَعْدَ أَنْ
ضَعُفَ بَصْرُهُ، يَبْدُو أَنَّ عَقْلَهُ أَيْضًا قَدْ أَصَابَهُ الضَّعْفُ وَالْخَرَفُ!!
وَهُنَا، حَدَّثَتِ الْمُفَاجَأَةُ الْأَعْرَبُ مِنَ الْخَيَالِ، فَقَدْ حَطَّ أَمَامَهُ عَلَى
لُغْضِنِ هُدُودٍ شَابٍّ يَصِيحُ: أَبِي، أَنَا وَلَدُكَ!!

وَأَنْطَلَقَ إِلَى حِضْنِ أَبِيهِ الَّذِي عَانَقَهُ بِجَنَاحَيْهِ، وَارْتَمَى بِهِ مِنْ فَوْقِ

الْغُضْنِ، لِيَتَقَلَّبَا مَعًا عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ الصِّيَاحِ

وَالضَّحِكِ وَالذُّمُوعِ، وَغَرَسِ الْمَنَاقِيرِ فِي

الْأَكْتِفِ وَتَحْتَ الْأَجْنِحَةِ. ثُمَّ انْطَلَقَا مَعًا فِي

انْفِعَالٍ غَرِيبٍ يَزُقْصَانِ، وَيَهْدِهْدَانِ، وَيَدُورُ

أَحَدُهُمَا حَوْلَ الْآخَرِ رَافِعًا جَنَاحَيْهِ، ضَارِبًا

الْأَرْضَ بِرِجْلَيْهِ، بِإِيْقَاعَاتٍ رَائِعَةٍ!!



كَانَتْ لَحَظَاتُ فَرَحٍ لَا حُدُودَ لَهُ، أَعَادَتْ إِلَى الْهُدُودِ الْعُجُوزِ شَبَابَهُ، لِدَرَجَةٍ
أَنْبِي لَمْ أَكُنْ أَفْرُقُ بَيْنَهُمَا فِي الْخِيفَةِ وَرَشَاقَةِ الْحَرَكَةِ، لَوْلَا الْجَبِيرَةُ الَّتِي لَا تَزَالُ عَلَى
جَنَاحِ صَاحِبِي!!

وَقَفْتُ مَذْهُولاً، أَسْتَرْجِعُ مَا مَضَى؛ فَهَذَا هُوَ وَلَدُهُ الَّذِي كَانَ طِفْلاً نَائِماً فِي
الْعُشِّ، عِنْدَمَا فَجَّرَ الصَّهَابُ النَّبِيَّ، وَهَدْمُوهُ عَلَى سُكَّانِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ مَاتَ مَعَهُمْ
تَحْتَ الْأَنْقَاصِ، فَجَاءَ إِلَيَّ مِصْرَ يَبْحَثُ عَنِ صَدِيقٍ مِنَ الْبَشَرِ، الَّذِي يَكْتُبُونَ
وَيَقْرَأُونَ، لِكَيْ يَنْقَلَ إِلَيْهِ أَمَانَتُهُ وَأَسْرَارُهُ، وَكُنْتُ أَنَا هَذَا الْإِنْسَانَ، وَكَانَتْ هَذِهِ
النَّعْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ نَصِيبي!!

وَلَمْ أَفِقْ مِنْ ذُهُولِي، إِلَّا عَلَى صَوْتِ الْهُدُودِ، وَهُوَ يُسِيرُ إِلَيَّ بِجَنَاحِهِ، وَيَقُولُ:
لَابْنِهِ: يَا وَلَدِي، هَذَا أَخُوكَ الْبَشَرِ الْإِنْسَانُ. سَلِّمْ يَا وَلَدِي عَلَى أَحْمَدَ الْأَمِينِ، فَهُوَ
أَخُوكَ، وَحُبُّهُ فِي قَلْبِي مِثْلَ حُبِّكَ فِي قَلْبِي!!

فَطَارَ الْهُدُودُ الشَّابُّ، وَحَطَّ عَلَى كَتْفِي، وَأَخَذَ يَمْسُحُ رَأْسَهُ فِي وَجْهِهِ!!
وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، بَكَيْتُ بِشِدَّةٍ، لَسْتُ أَدْرِي لِمَذَا، هَلْ بَكَيْتُ مِنَ الْفَرَحِ بَعُودَةِ
الْهُدُودِ إِلَى أَبِيهِ، أَمْ بَكَيْتُ خَوْفاً أَنْ يَذْهَبَ مَعَ وَلَدِهِ، وَيَتْرُكَنِي وَحِيداً.

وَكَأَنَّ الْهُدُودَ، كَعَادَتِهِ، فَهَمَّ مَا يَدُورُ بِخَاطِرِي، فَإِذَا بِهِ يُوصِي وَلَدَهُ، وَيَقُولُ لَهُ:
لَا تَتْرُكْ أَحَاكَ هَذَا يَوْماً وَاحِداً، فَلَيْسَ لَكَ أَحٌ غَيْرُهُ، كُنْ مُلَازِماً لَهُ طَوَالَ

حَيَاتِكَ، وَلَا تَخَفِ عَنْهُ شَيْئًا، أَطْلِعْهُ يَوْمًا بِيَوْمٍ، عَلَى كُلِّ مَا تَرَاهُ وَتَسْمَعُهُ مِنْ
الْأَسْرَارِ وَالْأَخْبَارِ، أَمَا أَنَا، فَلَنْ أَتْرُكُهُ حَتَّى آخِرِ يَوْمٍ فِي حَيَاتِي.

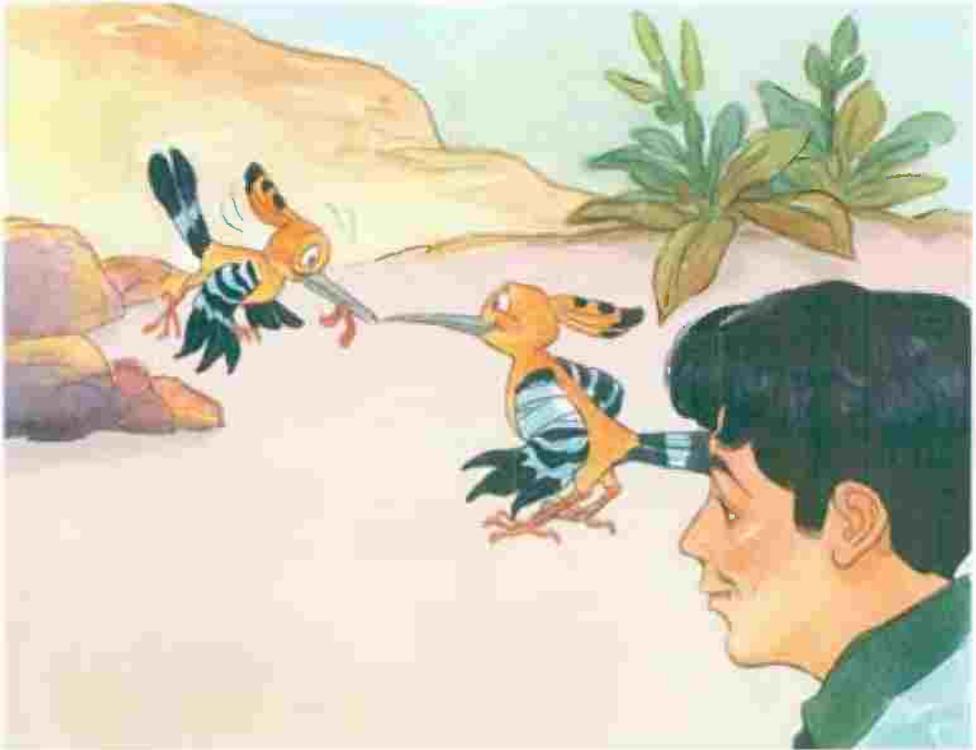
ثُمَّ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَفَعَ جَنَاحَيْهِ، وَأَخَذَ يَيْتَهُلُ إِلَى اللَّهِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ
صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ، لَكَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، وَجَعَلْتَنِي أَسْعَدَ
طَائِرٍ فِي الْوُجُودِ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ نَفْتَرِقْ أَبَدًا، وَلَمْ يَفْتَرِقِ الْابْنُ عَنْ أَبِيهِ إِلَّا عِنْدَ النَّوْمِ، فَقَدْ بَنَى
الشَّابُّ لِنَفْسِهِ عُشًّا عَلَى تَعْرِيشَةِ الْعِنَبِ فَوْقَ سَطْحِ بَيْتِنَا. أَمَا الْأَبُ الْعَجُوزُ، فَلَمْ يَعُدْ



يَسْتَطِيعُ الطَّيْرَانِ، رَغْمَ أَنَّ جُرْحَهُ قَدْ ائْتَمَلَ، وَلَمْ يَعُدَّ يُؤْلَمُهُ. وَلِذَا فَقَدْ ظَلَّ يَنَامُ فِي
 غُرْفَتِي كُلَّ لَيْلَةٍ فِي قَفْصِ الْكَتَاكَيْتِ، لِيَكُونَ فِي مَأْمِنٍ مِنْ شَرِّ الْعَرَسَةِ الَّتِي تَتَرَبَّصُ بِهِ.
 وَفِيمَا تَلَا ذَلِكَ مِنْ أَيَّامٍ، ظَلَّ الْهُدُودُ مُحَافِظًا عَلَيَّ مَا تَعَوَّدْنَا عَلَيْهِ، فَكُنَّا نَجْلِسُ
 كُلَّ صَبَاحٍ فِي مَكَانِنَا الْمُعْتَادِ تَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ، مِنْ شُرُوقِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا،
 لِيَحْكِيَ لِي وَلَائِنِّي كُلَّ مَا سَمِعَ وَمَا رَأَى، وَكُلَّ مَا وَرِثَهُ مِنْ حِكَايَاتِ أَجْدَادِهِ، مُدَّ
 جَدَّهُ الْأَوَّلِ هُدُودِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَعَيَّرَ، أَنِّي لَمْ أَعُدَّ أَحْفِرُ لَهُ التَّرْبَةَ بِغُضَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسِ،



وَقَلْبُهَا أَمَامَهُ، لِكَيْ أُسَاعِدَهُ، بَلْ أَصْبَحَ ابْنُهُ الْهُدُودُ الشَّابُّ يَقُومُ بِذَلِكَ، فَيَنْقُرُ فِي
الثَّرْبَةِ اللَّيْتَةِ بِمِنْقَارِهِ الْقَوِيِّ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا الطَّعَامَ، وَيَضَعُهُ فِي فَمِ أَبِيهِ!!

أُضِدِّقَاتِي الْأَعْرَاءَ...

مَا قَرَأْتُمُوهُ، حَتَّى الْآنَ، فِي هَذَا الْكِتَابِ، هُوَ الْحِكَايَاتُ الَّتِي اخْتَارَهَا
لَكُمْ الْهُدُودُ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَسَمَّحَ لِي بِبَشْرِهَا،
وَتَقْدِيمِهَا إِلَيْكُمْ، بَعْدَ أَنْ حَمَلَنِي الْأَمَانَةَ، أَنَا وَوَلَدُهُ
الْهُدُودُ الشَّابُّ، وَأَخَذَ عَلَيْنَا الْعَهْدَ مِنْ جَدِيدٍ.
أَمَّا بَقِيَّةُ حِكَايَاتِهِ الَّتِي دَوَّنْتُهَا فِي عَشْرَاتِ الدَّفَاتِرِ،
فَهِيَ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا قَرَأْتُمُوهُ الْآنَ. وَلَكِنِّي،
بِكُلِّ أَسْفٍ، مُضْطَرٌّ لِلتَّوَقُّفِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بِنَاءً
عَلَى وَصِيَّتِهِ، فَقَدْ أَمَرَنِي أَلَّا أَنْشُرَ الْبَقِيَّةَ إِلَّا فِي
مَوْعِدٍ مُحَدَّدٍ، وَأَخَذَ عَلَيَّ الْعَهْدَ بِذَلِكَ!!
وَعِنْدَمَا سَأَلْتُهُ: وَكَيْفَ سَأَعْرِفُ هَذَا

الْمَوْعِدَ الْمُحَدَّدَ؟

قَالَ: سَيُلْغِكَ بِهِ أَخُوكَ هَذَا.

وَحَتَّى الْآنَ، لَمْ يَسْمَحْ لِي أَخِي الْهُدُودُ بِذَلِكَ،





رَغْمَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ الْأَخَ الْوَفِيِّ الْحَبِيبِ. فَهُوَ لَا يَنْقَطِعُ عَنْ زِيَارَتِي، وَلَا يُطِيلُ الْغِيَابَ
عَنِّي، يَجُوبُ أَرْجَاءَ الدُّنْيَا الْوَاسِعَةِ، وَيَعُودُ إِلَيَّ، لِكَيْ يُطْلِعَنِي عَلَى كُلِّ مَا رَأَى،
وَمَا سَمِعَ، وَمَا عَرَفَ، وَلَا أَتَوَقَّفُ أَنَا عَنْ تَدْوِينِ كُلِّ ذَلِكَ.
وَفِي نَهَايَةِ كُلِّ لِقَاءٍ، أَسْأَلُهُ: مَتَى سَتَأْذُنُ لِي بِنَشْرِ حِكَايَاتِكَ، وَحِكَايَاتِ الْوَالِدِ؟
فَيَتَسَمُّ لِي بِحُبِّ، وَيَقُولُ: قَرِيبًا بِإِذْنِ اللَّهِ.
ثُمَّ يَنْطَلِقُ مُحَلِّقًا فِي الْأَفَاقِ.